محمود رزق سليم
خريج دار العلوم
والمدرس بمعهد الاسكندرية الدينى

الأدب العربى

من عهد الفاطميين الى اليوم

الطبعة الأولى

١٣٥٧هـ – ١٩٣٨م

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

بقلم محمود رزق سليم
خريج دار العلوم
والمدرس بمعهد الاسكندرية الدينى

الأدب العربى

من عهد الفاطميين الى اليوم

الطبعة الأولى

١٣٥٧هـ – ١٩٣٨م

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أحمدك اللهم وأستعينك وأستهديك وأصلى على رسولك محمد النبى الكريم . عليه الصلاة والسلام . وبعـــد فهذا كتاب حوى بين دفتيه موضوعات فى الأدب العربى و تاريخه منذ عصر الفاطميين إلى اليوم فى مصر . وكان جديراً بى أن أسميه « تاريخ الأدب العربى المصرى » . لأنه منـــذ عصر الفاطميين بدأ الأدب فى بلادنا يصطبغ بصبغة خاصـة ، يمكن أن تفرده عما عداه من آداب الشعوب العربية الأخرى . وما زال جادا فى مصريته حتى أصبح وله طـابع ممتاز فى عصر المماليك يمكن أن يفرق بينه وبين غيره . وقد كان من حظ مصر فى عصرها الحديث أن شأت غيرها من بلدان العرب فى ميدان الأدب ، حتى أصبح الأدب المصرى نموذجا يحتذي ونمطا يتبع . ـ كنتُ أسميه كذلك لولا ماتخلله أحيانا من الإشارة إلى الأدب فى غير مصر .

وهذه الفترة فى تاريخ الأدب هى التى عنى بها منهج التعليم بالأزهر والمعاهد الدينية . فقرر دراستها لطلاب السنة الخامسة الثانويـــة . وكان من حظى أن زاولت تدريس ذلك فى السنة المذكورة . فحفزنى مارأيته من تشتت موضوعات المنهج فى كتب عـــدة ، إلى العناية بجمعها بما يعين الطلاب على الزمن والجهد . على أنى رأيت بعض الكتب المذكورة لم يوف هـــذه الموضوعات حقها من الشرح والدقـــة . فألم بها إلماما لايساعد الطالب فى السنة الخامسة الثانوية وفى المعاهد الدينية على دراســة أدبية جيدة مناسبة . فعملت على تلافى ذلك أيضا مصطنعاً فيه عبارة سهله لا التواء فيها ولا غموض . عاملا على الاستفادة مما كتبه نقـاد الأدب الحديثون من نقد ، وما ذهبوا إليه من رأى ، وما سنوه من نهج ، وما ابتدعوه من طرق . مستدركا على ما أراهُ منهم يستحق الاستدراك

ولعلى بذلك أجمع بين قديم العلم وحديثـــه . وألفت نظر الطالب إلى مايدور حول الأدب فى العصر الحاضر . فلعله أيضاً ينتفع ويرغب فى المزيد .

ولا أعنى بما قدمت غمطا لمصادر الأدب الحديثة . ـ حاشا لله ـ فما بينها إلا المرجـــع والسند . وما بين مؤلفيها إلا شيخ تتلمذت له . أو أستاذ أخذت عنه ، أو أديب غذيت بأدبه . ـ ولـكن الـكمال لله وحـــده . والنـاقد البصير والقارىء اللبيب سيرى فيما أعرضه عليـه فى هذا الـكتاب مجهودا ـ وإن يكن جهد المقل ـ قمينا بأن يظفر ببعض التقدير والتشجيع .

وقـــد عنيت مااستطعت بأن أشير إلى المراجع التى استعنت بها . وذلك لسببين : الأول أن أعترف بالفضل لذويه . والثانى أن أعاون الطالب المجـــد المحب للبحث على الرجوع إلى تلك المصادر فى سهـــولة ويسر . فإن من أهم عيوب مؤلفاتنا الحديثة عدم العناية بالإشارة إلى المراجع عند كل باب أو فصل وعند كل رأى أو نظرية تستحق ذلك ، اكتفاء بذكرها جملة واحدة . وإنى إذ أذكر ذلك أرمى إلى أن يكون للكتاب فائدة مزدوجة فيستفيد القارىء مافيه من معلومات . ويستعين به استعانة سريعة جدية منظمة على البحث وإكماله إذا أراد .

وإنى لأعترف على كتابى هـــذا بأنه لم يَعْدُ أن يكون عجالة يسيرة . وأرجو الله أن يتيح لى الفرصة للمزيد . وما هـــو إلا باكورة عمل أرجو أن تكون موفقة وفاتحة خير وبداية لأسعد نهاية إن شاء الله . وخاصـــة فى ذلك العهد الجديد الذى أخـــذ فيه الأدب اللباب يبدو على مسرح الحياة الصحيحة . ويكون ذا أثر جدى فيها . والذى بدأ فيـه الأزهر بأساتذته وطلابه وعلى رأسهم شيخهم الأجل وأستاذهم الأكبر فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى يسابقون مجلين فى ميدانه ويقومون بنصيبهم المحمـود فى إحيائه وبعثه وتجديده . والذى سعدت فيـــه مصر العزيزة بأن يتسلم زمامها مولانا المليك المحبوب ناصر العلم والأدب والدين فاروق الأول حفظه الله .

وبعد فهذا كتابى . والله أسأل أن ينفع به . والسلام

المؤلف

إجمال لحياة الآداب فى مصر

أيام الدولة الفاطمية والأيوبية

مقدمة

قبل أن نتكلم عن الأدب العربى فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية نرى لزاما علينا أن نتصفح أيام الدولة العباسية وأدبها . حتى نستطيع أن نربط بينها وبين هاتين الدولتين ربطا يعيننا على فهم الأدب فيهما .

الدولة العباسية وعصراها :

قامت فى سنة ١٣٢ هـ تلك الدولة العربية المجيدة بسواعد الفرس فقويت واشتد أزرها . ولقد عمل الفرس على تثبيتها رجاء أن يكون لهم من وراء ذلك عز وسؤدد . وقد تم لهم ما أرادوا . وأخذوا يتوغلون فى الدولة ومناصبها واتسعت دائرة نفوذهم ، واصطنعوا الدين واللغة وسيلة إلى ذلك فوق قوتهم الحربية التى بذلوها فى خلق هذه الدولة . فكان منهم الشعراء والكتاب والفقهاء وغيرهم . كما كان منهم الوزراء والولاة والقواد وغيرهم . ـ وامتزجت الأمم التى يحكمها العباسيون وتفرق الجنس العربى فيها لعدم تعصب الدولة له . حتى تكون من الجميع جيل جديد بفضل الصهار أو الجوار أو المعاملة أو الاحتراف أو غير ذلك . وكان هذا الجيل إسلامى الدين عربى اللسان فارسى الحضارة يونانى العلم . وظل كذلك حتى سنة ٣٣٤ هـ وإليها ينتهى العصر العباسى الأول .

وكان المعتصم الخليفة العباسى قد بدأ قبل هذه السنة يتخذ لنفسه بطانة وجندا من الأتراك . فبدأ بذلك يدب الضعف فى قلب هذه الدولة ويمتد منه إلى أطرافها . وذلك لتسلم هؤلاء الأتراك زمام الأمر فيها شيئا فشيئا حتى أفسدوا شئونها . فرأى كل أمير فى ناحية . وكل ذى قوة فى إمارة أن

يعتصم بما فى يده منها ، وأن يستقل بها ، وأن يستزيد عليها . وبذلك انشعبت دولة العباسيين العظيمة إلى عدة دويلات . كانت منها دولة البويهيين فى فارس وبغداد . ودولة الحمدانيين فى حلب والموصل . ودولة الفاطميين ثم الأيوبيين فى مصر والشام . وهذا هو العصر العباسى الثانى الذى ظل حتى اكتسحت الدولة جملة جيوش التتار وأسقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ وأزالت منها الخلافة العباسية .

وفى العصر العباسى الثانى ظهرت الآداب القومية بظهور الأوطان السياسية ومن بينها الأدب المصرى الذى بدأ تاريخه فى بلادنا منذ وفود الفاطميين إليها .

الفاطميون فى مصر ٣٥٨ هـ — ٥٦٧ هـ

اضطرب أمر بلاد المغرب باضطراب الدولة العباسية ، فنزح إليها أبو عبد الله[1] الحسين بن أحمد أحد دعاة الشيعة ، وقام بالدعوة لرجل يقال له . عبيد الله محمد الذى تسمى بالمهدى . قيل :[2] إنه من نسل جعفر الصادق الذى ينتهى فى نسبه إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وقيل غير ذلك . وانتسب عبيد الله هو وذريته إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليهما السلام فسموا الفاطميين . ولما استقام لهم الأمر فى المغرب طمعوا فى فتح مصر ، فغزوها مراراً وردوا عنها ، ولما توفى فى مصر كافور الإخشيدى ، ثم اضطرب حبل الأمور فيها ، سنحت الفرصة للفاطميين فأرسلوا إليها جنودهم وعلى رأسهم جوهر الصقلى مولى المعز لدين الله رابع خلفائهم . فدخل مصر مظفراً ، وبنى القاهرة والأزهر الشريف . وكان ذلك الدخول فى سنة ٣٥٨ هـ . ثم وفد إليها المعز برجال دولته وأفراد أسرته ، واتخذها مقرا لحكمه . وما زال حكم الفاطميين فى مصر ممتداً حتى سنة ٥٦٧ هـ كما امتد خلال هذه المدة إلى بلاد الشام والحجاز بل وإلى بغداد نفسها . فلقد روى أنه دعى فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٣) ثم أزالهم عن ملكهم بنو أيوب ، بعد أن تولى

---

(١) عن المقريزى : الجزء الثالث من الخطط ص ١٥ (٢) عن المقريزى الجزء الثانى من الخطط ص ١٥٨ (٣) راجع الجزء الثانى من الخطط المقريزية ص ١٧٠

منهم عرش مصر نحو أربعة عشر خليفة نذكر منهم المعز والعزيز والحاكم والمستنصر .

عناية الفاطميين بالأدب والعلم :

عمل خلفاء الفاطميين على التشبه ببنى العباس فتسموا « بأمراء المؤمنين » و « بالخلفاء » وأخذوا يحيون دولة العلم والأدب والدين واللغة . وقد ساعد على ذلك : ١ - أنهم عرب ، ٢ - وقد قامت دولتهم على أساس من الدعوة الدينية ، ٣ - وأنهم رزقوا ملك أمة عربية أو مستعربة لم تعد تجد عزا فى غير إسلامها ولا مقوما معنوياً فى غير لغتها العربية ، ٤ - وإن ضعف خلفاء بغداد ونشوء الدول الفارسية والتركية فى شرقها قد آذنا اللغة بقرب زوالها من تلك الأصقاع . فأخذت تتراجع بآدابها وبرجالها حتى استقرت بقاهرة المعز حيث الجناب الممرع والمرعى الخصيب . وحيث عنى خلفاؤها بالعلماء واستقدموا بعضهم . وحفلوا بالأدباء والشعراء . ويسروا لهم المساجد المتعددة . يتخذون منها دور دراسة وتعليم كالجامع الأزهر . ودار الحكمة التى شيدها الحاكم بأمر الله . وأسسوا دور الكتب . وحشدوا فيها الوفير الجم منها كمكتبة العزيز . وقد قيل : إنه كان بها ألف ألف مجلد . وكمكتبة الحاكم . ولا غرابة فقد كان منهم أنفسهم المشتغل بالعلم وناظم الشعر . يعقدون لذلك المجالس والحفلات ويقيمون فيها المحاضرات والمناظرات . قيل : كان الحاكم عالما اشتغل بعلم الفلك وأسس له مرصداً بجبل المقطم . واشتغل بالفلسفة حتى أصاب ذهنه مس منها . وفى أيام الفاطميين دونت كتب فى فقه الشيعة وفى عقائدها . وكانت تدرس بالأزهر . كما وضعت كتب فى الحكمة وبعض العلوم العقلية والطبيعية قيل : إنها جمعاء كانت ألوفا . ولكن الأيوبيين جنوا عليها فأبادوها إلا بقية ادخرها لنفسه القاضى الفاضل . وهى التى نمت على ما كان من نظائرها فى ذلك الزمان .

على أنه يجدر بنا هنا أن نعرف أن الدول الشرقية حول بغداد وما والاها إلى الشرق كانت أكثر اشتغالا بالعلم وبالتأليف من الدول الغربية « مصر

والشام ، فى حين أن أشتغالها بالأدب أخذ يقل شيئا فشيئا حتى باد أو كاد ، بينما بقى الأدب فى مصر والشام مزدهرا زمنا طويلا . وسنشير إلى ذلك بكلمة أخرى فيما بعـــد .

الشعر والشعراء فى عهد الفاطميين :

عنى الفاطميون بالشعر عناية كبيرة ووجدوا فيه منذ نشأتهم خير معين على بلوغ إربتهم ونجاح دعوتهم . اتصل بهم قبل قدومهم إلى مصر شاعر الأندلس محمد بن هانىء . وهو الذى هنأ المعز بفتح مصر بقصيدة مطلعها [1] :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وكان المعز قد أمره أن يتجهز للوفود إليه بمصر . ولكنه توفى فى طريقه إليها . فلما بلغ المعز خبر وفاته قال : « [2] هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به الشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

قدموا إلى مصر فرحبوا بشعرائها وفتحوا لهم دورهم وبسطوا إليهم يدهم . ولقد زاد الشعراء شجاعة وإقداما ما رأوه فى خلفائهم وأمرائهم ووزرائهم من حب الشعر والميل إلى قرضه . مع ما اتصفوا به من كرم وإحسان . ولقد جدد نشاطهم ما أتاحه لهم الفاطميون من مناسبات يحـــلو فيها قول الشعر كالأعياد[3] والمواسم والموالد والمجالس التى ابتدعوها أو استحسنوها أو أكثروا منها . وكذلك الدور الفنية الرائعة ، والقصور البديعة الرواء التى عكفوا على تشييدها . وكانت لهم آية فى فن البناء .

حكى المقريزى فى خططه بالجزء الأول عند الكلام على فتح الخليج قال : « إنه بعد جلوس الخليفة يستأذن صاحب الباب لحضور الشـــعراء . فيؤمر بتقديمهم واحداً بعد واحد . ولهم منازل على مقدار أقدارهم » . — وتكلم أيضاً عن المنظرة التى أنشأها الخليفة الآمر تطل على بركة الحبش ، قال ما مؤداه([4])

---

(١) عن الجزء الثانى من حسن المحاضرة للسيوطى ص ١٣ (٢) عن مذكرات لأستاذى السكندرى فى العصر الأندلسي وترجمة ابن هانى (٣) راجع الجزء الثانى من المقريزى (٤) الجزء الثانى من خطط المقريزى ص ٣٧٩

« فى هذه المنظرة طاقات وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فلما دخـل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً . وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده » .

ومن القصة التالية نعرف عاملا آخر له أثره فى نهوض الشعر الفاطمى وهو : النقد . والنقد إذا عرف مكانه واستقام ميزانه يذكى روح الحماسة والمنافسة . ويكثر الجيد الطارف . ويقل الردىء الزائف .

روى المقريزى فى الجزء الثانى من خططه عند الكلام على فتح الخليج صفحة ٣٦٥ ما يأتى : « ويقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك إلى ناحية الخيمة . والقراء يقرءون القرآن ساعة زمانية فإذا ختموا قراءتهم استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء . للخدمة بما يطلق هذا اليوم . فيؤمر بتقديمهم واحداً بعد واحد . ولهم منازل على مقدار أقدارهم . فالواحد يتقدم الواحد فى الإنشاد بخطوة . وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب . وتقدم شاعر يقال له : ابن جبر . وأنشأ قصيدة منها :

فتح الخليج فسال منه الماء ... وعلت عليه الراية البيضاء

فصفت موارده لنا فكأنه ... كف الإمام فعرفها [1] الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله « فسال منه الماء » وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيع ما قاله بعد هذا المطلع . — وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير . وأنشد :

مازال هذا السد ينظر فتحه ... إذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى إذا برز الإمام بوجهه ... وسطا عليه كل حامل معول

فجرى كأن قد ديف [2] فيه عنبر ... يملوه كافور [3] بطيب المندل [4]

---

(١) العرف : الريح (٢) ديف : أذيب وسحق (٣) الكافور : طيب (٤) المندل : قيل اسم بلدة بالهند ينسب إليها طيب يقال له : المندلى

فانتقدوا عليه أيضـــاً قوله فى البيت الثانى : وقالوا : أهلك والله وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ...! ، وإن كان قصد فتح السد بالمعاول لكنه ما نظمه إلا قلقا . — ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد فأنشد قصيدة شهد له جمـــاعة منهم القاضى الأثير بن سنان . فإنه عملها بحضوره بديها وهى :

لمن اجتماع الخـلق فى ذا المشهد ... للنيل أم لك يا ابن بنت محمـــد
أم لاجتماعكما معا فى موطن ... وافيتما فيه لأصـــدق موعـد
ليس اجتماع الخـلق إلا للذى ... حاز الفضـــيلة منكما فى المولد
شكروا لـــكل منكما لوفائه ... بالسعى لكن ميلهم للأجــــود
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله ... بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هــــذا يفى ويعود ينقص تارة ... وتسد أنت النقص إن لم يزدد
وقواه إن بلغ النهاية قصرت ... وإذا بلغت إلى النهـــاية تبتدى
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه ... بالسد فهـــو به بحال مقيــــد
فاذا أردت صـــلاحه فافتح له ... ليرى جنابا مخصبا وترى ندى
وأمر بفصد العرق منه فما شكا ... جسم فصح الجسم إن لم يفصد
واسلم إلى أمثال يومك هكذا ... فى عيش مغبوط وعز مخـــلد

فأمر له على الفور بخمسين ديناراً وخلع عليه وزيد فى جاريه . » .

هذه العوامل مجتمعة عملت على أحياء دولة الشعر والشعراء . فزاد جمعهم وكثر عديدهم . قال ابن خلكان فى ترجمة الوزير يعقوب بن كلس : إنه بعد موته « غدا الشعراء إلى قبره . ويقـــال إنه رثاه مائة شاعر . وأخذت قصـــائدهم وأجيزوا . (١) » . — وانبث الكثير منهم فى منـاصب الدولة ، وكثيراً ما كان الشاعر كاتبا أو فقيها أو عالما .

ومن شعراء الفاطميين : الأمير تميم بن المعز . وأبو حامد الأنطاكى المعروف بأبى الرقعمق « شآمى » . وابرهيم بن القاسم الملقب بالرشيق « مغربى »

---

(١) الجزء الثانى من وفيات الأعيان ص ٤٤٣

والمهذب بن الزبير . والجليس بن الحباب وطلائع بن رُزِّيك الملقب بالصالح وزير الفائز والعاضد آخر خلفاء الدولة . وعمارة اليمنى . وأبو الحسين على البغدادى [1] .

مميزات الشعر الفاطمى :

تمصر الشعر العربى فى مصر أيام الفاطميين . واستبدل خليفتهم بخليفة العباسيين . وحلت أسماء البلاد المصرية كالقاهرة والإسكندرية ودمياط والجيزة محل الأسماء العراقية كبغداد . وفاض اسم النيل على مياه دجلة والفرات . وربما كان هذا التمصر أول مميزات الشعر الفاطمى .

أغراضه : على أن الشعراء قالوا فى أغراض شتى يمكن فهمها من استقراء حوادث العصر . وذلك كمديح الخلفاء . وتعداد مناقبهم كإحسان إلى فقير . وكسوة عار . ورد حاجة ملهوف — وفى خلال المديح يتراءى الوصف . والوصف على أنواعه المتعددة حسب المناسبة فمن عيد الغدير إلى فتح الخليج ومن عيد الفطر إلى مولد النبى عليه الصلاة والسلام . ومن إقامة قصر إلى بناء مسجد تدرس فيه العلوم والمعارف . وقد نشأ فى أخريات هذه الدولة وأوائل الدولة الأيوبية غرضان مهمان هما رثاء دولة الفاطميين . وظهر خاصة على لسان عمارة اليمنى . وذكر المعارك المعروفة بالحروب الصليبية التى وقعت بين المسلمين والمسيحيين . ورافقت حياة الدولة الأيوبية تقريباً . وكان ذكرها مصحوباً بذكر الدين ونصرته . والإسلام والدفاع عن حوزته . وكذلك بدأ يظهر الشعر الصوفى الذى اكتمل فى عصر الأيوبيين على لسان ابن الفارض . وقد توجهت عناية بعض الشعراء إلى الاشتغال بشعر الألغاز والأحاجى . ولم يخل شعر الفاطميين من الأغراض الشعرية العامة كالغزل وتُصَدَّر به القصائد ، وكالرثاء ، والهجاء ، والفخر ، والمجون ، ووصف الخمر ، وربما احتل صدر القصائد بدل الغزل .

أسلوبه ولفظه : قد جنحا إلى السهولة والبعد عن الغرابة . وأخذا فى

(١) تجد أخبار بعضهم فى وفيات الأعيان وفى يتيمة الثعالبى الجزء الأول

الرقة أخذاً قربه من لغـــة العوام عند بعض الشعراء . وما ذلك إلا لتأثرهم باللغة العامية التى نشئوا فى محيطها وهى العربيـــة التى ذهبت حركات إعرابها . ومازجتها ألفاظ دخيلة أو حرفت بعض ألفاظها . ولعدم إلمامهم الإلمام المثمر باللغة فى أبلغ مظاهرها وأينع آثارها وأكثر تراكيبها بياناً وجـــودة وجزالة ولقلة اغترافهم من مناهل العلم اغترافاً يسمو بأذهانهم ويرقى بألسنتهم عن البيئة العامية . ولانشغالهم أغلب زمانهم بالفتن والقلاقل التى كثرت فى هـذه العصور والتى من أهم مظاهرها الحروب الصليبية . وقد جنح الشعراء إلى الحلية اللفظية والعناية بأنواع البـــديع كالجناس والتورية والطباق على سنة المشارقة – وقد كثرت الأوزان القصيرة والموشحات . وكان لكل ما ذكر أثره فى عدم جودة معانى الشعر .

معانيه : قل فيها السمو والابتكار وكثر فيهـــا الإعادة والتكرار . وقد كان يصاب المعنى ببعض الخفاء تحت ستر من بديع . أو فى ظل استعارة أو تشبيـه مقصود لذاته لا لإيضاح المعنى .

نماذجه :

١ – قال الأمير تميم بن المعز ، المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، يفتخر (١) :

ألقى الكمى(٢) فلا أخاف لقاءه ... ويفل(٣) إقدامى شبا(٤) الحدثان
وأكر فى صدر الخميس(٥) معانقا ... للموت حين يفر كل جبان
ويزيدنى(٦) كل الخطوب تعظما ... وتسلط الأيام عـــز مكان
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق ... ذرعا بأيامى وغـــدر زمانى
وكما يمل الدهر من إعطائه ... فكذا ملالته من الحرمان
وكما يمـــر لمعشر بسـعادة ... فكذا يمر لمعشر بهوان

(١) هذه القصيدة فى الجزء الاول من يتيمة الثعالبى ص ٣٥١ طبعة قديمة (٢) الكمى : الشجاع (٣) يفل : يكسر (٤) الشبا : جمع شباة وهي حد كل شىء (٥) الخميس : الجيش (٦) الكل والكلال : الضعف والإعياء

فإذا رماك بشـــدة فاصبر لهـا | فلسوف يأتى بعـــدها بليان
وسل الليـالى عن نفـاذ عـزيمتي | وسل الحوادث عن ثبات جنانى
تخـــبرك عنى أننى لم ألقهـــا | بين العـــزائم واهى الأركان
أصبحت لا أشتاق إلا للنـدى | إلفـا ولا أهوى سوى الإحسان
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة(١) | قطع السيوف القاطعات لسانى

. . .

٢- وقال أيضا : يتغزل ويصف ويشكو (٢) :

وما أم خشف(٣) ظل يوماً وليلة | ببلقعة بيـــداء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدرى إلى أين تنتهى | مولهـــة حيرى تجوب الفيافيا
أضر بهـــا حر الهجير فلم تجد | لغلتها (٤) من بارد الماء شـافيا
إذا بعدت عن خشفها انعطفت له | فألفته ملهوفـاً من الجوع ظاميا
بأوجع منى يوم شـدوا رحالهم | ونادى منادى الحى ألا تلاقيا

٣- قال أبو حامد أحمد محمد الأنطاكي الملقب بأبى الرقعمق والمتوفى سنة ٣٩٩ هـ يتذكر أيامه بمصر (٥) :

ليلى بتِنِّيسَ(٦) ليل الخائف العانى | تفنى الليالى وليـلى ليس بالفانى
أقول إذ لج ليـــلي فى تطاوله : | يا ليل : أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أنى فى تنيس مطـرح | مخيم بين أشجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنـــام فما | للنوم إذ بعدوا عهـد بأجفانى

---

(١) الضريبة : السيف أوحده (٢) هذه الأبيات فى الجزء الأول من يتيمة الثعالبى ص ٣٥١ طبعة قديمة. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول ص ١٢١ (٣) الخشف بكسر الخاء أو فتحها أو ضمها : ولد الظبى أول مايولد (٤) الغلة : العطش أو شدته أو حرارة الجوف (٥) هذه الأبيات في الجزء الأول من يتيمة الثعالبي ص ٢٦٠ (٦) تنيس : قيل إنها بلدة في إحدى جزائر البحر قرب دمياط . ولعلها كانت مدينة مصرية نائية عن القاهرة .

ولا حننت إلى نجران من طرب | إلا تكنفنى شـوق لنجران
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت | إلا مواطن إطرابى وأشجانى
ليالى النيل لا أنساك ما هتفت | وُرق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت | قطعتهن وعـين الدهر ترعانى
مع سادة نجب غـر غطارفة | فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى | وإن أردت غنـاء منه غنانى
سقيته وسقانى فضـل ريقته | وجاد لى طـرفه عفواً ومنانى

٤ – قال المهذب بن الزبير المتوفى سـنة ٥٦١ هـ من قصيدة يمـدح طلائع بن رزيك (١) :

ولقد بعثت إلى الفـرنج كتائبا | كالأسد حين تصول فى خفان (٢)
لبسوا الدروع ولم نخل من قبلهم | أن البحار تحل فى غـدران

. . .

٥ – قال الجليس بن الحباب المتوفى سنة ٥٦١ هـ يشكو طبيبا . وفيه فكاهة (٣)

وأصل بليتى من قد غزانى | من السقم الملح بعسكـرين
طبيب طبـه كغراب بـين | يفـرق بين عافيـتى وبينى
أتى الحمى ـ وقد شاخت وباخت (٤) | فرق لهـا الشبـاب ـ بنسختين
ودبرهـا بتدبـير لطيـف | حكاه عن سنان (٥) أو حنين
وكانت نوبـة فى كل يـوم | فصيرهـا بحـذق نوبتـين

. . .

٦ – قال طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير الفائز والعاضد آخر خلفاء الفاطميين والمتوفى سنة ٥٥٦ هـ حينما جلس فى دست الوزارة (٦) :

---

(١) عن المفصل ص ٣٦ جزء تان عن الروضتين (٢) خفان بفتح الخاء : مأسدة قرب الكوفة (٣) عن المفصل ص ٣٧ (٤) باخت : سكنت (٥) سنان وحنين : طبيبان (٦) عن المفصل ص ٣٥

انظـــر إلى ذى الـــدار كم قـــد حل ســاحتها وزير
ولـــكم تبخـــتر آمنـــا وسط الصفوف بهـــا أمير
ذهبـــوا فـــلا والله مـــا يبـــقى الصغير ولا الكبير
ولمثـــل ماصاروا إليـــه من الفنـــاء غدا نصير

٧ — قال عمارة اليمنى المتوفى سنـــة ٥٦٩ هـ من قصيدة يمدح الفائز الفاطمى ووزيره طلائع . وكان الشاعر قد قدم إليهما من الحجاز : (١)

الحمدللعيس (٢) بعدالعزم والهمم حمدا يقوم بمـا أولت من النعم
ومنها : فهل درى البيت أنى بعد زورته ماسرت من حرم إلا إلى حرم
وللإمامـة أنوار مقـــدسة تجلو البغيضين من ظُلم ومن ظُلَم
وللنبـــوة آيات تضىء لنـــا على الخَفِيَّين من حُكم ومن حِكم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجـاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما وزيره الصالحُ الفـراج للغمم

٨ — ولعمارة اليمنى أيضا قصيدة طويلة قالها فى أوائل الدولة الأيوبية يرثى بها الفاطميين وفاء لهم واحتفاظا بولائهم . وكانت من أسباب قتـــله . وهى تصف حضـارة الفاطميين وما كانوا عليه من بر وإحسان . وما ابتدعوه من أعياد ومواسم . قال المقريزى : « هى القصيدة التى قال بن سعـــد فيها : ولم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها » . وأولها : (٣)

رميت يادهر كف المجد بالشلل وجيده (٤) بعدحسن الحلى بالعطل (٥)
سعيت فى منهج الرأى (٦) العثور فان قدرت (٧) من عثرات الدهر فاستقل (٨)

---

(١) عن المفصل ص ٤٢ (٢) العيس بكسر العين : جمع عيساء بفتح العين وهي الناقة البيضاء يخالطها شقرة (٣) هذه القصيدة في الجزء الثاني من خطط المقريزي ص ٣٩٢ (٤) الجيد بكسر الجيم : العنق (٥) عطلت المرأة بكسر الطاء — عطلا — بفتحتين — إذا لم يكن عليها حلى فهى عاطل (٦) الرأى العثور : الخاطيء (٧) هذا عدول عن مخاطبة الدهر إلي مخاطبة الانسان (٨) استقـل : اطلب منه أن يقيلك أى اعمل على تلافي ما يوقعك فيه الدهر من فساد.

جدعت(١) مارنك(٢) الأقنى(٣) فأنفك لا ينفك ما بين قرع (٤) السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل سعيت . مهلا . أما تمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبـــة على فجيعتهـــا فى أكرم الدول

ومنها :

يالائمى فى هـوى أبنـاء فاطمـــة لك الملامة إن قصرت فى عـــذلى
بالله زر ساحة القصرين (٥) وابك معى عليهما لا على صفين (٦) والجمل
وقـــل لأهلهمـا والله ما التحمت فيكم جراحى ولا قرحى بمنـــدمل

ومنها :

دار الضيافة كانت أنس وافـــدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل (٧)
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ورث منها جـــديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يـــوم الخليج لكم يأتى تجمكم فيه عـــلى الجمل (٨)
وأول العام والعيدين كم لكمـــو فيهن من وبل (٩) جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم (١٠) الغدير كما يهتز ما بين قصريكم من الأسل (١١)
والخيل تعرض فى وشى وفى شية مثل العرائس فى حلي وفى حلـــل

الأيوبيون وحكم مصر ٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ

تم للأيوبيين حكم مصر بانتزاعه من يد الخليفة العاضد على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولما توفى هذا الخليفـــة أصبحوا يحكمون البلاد

---

(١) عاد إلى مخاطبة الدهر . جدعت : الجدع قطع الأنف . (٢) المارن : الأنف أو طرفه أو مالان منه . (٣) الأنف الأقني : الذى ارتفع أعلاه . (٤) قرع السن : كناية عن الندم . (٥) القصران : من قصور الفاطميين . ولها ذكر فى المقريزى فارجع إليه . (٦) صفين والجمل : اسمان لموقعتين اشترك فيهما سيدنا علي كرم الله وجهه . (٧) الطلل : مايبدو من آثار الدار بعد زوالها (٨) الجمل : جمع جملة . (٩) الوبل : المطر الكثير . والوشل : الماء القليل . (١٠) يوم الغدير : من أعياد الفاطميين (١١) الأسل : الرماح مفردها أسلة .

باسمهم ثم عملوا على محو آثار الفاطميين خصوصا مذهبهم الشيعى . وشغلوا بالحروب الصليبية . وامتد حكمهم إلى بلاد الشام والعراق واليمن . ودام حتى دالت دولتهم على يد مماليكهم فكان عهدهم من سنة ٥٦٧ هـ إلى سنة ٦٤٨ هـ.

وعصرهم فى جملته امتداد لعصر الفاطميين فى إحياء العلم واللغة والأدب . إلا أنهم لم يدينوا للمذهب الشيعى . فأبطلوه وعفوا أثره . وخطبوا للخليفة العباسى على منابر مصر . ونشروا المذاهب الأخرى : الشافعية والمالكية والحنفية . وعملوا على تدريسها فيما افتتحوه من مدارس . فقد أسسوا نحو خمس وعشرين مدرسة امتلأت بطلاب العلم والدين كالمدرسة الناصرية الشافعية والمدرسة القمحية للمالكية . والمدرسة الفاضلية وغيرها . وأنشئوا بجوارها دور الكتب النافعة .

قال ابن (١) خلكان ما ملخصه « لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس . فبنى السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعى . وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى بالقاهرة وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة للحنفية . وبنى للشافعية مدرسة وللمالكية مدرسة ثم اقتفى أثره فى ذلك بنو أيوب فى ممالكهم بمصر والشام . ثم سلاطين المماليك من بعدهم بما لا مزيد عليه » .

ونحن وإن حمدنا لهم ذلك لا ننسى أنهم عطلوا الدراسة فى الجامع الأزهر مائة عام تقريبا . وما عادت إليه إلا فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ ، ولا ننسى أنهم اعتدوا على حرمة العلم وحرية الرأى بتشتيتهم شمل تلك الآلاف المؤلفة من الكتب التى جمعت زمن الفاطميين . وألحقوا بها مثل ما ألحقه الصليبيون بها فى الشام وغيرها . ولقد باعوها للوراقين والوقادين . وكل ذلك نكاية فى المذهب الشيعى وفى دولة الفاطميين فبادت بذلك جمهرة من كتب فقهم وكتب التفسير والحديث والمناظرات وعلم الكلام والحكمة والنجامة وعلم الفلك وغيرها

(١) راجع الجزء الثانى من وفيات الأعيان فى ترجمة صلاح الدين الأيوبى صفحة ٥٣٢و٥٣٣ .

من العلوم العقلية والطبيعية التى دونت فى عهـــدهم . ولولا صبابة من كتب الأدب والتاريخ ادخرها القاضى الفاضل فى دار كتبه لجهل الشىء الكثير من العصر الفاطمى .

ولقد انصرفت حركة الاشتغال بالعلم فى أيام الأيوبيين إلى الإكثار من كتب الحديث . وبعث كتب الشافعية والمالكية وتجـــديدها . ووضع الكتب الكلامية على مذهب الأشاعرة . وتدوين سير الأبطـال والغزوات وبعض علوم اللغــــة .

موازنة يسيرة بين حركـــة الاشتغال بالعلوم والآداب فى مصر والشام ونظيرتها فى المشرق

مما تجدر ملاحظته أن دائرة الاشتغال بالعـلم أيام الفاطميين والأيوبيين على سعتها لم تصل إلى السعة التى وصلت إليها فى المشرق أى فى بغداد والدول الناشئة فى شرقها فى ذلك الوقت . على أن الأدب العربى على تفاهته وقلة جودته وندرة جدته فى عصر الدولتين قد حفظ للغة رونقها وبلاغتها وبقاءها فى مصر والشام فى حين أنه فى المشرق أخـذ نجمه يأفل رويداً رويداً حتى زال . ولعل السبب فى ذلك كله أن الأمـــة عصر هاتين الدولتين كانت عربيةوكان ملوكها عربا حتى أولئك الأكراد الأيوبيون عطفوا على العربية وتعلموها ونصروهـا لأنها لغة دينهم الذى اشتهروا بحمايته والذود عـنه . ولأنهم لا غنى لهم ـ وهم أغراب عن الأمة ـ عن أن يستعينوا فى حكمها برجالها من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكتاب . فعنى القوم إذن بآداب لغتهم عناية فاقت عناية المشـــارقة إذ ذاك حيث أخذت العجمة سبيلها من جديد إلى شــعوبهم وملوكهم الذين أخذوا يعنون بإحياء لغاتهم الوطنية ، وآدابها . وفى نفس الوقت اســـتبقوا الاشتغال بالعلوم عامة عربية أو غير عربية ، لأن بالعـــلم يتقدم الملك تقدما سريعاً ولأنهم أهل اشتغال بالعلم قديم . وحذا حذوهم وسار على غرارهم أهل الفضل فى الدولتين . إلا أن تتابع الحروب الصليبية كفكف من همتهم ؛ ونهنه من إقدامهم ؛ فلم يجودوا كما جود أهل المشرق . ثم لعل انشغالهم من ناحية أخرى

بالأدب شعراً وكتابة قد صرف جانبا من مجهودهم عن التوجه نحو العلم ، فلم يكن ثمة عالم لم يضرب بسهم صائب فى الأدب . كما لم يكن ثمة أديب لم يتحل بحلية العلم .

الشعر فى عصر الأيوبيين

يمكن القول إجمالا إن الشعر الأيوبى نهج سبيل الشعر الفاطمي فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ، وأغراضه ، ولقد وجد الشعراء فى الحروب الصليبية عاملا جديداً لنهوض الشعر ولقد ساعدهم على ذلك ما أنسوه فى صلاح الدين الأيوبى من فهم الشعر العربى ونقده ، واهتزازه له ، وإثابته عليه . ولقد كان القاضى الفاضل زعيم الشعر والنثر فى زمانه الساعد الأقوى لصلاح الدين ؛ استعان به على القضاء على الفاطميين . ولقد كان صلاح الدين أيضا بطلا مغوارا وقائدا ممتازا ومسلما ورعا جاهد في سبيل الدين ، ورد عادية الصليبيين . ونال من جهاده نصرا مبينا . وكل ذلك داعية إلى قول الشعر ، ولقد نهج خلفاؤه نهجه فى تشجيع الشعراء وإن لم يلحقوه فى ذلك لعجمتهم .

ومن الأغراض التى تعتبر جديدة فى هذا العصر رثاء الفاطميين على لسان عمارة اليمنى . ووصف الحروب والحملة على الصليبيين والتشهير بهم وظهور روح التصوف كما فى شعر عمر بن الفارض . وقد نشأ الشعر الأخوى يتراسل به الشعراء فى المناسبات الشخصية فبدأت العاطفة النفسية الصحيحة تظهر فى الشعر ونظمت بعض القصص والعلوم والموشحات والألغاز ثم الزجل .

ومن شعراء العصر الأيوبى (١) :

القاضى الفاضل ؛ وابن قلاقس الاسكندرى ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، وعماد الدين الأصبهانى صديق القاضى الفاضل ، والأسعد بن مماتى ، وابن النبيه المصرى ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وعمر بن الفارض .

---

(١) تجد أخبار هؤلاء الشعراء فى وفيات الأعيان وفي فوات الوفيات ـ راجع جورجي زيدان جزء ٣

نماذج من الشعر الأيوبى

١ – قال القاضى الفاضل « المتوفى سنة ٥٩٦ هـ » من قصيدة خمرية (١) .

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأُطلق من قيد فتر (٢) الهلال
وروض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال
فدع ضيقة مثل شد الإسار ... إلى فرجة مثل حل العقال
وقم هاتها مثل (٣) ذوب النضار ... وموج البحار وطعم الزلال
جزى الله عنى عروس الدوالى (٤) ... ولا اخطأتها كئوس العزالى (٥)
بما أطعمت من لذيذ الثمار ... وما ألبست من نسيج الظلال
وما سلسلت من مذاب السرور ... وما خفضت من جماح التغالى
فكم (٦) زخرفت جنة للعذاب ... وكم رفعت قبسا للضلال
أغالط بالكأس حكم الزمان ... فيوم علىّ ويوم بمالى
فجاءت (٧) بما فى عيون النساء ... ومرت بما فى رءوس الرجال
وأسلو الغزال بها إذ أرى ... بكاساتها (٨) دم ذاك الغزال

٢ – قال (٩) أبو الفتح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلاقس الإسكندرى المتوفى سنة ٥٦٧ هـ يمدح ياسر بن بلال وزير اليمن . وكان قد رحل إليه :

---

(١) ارجع إليها فى المنتخب (٢) فتر الهلال : أى الهلال الشبيه بالفتر . وأطلق الصوم لأنه كان مقيدا بظهور الهلال (٣) أي صفراء كالذهب مائجة ذات حبب سائغة (٤) الدوالى : عنب أسود غير حالك (٥) العزالى : جمع عزلاء وهي مصب الماء من الراوية أو القربة (٦) معنى البيت : أن الخمر تنعش النفس وتسرها فى إبان تعاطيها . ولكن نتيجتها من بعد ذلك العذاب والضلال . وفيه تشبيه ضمنى للخمر بالقبس أى النور (٧) معنى البيت : أن الخمر أصابتنا بشيئين : فتور فى العيون وذهاب في العقول – وربما يكون ذا معنى آخر هو أن الخمر كشفت لنا عن السحر والحكمة . فالسحر من العيون والحكمة من الرءوس (٨) في البيت تشبيه بليغ للخمر بدم الغزال فى الاحمرار (٩) القطعة منها في المنتخب

ســافر إذا ما شئت قدراً سار الهــلال فصار بدرا
والمـاء يكسب ما جــرى طيبا ويخبث ما استقــرا
وبنُــقلة الدرر النقيــة بدلت بالبحــر نحــرا
وصلا إذا امتــلأت يداك فان هما خلتا فهجــرا
ومنها: ياراويا عن ياسر خَبرًا ولم يعــرفه خُبرا
اقــرأ بغرة وجهــه صحف المنى إن كنت تقرا
والــثم بنــان يمينــه وقل: السلام عليك بحرا
وغلطت فى تشبيهــه بالبحــر فاللهم غفــرا

٣ - قال (١) القاضى السعيد هبة الله بن جعفر الملقب بابن سناء الملك ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، صاحب دار الطراز الملىء بالتواشيح يفتخر .

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام(٢) إذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر كفه لحــدثت نفسى أن أمد له يدا

ومن موشحاته (٣) التى أولها :

ياحبيبى ارفع حجاب النــور عن العــذار (٤)
تنظر المسك على الكافور (٥) فى جلنــار (٦)
كللى ياسحب تيجان الرُّبَا بالحلى واجعلى سوارها منعطف الجدول

٤ ـ قال على بن رستم المعروف بابن الساعاتى وصاحب مقطعات النيــل المتوفى سنة ٦٠٤ هـ يصف يوما فى أسيوط(٧)

لله يوم فى سيوط وليــلة صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا وعمر الليل فى (٨) غُـلَوَائه وله بنور البدر فرع (٩) أشمط

(١) الأبيات من المفصل (٢) الزؤام : المجهز (٣) الأبيات عن مذكرات لأستاذى السكندرى (٤) العذار: جنب اللحية (٥) الكافور : شجر له زهر كزهر الأقحوان أبيض مصفر الوسط طيب الرائحة (٦) الجلنار : زهر الرمان وهو محمر (٧) الأبيات عن المفصل (٨) الغلواء : أول الشباب أو سرعته (٩) الفرع : جزء مدلى من الشعر . والأشمط . الأبيض يخالطه سواد

والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير تقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط

٥ – لكمال (١) الدين بن النبيه الشاعر المصرى الرقيق مادح بنى أيوب المتوفى سنة ٦١٩ هـ. وصاحب الأشرفيات فى مدح الملك الأشرف موسى الملقب بشاه أرمن. قال يمدح الناصر العباسى :

باكر صبوحك أهنى العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك (٢) طائره
والليل تجرى الدرارى (٣) فى مجرته (٤) كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب (٥) على يده (٦) مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق فابيض خداه واسودت غدائره (٧)
سود (٨) سوالفه لعس (٩) مراشفه نعس نواظره خرس (١٠) أساوره
مفلج (١١) الثغر معسول اللمى (١٢) غنج (١٣) مؤنث الجفن فحل اللفظ شاطره (١٤)
مهفهف (١٥) القد يندى جسمه ترفا (١٦) مخصر الخصر عبل (١٧) الردف وافره
تعلمت بانة الوادى شمائله وزورت سحر عينيه جآذره (١٨)
كأنه بسواد الصدغ مكتحل أو ركبت فوق صدغيه محاجره

(١) الأبيات وما بعدها من ديوان ابن النبيه ص ٦ (٢) الأيك : الشجر الكثير (٣) الدرارى : الكواكب المضيئة (٤) المجرة : بياض طويل يرى فى السماء يقال إن فيه كثيرا من الأجرام (٥) النجاب : لعلها كلمة عامية بمعنى مناد (٦) المخلق : المطيب بالخلوق . والخلوق طيب به زعفران (٧) الغدائر : خصلات الشعر (٨) سود سوالفه · أى الشعر الذى بجانب سوالفه أسود · والسوالف جمع سالفة وهي جانب الرقبة (٩) لعس مراشفه : أى شفاهه فيها اسمرار (١٠) خرس أساوره : لا توسوس . وذلك كناية عن سمنة معصمه (١١) المفلج: الفلج تباعد ما بين الأسنان (١٢) اللمى : اسمرار الشفة (١٣) الغنج بكسر النون : المتصف بالدل أو جمال العين (١٤) الشاطر : الماكر (١٥) المهفهف : الضامر (١٦) المخصر : الدقيق (١٧) العبل : الضخم (١٨) الجآذر : مفردها جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية

نبي حسن أظلته ذوائبه (١) وقام فى فترة الأجفان ناظره
فلو رأت مقلتا هاروت آيته الـ ـكبرى لآمن بعد الكفر ساحره
قامت أدلة صدغيه لعاشقه على عذول أتى فيه يناظره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا عظيم ذنبك إن الله غافره
فليس يخذل فى يوم الحساب فتى والناصر بن رسول الله ناصره
إمام عدل لتقوى الله باطنه وللجلالة والأحسان ظاهره
تجسد الحق فى أثناء بردته وتوجت باسمه العالى منابره
له على ستر سر الغيب مطلع فما موارده إلا مصادره
راع بطرف حمى الإسلام ساهره ساط بسيف أباد الكفر شاهره
فى صدره البحر أو فى بطن راحته كلاهما يغمر السؤال زاخره

ومن مطالع قصائده مما يغنى فى عصرنا الحاضر :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

ومنها : أمانا أيها القمر المطل فمن جفنيك أسياف تسل

ومن قصائده بمدح شاه أرمن :

تعالى الله ما أحسن (٢) شقيقا حف بالسوسن (٣)
خدود لثمها يبرى (٤) من الأسقام لو أمكن
فما تجنى (٥) وحارسها بقفل الصدغ قد زرفن (٦)
غزال ضيق الأجفا ن يحكى الرشأ (٧) الأعين
له قلب وأعطاف فما أقسى وما ألين

---

(١) الذوائب : النواصى (٢) الشقيق : نبات له زهر أحمر (٣) السوسن : نبات له زهر أبيض (٤) يبرى مضارع أبرأ أى يشفي (٥) الحارس: معناه هنا الخال (٦) زرفن : صنع زرفينا . والزرفين كلمة معربة معناها حلقة (٧) الرشأ الأعين : الغزال الأسود العين

ومنها وكم أسكنته قلبي فسار وأحرق المسكن
فأنسى بعد وحشته بنظم مديح شاه أرمن
كريم باسل قتلاه في نقع الوغى تدفن
على الأموال والأعدا ء كم من غارة قد شن

ومن موشحاته الزجلية « باللغة العامية »

الزمان سعيد مواتي والحبيب حلو مقرطق(١)
والربيع بساط أخضر والشراب أشقر مروق

. . .

والنسيم سحر تنفس عن عبير أو مسك أذفر(٢)
والغصون بحال ندامى من سلاف الغيم تسكر
والغدير يمد معصم ينجلي في نقش أخضر
والهزار يعمل طرايق في الغنى مزموم ومطلق

٨ - قال جمال الدين(٣) أبو الحسن بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ يسخر بالملك الفرنسيس حينما اعتقله الأيوبيون في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة وقيدوه بقيد من ذهب ووكلوا به خادما يسمى صبيحا . ثم افتدى نفسه . قال ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغي أخذها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك أودعتهم بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفاً لايرى منهمو إلاقتيل أو أسير جريح

---

(١) المقرطق : لابس القرطق كلة معربة : ولعله نوع من الثياب (٢) الأذفر : الشديد الرائحة (٣) هذه الأبيات من حسن المحاضرة للسيوطي الجزء الثاني ص ٣٩ ومن ديوان ابن مطروح طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ ص ١٨١

فـــردك الله إلى مثلهـــا   لعل عيسى منكمو يستريح
إن كان باباكم بذا راضيـــا   فرب غبن قد أتى من نصيح
فاتخــذوه كاهنـــا إنـــه   أنصح من شق(١) لكم أو سطيح(٢)
وقـــل لهم إن أضمروا عودة   لأخـــذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها   والقيد باق والطواشى صبيح

وكتب إلى البهاء زهير جواب أبيات راسله بها وهو مريض وفيهـــا تبدو الرقة والعاطفة (٣):

أيا من راح عن حالى   يسائل مشفقا حـــدبا
ومن أضحى أخالى فى الـ   وداد وفى الحنـــو أبا
وحقك لو نظرت إلـــ   ـىّ كنت تشاهد العجبا
جفونا تشتكى غـــرقا   وقلبا يشتكى اللهبـــا
وجسما جالت الأسقا   م فيـــه فراح منتهبا
تسائل أعين الواشـــ   ـين عنى أعـــين الرقبا
فتذكر أنهـا لمحت   خيالا فى خلال هبا
فواحربا وهل يشفى المتـ   ـيم قـــول واحـــربا
فبـــالود الذى أمسى   وأصبح بيننا نسبـــا
إذا أنا مت فاندبنى   فرب أخ أخـا ندبا
وقل مات الغريب فأيـ   ـن من يبكى على الغربا
قضى أسفا كما شاء الغـ   ـرام وما قضى أربا

٩ - قال(٤) بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ يشكو هاجرا

تعيش أنت وتبـــقى   أنا الذى مت حقـــا
حاشاك يانـــور عينى   تلقى الذى أنـــا ألقى

---

(١) شق : كاهن كان في زمن كسرى (٢) سطيح كاهن آخر كان من بنى ذئب في الجاهلية (٣) الأبيات من ديوان ابن مطروح المطبوع بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ مع ديوان العباس بن الأحنف ص١٩٥ (٤) الأبيات من ديوان البهاء زهير

قــد كان ماكان منى والله خــير وأبــقى
ولم أجــد بين موتى وبين هجرك فرقــا
ياأنعم الناس قــل لى إلى متى فيــك أشقى
سمعت عنك حــديثا يارب لا كان صدقا
حاشاك تنقض عهدى وعــروتى فيك وثقى
فــا عهــدتك إلا من أكرم الناس خلقا
يا ألف مولاى أهلا يا ألف مــولاى رفقا
لك الحياة فــإنى أموت لاشك عشقــا
لم يبــق مــنى إلا بقــية ليس تبــقى

وقال يهجو ويصف وهى من قصائده الفكاهية

لك ياصديقى بغــلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبهــا العيو ن على الطريق مشكلة (١)
وتخـال مــدبرة إذا ما أقبلت مستعجــلة
مقــدار خطوتها الطو يلة حيث تسرع أنملة
تهــتز وهى مكانهـا فكـأنمــا هي زلزلة
أشبهتهــا بل أشبهتــ ك كأن بينكما صلة
تحكى صفاتك فى الثقـا لة والمهانة والبــله

وقال يتشوق لمصر :

سقى واديا بين العريش وبرقــة من الغيث هطال الشآبيب (٢) هتان (٣)
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيــل أوطـان
بلاد متى ماجئتهـا جئت جنــة لعينيك منهـا كل ماشئت رضوان
تمثل لى الأشـواق أن ترابهـــا وحصباءها مسك يفوح وعقيـان (٤)

---

(١) مشكلة : مقيدة (٢) الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر (٣) الهتان : الغزير (٤) العقيان : الذهب الخالص

فياساكنى مصر تراكم علمتمو ... بأنى مالى عنكمو الدهر سلوان
ومافى فؤادى موضــع لسلوكم ... ومن أين فيــه وهو بالشوق ملآن

ومن قــوله فى سياق مديح الملك الصالح :

هذا زهيرك لا زهــير مزينــة ... وافاك لا هرما على علاتــه (١)
دعه وحولياته (٢) ثم استمـــع ... لزهير عصرك حسن لياليتـــه

١٠ – قال (٣) أبو حفص شرف الدين عمر بن على المتصوف المشهـــور والمسمى بابن الفارض من تائيته الكبرى التى تغزل فيهـا بالذات الإلهية وأورد الكثير من حقائق الصوفية : توفى سنة ٦٣٢ هـ

سقتنى حميا (٤) الحب راحـة مقلتى ... وكأسى محيا من عن الحسن جلت
فأوهمت صحبى أن شرب شرابهم ... بــه سر سرى فى انتشائى بنظرة
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن ... شمائلها لامن شمولى (٥) نشوتى
ففى حان (٦) سكرى حان شكرى لفتية ... بهم تم لى كتم الهوى مع شهرتى
ولمـا انقضى صحوى تقاضيت وصلها ... ولم يغشنى فى بسطها قبض خشية

ومن تائيتــه الصغرى :

نعم بالصبا قلــبى صبا لأحــبتى ... فياحبذا ذاك الشذا (٧) حين هبت

ومنها :

هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا ... من الوصل فاختر ذاك أو خل خلتى
ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره ... فؤادك وادفع عنه غيك بالتى (٨)
وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن ... وها أنت حى إن تكن صادقا مت

---

(١) في البيت إشارة إلى بيت زهير بن ابى سلمى :

إن جئت يوما على علاته هرما ... تلق السماحة فيه والندى خلقا

(٢) الحوليات : قصائد اشتهر بها زهير كان يصنع الواحـدة في حول كامل منحيـا عليها بالصقل حتى يهذبها (٣) راجع ديوان ابن الفـارض (٤) الحميـا : أول الـكأس في سورتها (٥) الشمول : الخمر (٦) الحان : موضع بيع الخمر (٧) الشذا : الريح الطيب (٨) صلة الموصول محذوفة

وقالوا تلاف مابقى منك قلت : لا أرانى إلا للتـــلاف تلــفتى
غرامى أقم صبرى انصرم دمعى انسجم عدوى انتقم دهرى احتكم حاسدى اشمت

وقال :

سائق الأظعان يطــوى البيد طى منعما عرج على كثبانـــ (١) طى
وبذات (٢) الشيح عنى إنـــ مرر ت بحى من عريب الجزع (٣) حى (٤)
وتلطف واجـــر ذكرى عنــدهم علهم أنـــ ينظـــروا عطفا إلى
قـــل : تركت الصب فيكم شبحا ما له مما براه الشـــوق فى (٥)
خافيا (٦) عن عائـــد لاح كما لاح فى برديـــه بعد النشر طى
صار وصف الضر ذا تيـــاله عنـــ عنـــاء والكلام الحى لى
كهلال (٧) الشك لولا أنـــه أنـــ عينى عينَـــه لم تتـــأى

ومن مطالع قصائده الرائعـــة قوله :

ا - خفف السير واتئـــد ياحادى إنمـــا أنت ســـائق بفـــؤادى
ب - شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
حـ - قلبي يحـــدثنى بأنك متلفى روحى فـــداك عرفت أم لم تعرف
د - مابين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بـــلا إثم ولا حرج
هـ - تـــه دلالا فأنت أهل لذاكا وتحـــكم فالحسن قـــد أعطاكا

---

(١) الكثبان : تلال الرمال (٢) ذات الشيح من ديار بنى يربوع في شمال جـزيرة العرب (٣) الجزع . منعطف الوادى (٤) حى : سلم (٥) في : أى فىء وسهلت همزتها . والفىء : الرجوع أو الظل (٦) معنى البيت أنه مريض هزيل لذلك خفى عن عائده ولاح فى وجهه وجسده تكسر وانحناء كما يلوح فى الثـوب المنشور وكان مطويا (٧) معنى البيت : أنه أصبح هزيلا نحيلا لا يكاد يرى مثل الهلال ليلة الشك . ولا يراه عائده ولا يفطن إلى وجوده إلا إذا أن أنينا . أما الجملة - عينى عينـه لم تتأى - فمعناها أن عيني أخذت تبحث عن عينه لتراهـا فلم تثبت عليها .

ومن ألغازه فى «ا» القَنْد (١) «ب» الليف

ا - أى شىء حلو إذا قلبوه ... بعد تصحيف بعضه كان خلوا
كان إن زيد فيه من ليل صب ... ثلثاه يرى من الصبح أضوا

ب - مااسم شىء من النبات إذا ما ... قلبوه وجدته حيوانا
وإذا ماصحفت ثلثيه حاشا ... بدأه كنت واصفا إنسانا

الكتابة الفنية فى عصر الفاطميين والأيوبيين

أسلوب الكتابة :

كانت الكتابة إلى عهد الفاطميين وفى شطر كبير منه ناهجة نهج طريقة ابن العميد وحلبته (٢) . حتى ظهر فى مصر أواخر العصر الفاطمى القاضى الفاضل فسن سنة جديدة فى الكتابة أصبحت متبعة فى عصره وطيلة العصر الأيوبى . بل وامتد سلطانها على الكتاب من بعدُ حتى قبيل العصر الحاضر إذ عادت الكتابة من جديد إلى طريق الترسل

من ابن العميد . ؟

هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد . وهو فارسى . ولد سنة ٣٠٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٠ هـ ونبغ فى الكتابة واتصل بملوك بنى بويه وساعدهم على تأسيس دولتهم ثم أصبح وزيرا لركن الدولة بن بويه . واتبع فى كتابته طريقته الجديدة التى عرفت باسمه .

طريقة ابن العميد :

ترك ابن العميد فى كتابته طريقة الترسل والعناية بالمعنى . وسن سنة البديع والعناية بالحلية اللفظية . متأثرا بما كان عند الفرس من ذلك . وقد غضت هذه الطريقه من المعنى وصرفت جهود القرائح إلى الزخرف اللفظى واتبعها

(١) القند : بفتح القاف وسكون النون هو عسل قصب السكر إذا تجمد . ولعله السكر الأحمر (٢) الحلبة : الدفعة الواحدة من الخيل تستبق في رهان . يشبه بها رجال العصر الواحد في ناحية ما .

ابن العميد ورجال حلبته كالصابى وابن عباد والخـــوارزمى وبديع الزمان والعتبي والحريرى . وقد كان هؤلاء أئمة البلاغة وأقدر رجال اللغة فى عصرهم فلم تبد إذ ذاك فى كتـابتهم جناية اللفظ على المعني لمكانتهم من العقل والعلم واللغة . وفشا استعمال هذه الطريقة من بعدهم واستخدمها كتاب أقل من هؤلاء علما . وتمكنا فى اللغة فظهر على كتابتهم التكلف وخفاء المعنى وتفاهته . وطريقة ابن العميد هى التى كانت متبعة في العصر الفاطمى . وربما كان كتابه أقل منه التزاما للسجع والمحسنات البديعية .

مميزاتهـــا :

١ ــ الاعتماد على الفقرات القصيرة وخاصة فى الرسائل السلطانية .

٢ ــ التزام السجع .

٣ ــ استعمال الجناس خاصة وبعض أنواع البديع المعروفة فى ذلك الوقت بدون إغراق فيها .

٤ ــ الاستعانة بمعانى الشعر وألفاظه ومنظوم الكلام ومثوره وحكمه وأمثاله المأثورة والآيات والأحاديث تضمينا واقتباسا حتى كاد الكلام يكون شعرا مثورا محلى بألفاظ القرآن والحديث .

٥ ــ استخدام ألفاظ التفخيم للملوك والأمراء ومن إليهم وذلك : كالحضرة المقدسة النبوية . أو السدة النبوية (للخليفة) وكالحضرة الوزيرية (للوزراء)

وهذه الطريقة فى جملتها سهلة مشوبة بالصنعة والانصراف إلى البديع .

من القاضى الفاضل ؟

هو أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن البيسانى اللخمى العسقلانى . ولد بعسقلان ــ كانت على سواحل فلسطين ــ سنة ٥٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٩٦ هـ . وفد على مصر وتعلم بها ونبغ فى العـــلم والكتابة فاتخذه بعض خلفاء الفاطميين كاتبـــاً وكانت دولتهم فى أواخرها فسـاعد صلاح الدين على انتزاع الحكم منهم ومن ثم أصبح كاتب الأيوبيين . وصـــاحب ديوان الإنشاء فى أول دولتهم . كما أصبح إمام البلغاء الناظمين والناثرين فى زمانه . وقد استن فى الكتابة

سنة جديدة عرفت باسمه اتبعها الكتاب من بعده وأغرقوا فيها وظلت تقليداً مرعياً حتى انتشر العلم فى عصرنا الحديث وبعثت كتب فحول البلغاء المترسلين واطلع عليها المتأدبون فهجرت طريقة القاضى الفاضل التى عمادها البديع وسلك الكتاب سبيل الترسل.

مميزات طريقة القاضى الفاضل :

أساسها الصناعة اللفظية والعناية التامة بإدخال أنواع البديع والافتنان بها والافتنان فيها . وأخص مميزاتها :

١ – قلة العناية بالفقرات القصيرة ولذلك طالت الجمل.

٢ – التزام السجع التزاما شبيها بالقانون الذى لا حيدة عنه ولا مخرج منه.

٣ – تعمد استعمال أنواع البديع ما عرف منها قبل ابن العميد وما اخترع من بعده . وأخصها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستخدام.

٤ – تكلف التشبيه والاستعارة.

٥ – حل المنثور والمنظوم وكثرة الاقتباس والتضمين من آى القرآن الحكيم والحديث الشريف وما عرف من التراكيب الجزلة والعبارات الفحلة مع إيراد بعض الغريب.

٦ – تعمد الإطناب والترادف.

٧ – التزام طوائف من الألقاب كل منها مقصور على طائفة معينة من الناس. كالمقام العالى أو الأشرف (للخليفة). وكالمحل السامى أو الأجل (للوزير). وكفخر الملوك أو زين الملوك (لأقرباء الخليفة).

الفرق بين الطريقتين :

الحق أن طريقة القاضى الفاضل امتداد لطريقة بين العميد وإمعان فى استعمال مميزاتها إمعاناً أدى إلى الإغراق فى البديع والحلية اللفظية وقهر المعنى على أن يكون تابعا للفظ . ولا سيما أنه ابتدعت أنواع شتى من الحلية

البديعية بعد ابن العميد فأدخلت إلى الكتابة مع التزام السجع وطول الفقرات والعناية التامة بالجناس والاستخدام ومراعاة النظير .

أثر طريقة القاضى الفاضل فى الكتابة :

كان شأن القاضى الفاضل وحلبته كشأن ابن العميد وحلبته من تمكن فى العلم وقدرة على اللغة وبراعة فى الأدب وسعة فى العقل . ولذلك لم تظهر مساوىء طريقته فى كتابته . ولكنها ظهرت من بعد حين أغرم بها الكتاب وفتنوا بها وقيدوا أنفسهم بقيودها حتى أصبحت أحب إليهم وأسهل عليهم من طريقة المسترسل . ولكن قلة أخذهم بأسباب العلم وتملكهم زمام البلاغة أتاح لمساوئها أن تظهر فتستطيل الألفاظ على المعانى فتجنى عليها .

الكتابة الأدبية والكتابة العلمية

ومما هو جدير بالذكر أن الصناعة اللفظية وتعمد الحلية البديعية كان أمراً مرعيا لا محيد عنه فى كتابة الرسائل والمنشورات السلطانية وكتابة الدواوين أى فى الكتابة الأدبية . أما الكتابة العلمية فمع اتجاهها النهج البديعى والزخرف اللفظى وخاصة فى كتابة التاريخ لم تغرق فيه الاغراق المذموم . ولعل مرجع ذلك إلى طبيعة العلوم وكثرة حقائقها مما لا يدع للمؤلف — ولو كان أديباً — فرصة واسعة لاستخدام أنواع البديع . وإلى أن أغلب العلماء كانوا أدباء . وقد بقيت للكتابة العلمية بلاغتها وسهولتها ورواؤها وحسن معانيها . فلم تبعد كثيراً عن الكتابة الأدبية كما بعدت نظيرتها عند المشارقة حيث تباعدت لغة العلوم عن لغة الأدب . وحيث افترقت لغة العلوم نفسها إلى جملة لغات . فأصبح لكل علم لغة اصطلاحية خاصة . وحيث أصبحت لغة التأليف بصفة عامة لغة منطقية علمية محضة لا تعنى إلا بالتعبير الدقيق عن حقائقها .

أغراض الكتابة :

كان من أهم أغراض الكتابة الفنية فى العصرين الفاطمى والأيوبى

تدبيج الرسائل السلطـانية . ووضع المنشورات والأوامر الحكومية . وتأدية حاجة الدواوين . والرسائل الشخصية . ويتخلل ذلك وصف ركوب الخليفة أو السلطان ، لصـــلاة عيد أو فتح خليج أو مزاولة حرب أونزال . ويصحب ذلك وصف جنده وعدده وفخامته وعظمته ؛ وكان من أغراضها أيضا تأدية حاجة العلوم فى التأليف والتصنيف .

الـكتاب والأدباء (١) :

نبغ فى الدولتين عدد غير قليل من الكتاب والأدباء نذكر منهم فى الدولة الفاطميــة : أبا القاسم بن الصيرفى . وعلى بن خلف . وموفق الدين بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء وأستاذ القاضى الفاضل — وفى الدولة الأيوبيـة : القاضى الفاضل . وعماد الدين الأصبهانى . والبهاء زهير . والصاحب فخر الدين . والشيخ أمينا الحلبى . وكلهم من كتاب الدواوين والرسائل السلطانية .

كتاب التأليف والتصنيف :

وبجوار هؤلاء نبغ كثيرون من أولى الهمة العلمية وفضـــلاء المؤلفين من فقهـــاء ومؤرخين منهم : ابن خالويه (٣٧٠هـ) . المقدسى (٥٨٢هـ) ابن معط (٦٢٨هـ) . ابن الحـــاجب صاحب الشافيـــة والأمالى (٦٤٦هـ) . وكلهم كتب فى النحو .

والإمام أبوطاهر (٥٧٦هـ) فى الحديث . وابن الصلاح (٦٤٣هـ) فى الفقه والأصول . وابن يونس الفلكى . وابن الهيثم الرياضى . وابن البيطار الطبيب .

وابن زولاق . (٣٨٧هـ) والأمير محمد بن عبيــــد (٤٢٠هـ) مؤلف تاريخ مصر . والقضاعى (٤٥٤هـ) صـــاحب خطط مصر . وعماد الدين الأصبهانى (٥٩٧هـ) صاحب خريدة العصر فى طبقات الشعراء الصليبيين . وابن شـــداد (٦٣٢هـ) كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبى وكلهم مؤرخون .

---

(١) تجد أخبار كثير من هؤلاء الأدباء والمؤلفين في كتاب تاريخ آداب اللغة جزء ٢ ، ٣ وكذلك فى كتاب ابن خلكان وابن شاكر .

منزلة الكتاب وديوان الإنشاء :

كان الكتاب منذ أوائل العصر العباسى ذوى منزلة سامية فى الدولة . وصلوا بعلو كعبهم فى الكتابة والشعر والأدب والعلم إلى المناصب الرفيعة حتى الذروة . وكذلك ظل شأنهم حتى عصر الدولة الفاطمية . وذلك لما للكتابة من أثر عظيم فى تدعيم سلطان الدولة . ولأنها إحدى وسائلها الضرورية فى ضبط أعمالها وتنظيم سياستها ونشر دعايتها . ولذلك أتاح خلفاء الفاطميين المكانة العالية للكتاب النابهين . فنهضوا بديوان الإنشاء فى عهدهم وعهد الأيوبيين نهضة كبيرة كان لها ولا شك أثرها فى العناية بالكتابة . ويرجع وجود ديوان الإنشاء فى مصر إلى زمن الطولونيين . ولكنه فى عصر الفاطميين حظى بعناية وافرة . إذ أن الخليفة المستنصر صرف وزيره أبا جعفر محمد ابن جعفر عن وزارته وخصصه بديوان الإنشاء . ومن ثم أصبح يليه أكابر الكتاب . كما أصبح لهؤلاء القول الفصل فى كثير من مهام الدولة .

وقد انتهى عصر الفاطميين وصاحب الديوان القاضى الفاضل . وقد ظل كذلك فى أيام صلاح الدين الذى عنى هو وخلفاؤه بهذا الديوان . ومن أشهر كتاب ديوان الإنشاء أيضا : ابن الصيرفى . وابن الخلال . والبهاء زهير . ومن هذا الديوان تصدر رسائل السلطان ومنشوراته .

وقيل : كان لصاحب الديوان الحجاب والأعوان وحامل الدواة . وإليه ترد المكاتبات الواردة باسم السلطان . وهو الذى يحملها إليه . ثم يقرؤها عليه . ويستمع لرأيه فيها ثم يتولى هو الرد عليها .

ولقد كان أكثر الكتاب شعراء وعلماء وفقهاء . ولرفعة مكانهم فى العلم والأدب احتفظوا لأنفسهم بلقب القاضى وإن لم يضطلعوا بالقضاء .

نماذج من الكتابة (١)

١ — من منشور كتبه ابن الصيرفى يبشر بركوب الخليفة إلى صلاة عيد الفطر ،

(١) أكثر هذه النماذج عن كتاب المنتخب .

قال : « كتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم عيد الفطر . بعـــد أن وفى الصيام حقه . وحاز أجر من جعل الله على خزائنـه رزقه . وبعد أن أفطر بحضرته الأولياء من آله وأسرته . والمقدمون من رؤساء دولته ، والمتميزون من أوليائه وشيعته . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ارتقب بروزه من قصوره ، وتجلى فأشرقت الأرض بنوره . توجـه إلى المصلى قاضيا لسنة العيد ، فكانت نعمـــة ظهوره بالنظر للحاضر ، وبالخير للبعيد . واستقل ركابه بالعساكر المنصورة التى أبدت منظرا معجبا ، وجعلت أديم الأرض بالخيل محتجبا . » إلى آخر ماقال .

٢ – كتب على بن خلف يدعو إلى وليمة :

« رقعتى ـ أطال الله بقاء سيدى ـ ومجلسى بمن حله من خـــدمه . وتركه من صنائع كرمه . فلك مزين بأنجمه . فإن رأى أن يطالع فيه بدرا بطلوعه ، وينقل قدمه إليهم ويكمل نقصهم بتمامه ، ويضيف ذلك إلى تليد إنعامه . فعل . إن شاء الله تعالى » .

٣ – من رسالة للقاضى الفاضل يصف فيضان النيل :

« وأما النيل فقد ملأ البقاع . وانتقل من الأصبع إلى الذراع . وكأنمـــا غار (١) على الأرض فغطاها ؛ وعار (٢) عليها فاستقعـدها وما تخطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ؛ ولا مرغوب مرهوب إلا إياه » .

٤ - وللقاضى الفاضل أيضا يعزى الملك العادل فى الملك العزيز ، من رسالة :

« أدام الله سلطان مولانا العادل ، وبارك فى عمره ، وأعلى أمره بأمره ، وأعز نصر الإسلام بنصره ، وفدته الأنفس الكريمة ، وأصغر الله العظائم فى نعمته العظيمة ، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والإسلام مواقف السلام الجسيمة . وينقلب عنا بالأمور المسلمة ، والعواقب الســـليمة . ولا نقص له رجالا ولا عددا ، ولا أعدمه نفسا ولا ولدا . ولا قصر له ذيلا ولا يدا ، ولا كدر له خاطرا ولا موردا . ولما قدر الله ما قـدر

(١) غار : غار يغار من الغيرة . أو يغور من الغور (٢) عار : تردد

فى الملك العزيز ـ رحمة الله عليه وتحياته مكررة إليه ـ من انقضاء مهله ، وحضور أجله . كانت بديهة (١) المصاب عظيمة ، وطالعة المكروه أليمة . فرحم الله ذلك الوجه ونضره ، ثم إلى الجنة يسره » .

٥ ـ من رسالة لابن سناء الملك يصف النيل فى سنة كان فيها ناقصا :

« أما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وانقطعت أصابعه . وتيمم العمود لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء » .

٦ ـ قطعة (٢) من مقدمة كتبها ابن النبيه الشاعر فى ديوانه :

« الحمد لله الذى بث أرواح العقول فى أجساد الصور ، وعم البسيطة بأنواع الحيوان ، واختص منها بالنطق البشر . خلق الإنسان ، علمه البيان . فأظهر أسرار حكمه . وجعل بدائع صنعته ميدانا لجولان سوابق علمه . استخلصه لعبادته وشكره ، كما شهد به الكتاب المكنون : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » .

وصف عام لما أصاب اللغة والعلوم بانقضاء خلافة بغداد

وبيان لفضل مصر على العلم أيام دولة المماليك

كارثة بغداد : ٦٥٦ هـ

بينما كانت خلافة بغداد فى نهاية ضعفها ، إذ كان سيل التتار بقيادة هولاكو ينحدر من أواسط آسيا إلى غربها مكتسحا ما فى سبيله من بلاد عامرة . تاركا من خلفه تلك البلاد تنعى من بناها . فتسامع به أهل بغداد . وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم ووزيره ابن العلقمى الخائن ، الذى كان يراسل هولاكو يطمعه فى دخول بغداد ، أملا فى أن يصبح بذلك سيد أهلها ، فتصبح الكلمة للرافضة على السنيين . وتصبح الدعوة للعلويين بعد زوال العباسيين . لذلك كان يمهد للاحتلال التتارى. ولكن أجمع أهل بغداد على ملاقاة عدوهم ثم قاتلوه مقاتلة شديدة صبروا لها فنصرهم الله وفر التتار . ولكن ابن العلقمى قطع جسر دجلة على جند بغداد

---

(١) البديهة : المفاجأة (٢) هذه القطعة مأخوذة من ديوان ابن النبيه .

وهم نيام فغرقوا وتشتتوا . وكان ذلك خير إعلان للتتار بدخول بغداد . فعادوا إليها فاتحين ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها نحو أربعة و ثلاثين يوما . لم يرعوا فى خلالها ضعف المرأة ولا طفولة الوليد ولا شيب المسن . ولم يأبهوا لحرمة العلم ولا جلال الفن ولاقيمة الأدب . فقتلوا من صادفهم من العلماء وأحرقوا دورالكتب وهدموا القصور ونهبوا الخزائن . ويقال إنهم قتلوا نحو ألف ألف وخمسمائة ألف فى مقدمتهم الخليفة وابنه ، وفى نهايتهم ابن العلقمى نفسه ! هذه هى بغداد ، وهذه هى كارثتها بل كارثة العلوم بل كارثه الإنسانية جمعاء . وكانت سنة ٦٥٦هـ .

وقد كان من أسوأ آثارها قتل فئة كبيرة من العلماء وإتلاف دور الكتب . وهذه خسارة لا تعوض . ولا نشك فى أنه قد بادت حينئذ جمهرة كبيرة من الكتب لا تزال الروايات تتسامع بها . ولا ندرى أوجد العلم بها بديلا ؟ فكفكف العبرة عليها والزفرة . أم لا يزال يعاوده أنينه وتفضحه عيونه ! أما اللغة العربية التى أخذت من قبل هذا تتوارى عن شرق بغداد بآدابها فقد كانت كارثة بغداد خاتمة لوجودها فى تلك الأصقاع .

ولقد حاول التتار أن يثلوا عرش المماليك بمصر والشام . ولكن هؤلاء وقفوا لهم مرارا فصدوهم عن سبيلهم . وثنوهم عن عزيمتهم . فارتدوا قافلين إلى ضفاف دجلة والفرات . ولهذا عاصر المماليك دول التتار - ومن زاحمهم من فرس أو ترك أو كرد - حين أقاموها على أنقاض ما تبقى من الدولة العباسية .

وقبل أن نتكلم عن عصر المماليك نجمل القول فيما أصاب اللغة والعلوم فى ذلك العصر المغولى . فنقول :

بعد أن سقطت بغداد عاصمة الدولة العباسية على يد هولاكو ، أخذ التتار يمعنون فى التقتيل والتخريب . ولما كانوا كفاراً وثنيين . ولهم لغاتهم الخاصة . لم يأبهوا بكتب الدين ولا اللغة العربية ولا العلم فأحرقوها أو أغرقوها . وجنوا على علمائها حتى فر من وجههم كثيرون . ثم أنشئوا لهم دولا عدة فى العراق والجزيرة وفارس وأواسط آسيا . وكان يزحمهم فيها أمراء من الفرس

أو قادة من الأكراد والأتراك حتى قضى العثمانيون عليهم جميعا حوالى سنة ٩٢١هـ.

العلوم: وكان ملوك هذه الدول فى بدء أمرهم وثنيين. ولكنهم بعد نحو سبعين سنة حبب إليهم الإسلام فاعتنقوه. فكان لذلك أثر فى نفوسهم وجههم إلى تشجيع علماء الدين وخاصة الشيعيون منهم. وحاولوا إصلاح ما أفسدته يد أسلافهم. فظهر حينئذ بعض العلماء الذين لم يجدوا بداً من اتخاذ العربية لسانا لهم. إذ لم تكن المغولية ولا لغة سواها تصلح لسانا لعلم أو أدب. وخاصة فى علوم الدين. فاستفادت اللغة العربية من وراء ذلك فائدة تذكر. وبقيت زمناً كبيراً لغة التأليف والتصنيف. وإن كان أسلوبها علميا جافا ومنطقيا مُجهِدا. وموضوعها المنطق أو الكلام أو البلاغة أو الفقه أو غير ذلك.

وحقاً قد جنى تيمورلنك من بعد جده وأبيه على العلماء، فألحق بهم البوار والتلف. وأباد طائفة منهم. ولكنه مع ذلك استبقى بعضا من الفلاسفة والحكماء. فحفظوا بعضا من آثار الماضين. ـ وقد كان لابنه أولوغ بك معاضدة مشكورة لعلوم الرياضة والفلك.

ولكن ذلك كله لا يقاس بما دُوِّن وألف فى عصر المماليك بمصر والشام مما سنشير إليه بعد. وهو على العموم لم يَعْدُ أن يكون شرحا لمتن أو اختصاراً لمطول

اللغة العربية وآدابها: بقيت اللغة إذن أداة للعلم والتأليف. ولكنها نُسخت أو كادت تنسخ فى ألسنة العوام وقت التخاطب. وحلت محلها اللغات الأخرى من مغولية أو فارسية أو تركية أو كردية ـ حسب المواطن ـ مشوبة ببعض الكلمات العربية.

ولما كان ملوك هذه الدول أعاجم عن اللغة العربية، لم يعطفوا على آدابها. وقل أن شجعوا شاعراً أو ناثراً أو أديبا. ولذلك كاد يخلو أفق هذه البلاد من الأدب العربى. على أن ما وجد منه شعرا أو نثرا، روعى فيه البديع إلى حد بعيد. فغث أسلوبه إلا قليلا جاد على يد صفى الدين الحلى. وأصبح من أغراض الشعر: المدح والإخوانيات. والملق والاستجداء؛ والوصف، والألغاز. ـ وكانت عجمة الملوك والرعية داعية إلى رواج سوق الشعر العامى (الزجل) فكثرت فنونه وتعددت أنواعه.

أما الخطابة فلم يبق منهـــا إلا الخطب الدينيـــة الضرورية .

ومن العلماء (١) :

١ - نصير الدين الطوسى (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) . وكان مقربا من هولا كو ، وهو فيلسوف ورياضى وفلكى . وله كتاب « تجريد العقائد » فى عـــلم الكلام . وكتاب « البارع » فى الفلك .

٢ - أبو عبد الله بن آجرُّوم (المتوفى سنة ٧٢٣هـ) صاحب كتاب « الآجرومية » وهو مختصر فى النحو .

٣ - سعد الدين التفتازانى (المتوفى سنة ٧٩١ هـ) مؤلف كتاب « تهذيب المنطق والكلام » .

٤ - السيد الشريف الجرجانى (المتوفى سنة ٨١٦ هـ) مؤلف كتاب « التعريفات » . وهو معجم لغوى يحدد المعانى الاصطلاحية للألفاظ العربية .

٥ - أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) صاحب معجم « القاموس المحيط » .

٦ - شمس الدين الفنارى (المتوفى سنة ٨٣٤ هـ) صاحب كتاب « المنطق » .

ومن الشعراء (٢) :

١ - شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفرى ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وتوفى سنة ٦٧٥هـ . وبعض المؤرخين يعتبره من شعراء الشام لأنه أقام فى حلب زمنا واتصل بالملك الأشرف .

٢ - علاء الدين الماردينى .

٣ - نظام الدين الأصفهانى .

٤ - صفى الدين الحلى (المتوفى سنة ٧٥٠) وسنترجم له ونورد طرفا من شعره ، فاعتبره نموذجا لهذا العصر .

(١ ، ٢) تجد ترجمة كثير من هؤلاء في فوات الوفيات . ـ راجع تاريخ آداب اللغة العربية جزء ٣ .

عصر المماليك ٦٤٨هـ — ٩٢٣هـ

من المماليك ؟

سنة اشترعها المعتصم العباسى فى ولايته ، وهى جلب غلمان الأتراك وأحداثهم ثم القيام على تربيتهم وتعهدهم بالتعليم، ولا سيما الفروسية والجندية، ثم ترقيتهم شيئاً فشيئاً وبثهم فى مناصب الدولة ، والعهد إليهم بمهام كثيرة فيها . ولقد اتبع سنته هذه بعض سلاطين بنى أيوب وخاصة الملك الصالح الذى استكثر منهم وسماهم المماليك البحرية . وقد اشتهروا بالشجاعة والصبر فى القتال ، حتى لقد أجلوا بعض الفرنجة عن البلاد فى زمن الصالح المذكور. وحينما توفى هذا الملك ، عهد مماليكه بالحكم لزوجته شجرة الدر . ولكن نزاعا قام بينها وبين ابن الملك الصالح المسمى المعظم توران شاه انتهى بتمكينها من الملك . ثم تزوجها كبير من المماليك البحرية وهو «عز الدين أيبك الجاشنكير» وتسمى بالملك المعز ؛ فكان هو حاكم البلاد الحقيقى . وكان ذلك بدء حكم المماليك وانقضاء دولة الأيوبيين . ثم توالى من بعده حكم المماليك البحرية ثم الجركسية حتى انتهى على يد العثمانيين .

حكمهم مصر وإجمال حالتها الاجتماعية فى عهدهم :

حكموا مصر نحو ثلثمائة سنة من ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . وقد كان من يلى الحكم منهم يستكثر من المماليك الجدد ليتخذ منهم حاشية وبطانة وجندا . وبذلك طال عهدهم . ولم يكن الحكم فيهم وراثيا ، بل للغالب منهم الذى يجمع حوله عصبية يستميلها إليه ، فتنصره حتى يتبوأ عرش الحكم فينيلها مآربها وإلا ثارت عليه وقتلته . وحقا تولى عرش البلاد منهم بعض الأسر فكان شبه وراثى فيها . ولكن ذلك كان على وَحىٍ وارتياب . وكثيرا ما كان المملوك يقوم فى وجه سيده وينتزع منه الحكم . وكان المماليك فيما بينهم هم الذين يتولون أمر البت فى سلطانهم . والشعب المصرى بعيد كل البعد عن أن يكون له من الأمر شىء .

وحياة كالتى وصفنا جديرة بأن تكون حياة قلق واضطراب ودسائس

وفتن ومؤامرات وحروب داخلية، تضيع فيها مرافق البلاد وتعطل مصالحها الحيوية. وشعب كالذى كان يحكمه المماليك وقف بينهم وقفة المشاهد المعجب المدهوش. فى حوادث النزاع والقتال الذى تدور رحاه بين مماليكه، يترقب الفرصة، فماهى إلا أن تدور الدائرة بزعيم منهم ويتسمع الناس بانكساره، حتى يسعوا إليه فيثخنوه نهبا وسلبا وتشتيتا. شعب كالذى كان يحكمه المماليك خضع لظلمهم وانطوى تحت حكمهم واستجاب لما فرضوه عليه من ضرائب فادحة قاسية تنفق على لهوهم ومتعهم. شعب كالذى كان يحكمه المماليك انتابته الأدواء والطواعين ونقصت محصولات أرضه وقلت خيراتها، حتى النيل نفسه قصر تهتانه وتراجع فيضانه، فحلت به المجاعات حتى بيعت الأولاد وفلذ الأكباد أرقاء مملوكين. أقول شعب كهذا جدير بأن يوسم بسمة الجهل والتأخر!

ومن أشهر من عرف من المماليك بيبرس وآل قلاوون وآل برقوق والمؤيد شيخ وغيرهم. على أن للمماليك حسنات عظيمة تجب مراعاتها بجانب سيئاتهم: فلا ننسى لهم روح الجندية التى ربوا عليها وتملكت أزمتهم. وشجاعتهم فى القتال وصبرهم عليه. وأنهم وجدوا بمصر ملكا مباحا لا راعي له فجلسوا فى دسته. وأنهم ردوا كثيراً من غزوات الصليبيين. بل كثيرا ما أوقعوا بعساكر التتار ووقفوا سدا منيعا دون دخولهم مصر. وأنهم غزوا وملكوا كثيرا من بلاد الشام. وأنهم وطأوا كنفهم للغة العربية وآدابها. وأفسحوا صدورهم للعلم والعلماء بعد أن رميت اللغة وأصيب العلم بسهم صائب من يد التتار ببغداد.

الحركة العلمية فى عهد المماليك:

شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون القاهرة ومصر المحروسة موطنا للغة العربية ومسكنا لآدابها، ومستقرا للعلوم على اختلاف أجناسها، لاسيما الشرعية والعربية منها. وحرما للعلماء آمنا يتخطف الناس من حوله. وذلك بعد ماطغت العجمة أولا على الألسنة فى شرق بغداد، حيث كان للعربية السلطان القاهر والعهد الزاهر. ثم بعد أن بغى التتار على مواطن العلم فيها. حيث كان للعلم

المحل الأرفع والثمر الأينع . وناسب ذلك أن كان المماليك قـــد بدءوا بمصر يجلسون على عرشها . ويتولون زمام الأمر فيها . وكان عهدهم جديرا بأن يسطر عنه التاريخ سطوراً بغيضة ممقوتة لما ذكرناه آنفا . ولكن خفف من لوعة التاريخ وقلل من أسفه أن اتصف المماليك بالبر والإحسان ، فأطعموا الفقير وكسوا العارى وأسسوا الموارد والمستشفيات . وأوقفوا الأرض وغيرها على وجوه الخير . وأن قامت فى ذلك الوقت حركة علمية مباركة طيبة ، واسعة النطاق . شجعها المماليك وعملوا على إنمائها فكان لها الفضل كل الفضل فى بقاء العربيـــة مزدهرة ، وفى بقاء العلم حيا ، وفى بقاء الأذهان على نشاطها ، وفى استمرار الحركة الفكرية . وكيف لا وقد دونت حينئذ طائفة من الكتب هى اليوم مرجع فى اللغة وآدابها وتاريخها وتاريخ رجالها وعلومها وعلوم الدين وغيرها ؟

ولهذه الحركة العلمية دوافع جمة ودواع كثيرة عملت على إذكائها ونشاطها، واتخاذ العربية لسانا لها . وهذه العوامل منها الداخلية ومنها الخارجية .

دواعيها الداخلية أو المحلية :

١ ـ كان المماليك مسلمـــين . وكان من بينهم التقى الورع الصالح . وبذلك أصبحوا يغارون غيرة طبيعية على دينهم وعلومه ، فعملوا على تشجيـــع القائمين به . وبلغته العربية .

٢ ـ يعتبر المماليك أغرابا عن الديار المصرية . وعاشـــوا فيها زمنا عيش الخواص المالكين فحسب ، فلم يحاولوا الاندماج فى شعبها اندماجا يصبحون به مصريين مقربين منه محببين إليه يشعرون بشعوره ويتأثرون بعواطفه. بل ظلوا يجلبون المماليك الجدد ويربونهم ويعلمونهم ويدفعون بهم إلى المناصب العالية حتى الإمارة . ليكون لهم منهم جند يحمى عرشهم . فزادت الفرقة بينهم وبين شعبهم . وكأنى بهم شعروا بها وخافوا مغبتها . فعملوا من جانبهم على تلافيها بالتودد إلى الشعب من ناحية يرضاها . وهى ناحية العلم والدين . فأكبوا على تشجيع العلماء وتقريبهم إليهم ودعوتهم إلى التدريس والتأليف . وهنا نستنبط أن العامة مع جهلهم كانوا يجلون

علماء الدين ويعظمونهم ويحفظون لهم فى نفوسهم مكانة عالية . ويعنون بأمرهم . فكل عناية بالعلماء إذاً كأنما هى موجهة إليهم . وتشجيع علوم الدين وإحياء مظاهره كان ولا يزال يأسر قلوب المصريين بل وسائر المسلمين .

٣ - ويمكننا أن نضيف إلى العاملين المتقدمين اشتداد روح المنافسة بين سلاطين المماليك ، فشمر كل منهم عن ساعد الجد ليعمل عملا مجيدا يخلد الذكر ويورث حسن الأحدوثة . وليكون عهد حكمه أبهى العهود زينة . وأحفلها برجالات الدولة - ومن قبلهم كان الفاطميون والأيوبيون قد ضربوا لهم المثل الصالح . وقدموا القدوة الحسنة فى ميدان العلم وتشجيع أهله . وتنشيط أولى الفضل فيه . فسلكوا سبيلهم وترسموا خطاهم .

٤ - ولعل أهم العوامل التى دفعت المماليك إلى إطلاق العربية تجرى كما شاءت لها الأقدار فى الملك والسياسة والقضاء والعلوم ، أن لغتهم التركية لم تتخذ من قبل فى عصر ما أداة للعلوم وتدوينها والتأليف فيها . كما اتخذت اللغة العربية . فتقاصرت همتها عن أداء حاجة العصر . لأنها لغة فقيرة لاسيما إذا قيست باللغة العربية . تلك اللغة الفنية بألفاظها وبتراكيبها . وبطرق الأداء فيها ، وبمصطلحاتها . تلك اللغة التى أدت حاجة العلم والأدب والدين ، وسايرت تطور الحركة العلمية ، منذ نشأتها فى الدول الإسلامية من عهد أبى جعفر المنصور العباسى حتى عهد المماليك الذى نحن بصدده . واكتسبت من ذلك قدرة وخبرة فى التعبير عن المعلومات والحقائق العلمية والنظريات العقلية كأدق ما تؤديه أرقى اللغات فى عصرنا الحاضر . هذا إلى أن اللغة التركية لم تكن لغة الشعب المصرى إذ ذاك . بل العربية لغته ولغة أهل العلم فيه بل وفى العالم الاسلامى أجمع تقريبا : فليس فى مكنة إنسان كائنا من كان أن يحول هذه الجموع الزاخرة عن لسانها إلى لسان غيره إلا بإحدى الأعاجيب . وهى التى لم يكن للمماليك بها خبرة ! . - ولا يفهم من ذلك أن المماليك كانوا على

جهل بيّن باللسان العربى . لا . بل كان منهم من تلقنه وفهمه وتحدث به وقرض الشعر العربى ولحنه كالسلطان المؤيد شيخ المحمودى . وغيره

دواعيها الخارجيـــة :

١ ــ أولها سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد التتـار . وما ترتب على ذلك من هجرة علمائها إلى مصر . إذ لم يجدوا أمامهم بلدا سواها من بلاد الاسلام أطيب حالا ولا أهدأ بالا منها فى ذلك الوقت . فهاهي ذى جنة الأندلس يشتد ساعد الفرنجـــة فيها ويهى عضد العرب ، فلكهم آيل للزوال . وها هى ذى بلاد المغرب بعيدة قاحلة تموج بفتنها وقلاقلها . وهاهى ذى بـــلاد الحجاز واليمن يعود إليهـــا جفافها وجفـــاؤها وترتد إلى جاهليتهـــا الأولى .

إذن هاجر علماء بغـــداد فارين منها إلى مصر . فوجـدوا من مماليـكها الترحيب والمعونة من رواتب جارية ومساكن معدة ودور كتب وتعليم مقامة . فكان ذلك خير معوان لهم على استئناف حيـاتهم العلمية . ووجدا سواهم من علماء مصر وغيرها مثل ماوجد هؤلاء . ولولا ماتسامع به الناس من بر ملوك المماليك للعلماء ما أرسل محمد بن مالك النحوى المشهور رسالة من الشـام إلى السلطان الظاهر بيبرس يستعين به على شظف الحياة والفاقة . وقد قال فيهـا « الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبـل الأرض . وينهى إلى السلطان أيد الله جنوده . وأبّد سعوده . أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب . وأمله أن يعينه نفوذ من سيد السلاطين ومبيد الشيـاطين . خلد الله مُلكه . وجعل المشارق والمغـارب مِلكه . على ماهـــو بصدده من إفادة المستفيدين . وهداية المسترشدين . بصدقـــة تكفيه هم عياله وتعينه على التسبب فى صلاح حاله . إلى آخر ماقال .

موازنة : وهنا (١) يحلو لبعض المؤرخين أن يوازنوا بين هجرة علماء بغداد إلى القاهرة وبين هجرة علماء القسطنطينية إلى روما بعد أن دخلها محمد

(١) راجع كتاب المفصل وكتاب المجمل وكتب تاريخ أوروبا ونهوض شعوبها .

الفاتح العثمانى سنة ٨٥٧ هـ - كانت هذه الهجرة الأخيرة سببا فى نهضة أوربا. تلك النهضة التى كافح فيها أبطال مجاهدون فى سبيل الحرية الفكرية وإطلاق الشعوب من إسار الأمراء. وإنقاذ الناس من عهود الإقطاع. تلك النهضة التى ظلت تدرُج إلى الأمام حتى كان نتاجها المدنية الحاضرة أوسع مدنيات التاريخ وأملأها علما وفنا وأدبا بل وحياة. فهى نهضة عامة تناولت كل النواحى الإنسانية فغيرت معالمها من علمية وأدبية وسياسية واجتماعية وخلقية واقتصادية. ومما أتاح لها ذلك أن النفوس الأوربية كانت على استعداد للكفاح. وهى التى كابدت فى القرون الوسطى أنواعا شتى من الاضطهاد وظلم الحكام. وضلال الكنيسة وعسفها. وسوء تفسيرها للأوامر الدينية واستغلال جهل العوام باسم الدين. أقول: إن هذه النفوس كانت قد اشتد عليها الضغط فاستعدت للانفجار. وساعدها أن العلماء المهاجرين إنما هاجروا من وجه الفاتحين المسلمين الشرقيين. والشرق والإسلام. كانا يلقيان الرعب فى قلوب نصارى الغرب. ولا يزال لهذا الرعب بقية باقية حتى اليوم. فلا غرابة أن هب الناس للاستماع إليهم والاقتباس منهم. والذود عنهم. وقد أحيوا الكثير من كتب اليونان والرومان القديمة وفيها مؤلفات فى الدين والحكمة والملك والسياسة وغيرها وكان هذا الإحياء. بالنشر أو الترجمة أو التدريس. وتناولوا مظاهر الطبيعة وقواها المختلفة. ففتحوا عيون الناس عليها فعكف هؤلاء على استخدام قوة الحديد وضغط البخار وغير ذلك. فأخذت الصناعات فى الازدياد ونافست الزراعة، وتجَمَّعَ الصناع، وولدت النظريات الاجتماعية، وطولب بالحقوق والإصلاح. وهكذا امتدت النهضة إلى كل ناحية إنسانية وقلبت أوضاع المجتمع. - أما هجرة علماء بغداد إلى مصر فلم تخلف مثل هذا الأثر الذى خلفته هجرة القسطنطينيين. واقتصر أثرها على إحياء كتب الدين وكتب اللغة ثم كتب العلوم الكونية الأخرى. فلم يتناول شئون الملك والسياسة ومسائل الاجتماع وتدبير المال واستنباط الثروة وغير ذلك. ولعل مرجع ذلك أنه كان لم يجرؤ بعدُ أحد على استخدام الدين وسيلة لتضليل

المسلمين واستغلالهم على النمط الذى استخدمته الكنيسة، حتى يتولد فى قلوبهم الشك الذى يؤدى إلى الثورة. بل بالعكس كان المماليك كما كان أسلافهم من الفاطميين والأيوبيين يعنون بمظاهر الدين ومعالم الإسلام عناية بالغة فلم يكن ثمة شك أو ارتياب. ثم أنهم لم يصلوا فى ظلمهم الناس إلى مثل ماوصل إليه أمراء أوربا. وإلى عهدهم لم يكن قضى الناس سنين طويلة رازحين تحت عبء القوة والاضطهاد كما قضى الأوربيون. هذا إلى أن علماء بغداد ومن لف لفهم وجرى فى ميدانهم من علماء مصر وسواها ممن اجتمع فى مصر فى ذلك العهد أو وفد عليها لم يتجهوا فى جهودهم العلمية وجهة الإصلاح الاجتماعى ومحاولة النهوض بالناس من ظلمة الجهل بحقوقهم وعدم الشعور الحق بإنسانيتهم - إذا استثنينا ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته من نظريات اجتماعيــــة وعمرانية - وكيف ينهض هؤلاء بإصلاح اجتماعى ربما امتدت يده إلى نظام الحكم ووسائله! وهؤلاء المماليك حكام البلاد هم الذين يشجعـــونهم فى حركتهم العلمية، وجهودهم فى سبيل التدوين والتأليف! فلم تكن ثمة مناسبة لاشتغالهم بغير ماهم بسبيله من علوم شرعية وعربية هى فى نظرهم أهم وأولى. هذا إلى أنهم لم يتجهوا نحو العلوم المادية والكونية اتجاها جريئا فيلفتوا النظر ويفتحوا العيون إلى قوى الطبيعة المختلفة مما يكون ذا أثر فى تغيير نظم الجماعات واستثمار المال.

٢ — شعور علماء ذلك الزمان بأن عليهم واجبا إنسانيا كبيرا بعد كارثة بغداد وما ألحقته بغيرهم من العلماء وبدور الكتب من إبادة - ذلك الواجب هو أن يغذوا السير فى سبيل إحيائها وإعادتها إلى الوجود مرة أخرى. لأنهم وهم ورثة العلم ومن انتهت إليهم تركته حينئذ أحرى الناس بتدوينه والانكباب على التصنيف والتأليف. لعل العـــلم يندمل جرحه ولعل الدين يلتئم قرحه. وإلا فمسئوليتهم أمام الله والتاريخ عظيمة. وقد أجادوا وأفادوا وألفوا وصنفوا وكتبوا وبوبوا موسوعات جامعـــة أودوائر معارف جليلة الشأن عظيمة القيمة - وقـــد ضاعف فى همتهم ما كان بين علماء مصر والشام من منافسات.

٣ – أحس المماليك أنهم قد انتهت إليهم حماية الإسلام. فاصبحوا أجدر الناس بالدفاع عنه والدعوة إليه خصوصا أنه قد زالت خلافة المسلمين من بغداد وتجددت فى القاهرة فأصبحت القاهرة. بذلك ذات صيغة شرعية «رسمية» فقد روى (١) المقريزى عند الكلام عن الخليفة المستعين قال: «وأصل هؤلاء الخلفاء بمصر أن أمير المؤمنين المستعصم بالله عبد الله آخر خلفاء بنى العباس لما قتله هولاكو بن تولى بن جنكيز خان فى صفر سنة ٦٥٦ هـ ببغداد، وخلت الدنيا من خليفة، وصار الناس بغير إمام قرشى إلى سنة تسع وخمسين فقدم الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر العباسى من بغداد إلى مصر فى يوم الخميس تاسع رجب فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى لقائه، وصعد به قلعة الجبل، وقام بما يجب من حقه وبايعه بالخلافة وبايعه الناس وتلقب بالمستنصر» هذا وقد تتابع من بعد هذا الخليفة خلفاء غيره من بنى العباس. ولا نشك فى أن المماليك قد استعانوا بوجود الخلفاء العباسيين بينهم على أمور كثيرة. وإن كان وجودهم وجودا ذليلا.

مظاهر التشجيع ووسائله:

١ – قصر المماليك أنفسهم على مناصب الجندية وعاشوا عيشة أشبه بمعيشة الجند الذين هم على أهبة الاستعداد. وتركوا غيرها لرجالات الدولة والنابغين فيها من علماء وكتاب. فكان منهم رؤساء الدواوين وكتابها والوزراء والقضاة وغيرهم. وفى ذلك ما فيه من شحذ الهمة وتنشيط الفكر.

٢ – وارتضوا العربية أداة للتعبير فى الحكم والسياسة والقضاء والعلم فأتيح لها بذلك وجود قيم وحياة طيبة ولم تستطع لغاتهم أن تزحمها.

---

(١) راجع الخطط المقريزية الجزء الثانى ص ٣٩٣.

٣ – وأسسوا المساجد(١) المتعددة متخذين منها دورا للدراسة والتعليم .

قيل : بنى المماليك نحو خمس وأربعين مدرسة لتعليم علوم الدين واللغة . منها المدرسة الظاهرية التى بناها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ ويدرس بها الفقه الشافعى والحنفى والقراءات . وكان بها مكتبة عظيمة القيمة جليلة القدر . قيل : إنه عند تمام بناء هذه المدرسة اجتمع أهل العلم بها وحضر القراء وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان منها . وقرروا كلهم الدروس . وتناظروا فى علومهم . ثم مدت الأسمطة فأكلوا . وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة ... بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسن مفرق ... فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النـ ... ـقية منها فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

ومن المدارس أيضا المدرسة المنصورية التى بناها الملك المنصور قلاوون . وكان يدرس بها الفقه على مذاهبه الأربعة والتفسير والحديث والطب .

ومنها المدرسة الناصرية : أسسها العادل كتبغا وأكملها الناصر سنة ٧٥٣ هـ . وكان يدرس بها المذاهب الأربعة .

ومنها مدرسة السلطان حسن الأكبر سنة ٧٥٨ هـ للمذاهب الأربعة .

ومنها المدرسة المؤيدية سنة ٨١٨ تدرس بها المذاهب الأربعة .

وازدهرت مع ذلك الدراسة فى الجامع الأزهر .حتى وفد إليه الطلاب من جميع بقاع العالم الإسلامى لدراسة العلم واللغة والأدب . وقد فتحت جميع هذه المدارس للمسلمين عامة . فأمها المصرى والمغربى والشامى واليمنى والحجازى . والبغدادى . والهندى . والفارسي . وغيرهم . وإن مايدو

(١) اقرأ الجزء الثانى من حسن المحاضرة للسيوطي ابتداءمن ص ١٥٥ إلى ١٦٤ في أخبارهذه المدارس.

الآن في عصرنا الحاضر من ميل الشعوب الإسلامية حتى القاصية منها، كأهل الصين والهند والأوربيين، إلى الوفود إلى الأزهر والانتساب إليه، والارتشاف من مناهله، ليعيد إلى الأذهان ذكرى ذلك العهد الزاهر الماضى ويبشر بمستقبل ميمون.

٤ – أغرم بعض المماليك باقتناء الكتب فجمعوها وحشدوها فى دور كبيرة أطلقت حرية الاطلاع فيها. كتلك الدار التى مر ذكرها بالمدرسة الظاهرية.

٥ – تقدير المؤلفين من علماء وأدباء بدعوتهم إلى التأليف باسم السلطان. وكما كان بعض بنى العباس وبنى مروان بالأندلس يتنافسون فى الاستحواذ على المؤلفات الحديثة باسمهم خاصة، كذلك نهج بعض المماليك نهجهم ومنهم من كافأ الأديب بالمال أو الوظيفة، ووضع مؤلفه فى مكتبته الخاصة كما فعل السلطان حسن الأكبر مع ابن نباتة الشاعر.

٦ – إجراء الرواتب والإعانات وإفراد المساكن وتهيئة الطعام والثياب للمدرسين والطلاب. وهذا ولا شك يكفيهم مئونة السعى لطلب الرزق، والكدح فى سبيل العيش، ويخلى بالهم ويطمئن نفوسهم ويبعدهم عن هواجس الفاقة وهمّ الأبناء. فينصرفون إلى ماهم فيه من طلب العلم انصرافا لا يكدره قلق ولا يشوبه اضطراب.

٧ – حبس الأوقاف على العناية بدور الدراسة ودور الكتب وسواها من دور البر والشفقة والإحسان.

٨ – اشتغال بعض المماليك بالشئون العلمية والأدبية كالظاهر بيبرس. وكالسلطان حسن الأكبر والمؤيد شيخ المحمودى. فيقدمون بذلك القدوة، ويضربون خير الأمثال للناس فيسيرون على منهاجهم ويستضيئون بوحيهم.

٩ – تبجيلهم العلماء تكريماً لهم واعترافا بفضلهم وجلبا لمودتهم. فقد رُوى: أن الملك الظاهر بيبرس كان يجل الشيخ عز الدين (١) عبد العزيز ابن

---

(١) تجد ترجمته في فوات الوفيات ص ٣٦٦ من الجزء الأول.

عبد السلام ويخشاه . ولقد قال بعد أن توفى الشيخ : « ما استقر ملكى إلا الآن » . ويبدو لنا من حياة هذا الشيخ أنه كان ذا منزلة ونفوذ بين الناس . وأنه كان شديداً فيما يعتقد أنه الحق . روى صاحب فوات الوفيات فى ترجمته قال : « لما مات شهد الظاهر جنازته والخلائق » . وقال أيضاً : « ويقال إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر قال له : يا ركن الدين : أنا أعرفك مملوك البندقدار ! فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن ملكه للملك الصالح وعتقه » . وأمثالهما كثير .

أثر الحركة العلمية:

ا - أثمرت هذه الحركة العلمية المباركة ثمرها الطيب المنتظر . وآتت أكلها المرجو . وماجت مدارس القاهرة بوفود الطلاب من شتى الأقطار . وامتلأت مصر بعلمائها وبمن وفد عليها من بقاع العالم الإسلامى من العلماء. وقوى ساعد الجميع ودبت الحماسة فى صدورهم بما وجدوه فى ممالكها من ميل إلى العلم ومعاضدة أهله . وبما شعروا من عبء الواجب الذى ألقته الحوادث على كواهلهم . فجدوا وصبروا وثابروا عاملين على نشر علوم الدين واللغة وسواهما على قدر طاقتهم ، ليبرئوا الذمة أمام الله والضمير والتاريخ . وعكفوا على التدريس فظهر بينهم مدرسون عباقرة أفاضل . وعلى التأليف فنبغ من بينهم مؤلفون نابهون أماثل . دونوا الجم الغفير ، والعدد الوفير ، من كتب الأدب واللغة والنحو والفقه والتفسير والحديث والتاريخ والأنساب والتراجم والقصص وعلوم الاجتماع والكونيات . وعوضوا الإنسانية والإسلام بعض ما أتلفه التتار فى بغداد ، والصليبيون فى الشام ، والفرنجة فى الأندلس . وكانوا الوُصلة الصالحة بين الماضى والمستقبل . والحافظين لتراث المسلمين الأدبى والعلمى . والعاملين على إحيائه وتجديده . فلهم فضل لا ينكر . ويد طولى تذكر وتشكر . وهاهى ذى مؤلفاتهم ملء السمع والبصر . هى قياس الفقيه وعمدة النحوى ، ومصباح اللغوى ، وسراج المفسر ومنهاج المحدث ومرشد المقوم ومرجع المؤرخ وسند الأديب.

ب - وكثير من علماء ذلك العصر أخذ يتنقل من قطر إلى قطر وخاصة بين

مصر والشام كالقمر المتنقل فى منازله ، فلم يقصر إقامته عــلى مصر . كما وقعت المنافسات العدة والمناقشات المختلفة بين علماء مصر والشام وأدبائها . ولهــذه المنافسات أثرها الصالح فى الانكباب على العلم ونشره فى البلدين .

حـ - وتمتاز مؤلفاتهم : بكثرتها وخاصة كتب التاريخ . وبسعتها فقد ألفت فى ذلك العصر كتب جامعة يبلغ الواحد منها مجلدات عدة . وقــد فسرت كتب الحــديث ، وأغرم بعض العلماء بوضع المتون ، أو الشروح أو التحشية عليها ، وجمع المعلومات فى مطولات أو اقتضابهــا فى مختصرات ، كما ظهرت بعض الكتب الروائية تاريخية وقصصية وتمثيلية ، وأخصها كتاب ألف ليلة وليلة الذى ظهر فى أوضح صورة وأتمها . وكان له من بعدُ فضل فى ترقيـة فن القصص ، وخاصة عند الفرنجة ، بعد ترجمته إلى لغاتهم .

ى - ويؤخذ على هذه المؤلفات : أن انصرف واضعوها إلى تدوين علوم الدين واللغة أكثر من انصرافهم إلى تدوين الأدب اللباب فضعف التأليف فيه . ويظهــر أن ذلك كان ضرورة من ضرورات العصر ، إذ الحاجة ماسة إلى تدوين ما يتصل بالدين واللغة أولا ، أما المتون والمختصرات فهى - ولا شك - مما يدخل اللبس والإبهام ويسبب التعب والكد الذهنى للمتعلم . وخير لكتب الدراسة أن تكون مبسوطة الأسلوب سهلة العبارة بعيدة عن العنف والتكلف فى أداء المعنى ، حتى يسهل العلم على طالبه فيعيه من أيسر السبل ، وذلك أبقى للذهن والزمن يصرفان لما هو أجدى - نقول ذلك لأن هذه المتون والمختصرات تُقَرَّر أحيانا لطلاب العلم المبتدئين ! وليس معنى ذلك أن نرحب بالكتب ذات الشروح والحواشى ، وبالكتب المطولة احقا إن هذه الكتب تعتبر دواوين للعلوم التى ألفت فيها فقــد استوعبت مسائلها حتى الدقيقة منها ، بل وفرضت الفروض والاعتراضات ثم عرضت للإجابة والرد ، وهكــذا ؛ ولكنها لا تصلح للتدريس فى المدارس ومعاهد التعليم ، لا تصلح للطالب الذى حددت له الدروس بالأجــراس ، والذى تكاثرت عليه دروسه كتكاثر الظباء على خراش ! ففى هذه الكتب كثير من فلسفة العلم ، وربما تشعبت مسائلها فضاقت

بها نفس الطالب أو الباحث الذى قد لا يعثر على ضالته إلا بعد نصب كبير وزمن كثير ، فهى إذاً فى حاجة إلى التهذيب والتشذيب بما لايخرج عن حاجة طلاب العلم .

هذا ويمكن تسمية الكتب الجامعة التى ألفت إذ ذاك ، دوائر معارف أو موسوعات ، حسب الاصطلاح الحديث . لأنها جمعت فأوعت ومزجت فى تضاعيفها بين علوم شتى من تاريخ وأدب وتقويم بلدان ، وفقه وحديث ونحو . وهكذا . لم يُبْنَ وضعها إذن على وحدة التأليف . أو بعبارة أخرى على فكرة علمية خاصة للمؤلف تبدو منها شخصيته . وما هى إلا شتات مجموع ، وجُذاذات منوعة ، وأخبار مروية ، وشوارد مختزنة ، ألقاها المؤلف عن حافظته على القرطاس . ولعل أهم عيوبها قلة فهارسها النافعة فقلما تعثر فى أحدها على جدول للأعلام المتعاصرين . هذا إلى كثرة الاستطراد فيها . ولذلك يجد القارىء فيها نفسه آونة بين الشرق وآونة بين الغرب وطوراً فى الشمال وطوراً فى الجنوب ! وربما ضاع زمنه أو ضاع زمن منه كبير حتى يعثر على سنة ميلاد أو وفاة . أو يقع على بيت شاعر أو قولة عالم . وربما كان فى كتب الأوائل ما يشبه هذا . والجميع فى حاجة إلى إعادة النظر فيها وتنظيم طرق الانتفاع بها . على أننا لانريد أن نغمط القوم حقهم . ولا ننقص من فضلهم فلا أقل من أن نعترف لهم بسعة الاطلاع والترتيب والتنظيم الذى تراءى فى بعض مؤلفاتهم . ثم التحرى الدقيق فى كثير من المسائل التاريخية والأدبية . بل لعل هذه الكتب بما آتى فيها من الأدب وتاريخه سدت بعض الفراغ الذى أحدثه ضعف التأليف فيه . وإننا لا ننسى لهم تلك البحوث الشائقة التى يضعونها فى مقدمة كتبهم أو فى ذيلها أو بين أبوابها . وسيد من كتب المقدمات فيهم ابن خلدون . فمقدمة تاريخه أشهر من أن يشار إليها . وهى أكثر فضلا وأثمن من تاريخه نفسه . فبها وحدها سارت بذكره الركبان وعرف بين بنى الإنسان . ففى هذه المقدمة نظرياته فى المجتمع والعمران ونشوء الأوطان وغير ذلك . مما استنبطه بنظره الثاقب وفكره الناضج من التاريخ وحوادثه الناطقة . ولعلنا لا ننسى أيضاً فى هذا المقام بعض علماء اللغة وخاصة النحويون

منهم كابن مالك وابن هشام المصرى ، ففى مؤلفاتهم أثر التفكير ونتيجة الكد الذهنى وظهور الرأى الناضج . وكل هذه المميزات تعد فى باب المبتكر الجديد .

ه - ولنذكر هنا بعض العلماء وبعض مؤلفاتهم . مراعين أن أحداً لم تقتصر حياته على مصر وحدها ؛ فنهم :

١ - محي الدين بن عبد الظاهر « توفى سنة ٦٩٢ ه » . وله جملة رسائل سلطانية ، وله فى التاريخ والتقويم « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » ، وقد أخذ عنها المقريزى .

٢ - أحمد بن فضل الله العمرى « توفى سنة ٧٤٨ ه » ، وله رسائل كثيرة ، وكتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى أكثر من عشرين مجلداً فى الأدب والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى والتقويم .

٣ - القلقشندى « توفى سنة ٨٢١ ه » ، وله كتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » فى نحو عشرين مجلداً . و « قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » ، و « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » .

٤ - أبو العباس شهاب الدين أحمد النويرى « توفى سنة ٧٣٢ ه » ، كان فى عصر الملك الناصر بن قلاوون ، وله كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، فى أكثر من ثلاثين جزءاً فى التاريخ والأدب والتقويم والفلك والطب والسياسة وغيرها .

٥ - ابن تيمية « توفى سنة ٧٢٨ ه » ، العالم التقى الورع الفقيه الذى تولى التدريس فى إحدى وعشرين من عمره . وهو إمام مجتهد وله نحو ثلثمائة مؤلف منها « فتاوى بن تيمية » ، « الجمع بين العقل والنقل » ، « الواسطة بين الحق والخلق » ، و « منتقى الأخبار » ، وهى كتب فى التفسير والأصول والرد على الفلاسفة . وقد أوذى ابن تيمية فى سبيل آرائه حتى لقد سجن أكثر من مرة ومات فى سجنه .

٦ - شهاب الدين القسطلانى « توفى سنة ٩٢٣ ه » ، فى يوم دخول السلطان سليم مصر . وله كتاب « إرشاد السارى إلى شرح البخارى » فى عشرة أجزاء من خير الكتب فى شرح أحاديث النبى عليه السلام مما ورد فى صحيح البخارى .

٧ — جمال الدين محمد بن مالك الأندلسى وقد أقام بدمشق زمنا، توفى سنة ٦٧٢ هـ، وهو إمام فى النحو وله تصانيف عدة منها « التسهيل »، « الكافية الشافية »، وله كتاب « الألفية » المشهورة نظم فيها مسائل النحو والصرف فى ألف بيت. وله « سبك المنظوم وفك المختوم ».

٨ — ابن هشام المصرى « توفى سنة ٧٦١ هـ » وهو إمام فى النحو أيضا قال فيه ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه ». ومن مؤلفاته « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب »، و « شذور الذهب »، و « قطر الندى وبل الصدى ».

٩ — جلال الدين السيوطى « توفى سنة ٩١١ هـ » له أكثر من ثلثمائة مؤلف فى علوم مختلفة ومنها « المزهر » فى فقه اللغة وفنونها، و « الأشباه والنظائر » فى النحو ؛ و « الإتقان فى علوم القرآن »، و « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة »، وهو فى التاريخ.

١٠ — شمس الدين ابن خلكان « توفى سنة ٦٨١ هـ »، وله معجم دقيق فى التاريخ والأدب ترجم فيه لكثير من العلماء والأدباء والملوك والأمراء والوزراء وسماه « وفيات الأعيان »، وقد نسج على منواله محمد بن شاكر بن أحمد الليثى « المتوفى سنة ٧٦٤ هـ » فى كتابه « فوات الوفيات »، فكان تكملة للوفيات. وهو جزءان. ولصلاح الدين الصفدى « المتوفى سنة ٧٦٤ هـ » ذيل آخر لكتاب الوفيات قيل إنه خمسون مجلداً فهو أضخم من الوفيات نفسها.

١١ — ابن خلدون « المتوفى سنة ٨٠٨ هـ » صاحب كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى سبعة أجزاء فى تاريخ البربر ودولهم وعرب الجاهلية. وجزؤه الأول هو مقدمته التى اشتهر بها ابن خلدون لما تضمنته من بحوث شائقة نافعة مبتكرة فى علم الاجتماع والسياسة وأحوال العمران ونشوء الأوطان والصناعة والزراعة والمدن والقرى والعلوم والفنون والرقى والانحطاط. وغير ذلك كثير مما استنبطه من تاريخه ودعمه بحوادثه. ولما

طبعت هذه المقدمة فى العصر الحاضر واطلع عليها الناس، كانت أداة قيمة من أدوات النهوض العلمى والأدبى فى أيامنا .

١٢ -- المقريزى « المتوفى سنة ٨٤٥ هـ » واشتهر بكتابه المعروف بالخطط: وهو « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وصف فيه بإسهاب معالم مصر من بلاد ومبانى وقصور ومواضع . وتاريخها وتاريخ منشئيها من ملوك وغيرهم . وتكلم عن الفاطميين والأيوبيين والمماليك . وأورد الكثير من حوادثهم وعاداتهم . وفى ثنايا ذلك مواقف أدبية كثيرة . وكل ذلك بأسلوب المتحدث الذى يسرد القصص والوصف فحسب لا بأسلوب الأديب المتأنق .

١٣ - وغير هؤلاء العلماء والمؤلفين كثير ممن كان بالشام أو غيرها وله بمصر صلة ما ومنهم ابن منظور توفى سنة ٧١١ هـ صاحب المعجم المعروف بلسان العرب . وابن حجة الحموى توفى سنة ٨٣٧ هـ صاحب خزانة الأدب فى شرح بديعيته، وبها كثير من العلم والأدب والتاريخ . والنواجى توفى سنة ٨٥٩ هـ وله فى الأدب « حلبة الكميت » . وابن حبيب الحلبى توفى فى سنة ٧٧٩ هـ وله « نسيم الصبا » فى الأدب الوصفى . وابن النفيس الطبيب المصرى وله « المختار من الأغذية » .

« وسنترجم لبعض هؤلاء الرجال بعدُ » .

الشعر والشعراء فى عهد المماليك :

اتجه النشاط فى عهد المماليك إلى إحياء العلوم أكثر من اتجاهه إلى إحياء الآداب . لحاجة هذا العصر إلى العلم قبل الأدب . ولأن دواعى الاشتغال بالعلم كانت كثيرة ووسائله وفيرة كما وصفنا من قبل . وأول مايصاب من مظاهر الأدب الشعر لأنه أدقها .

إذن : انصرفت العناية عن الشعر والاستماع إليه فما هو ذا الشعب - و هو البيئة التى نبت منها الشعراء - جاهل غامض العاطفة غلبت عليه عاميته . وهاهى ذى حياته ملأى بالحيرة والاضطراب والحوادث العنيفة المفاجئة المتتالية .

فلا معين على قول الشعر أو سماعه. وهاهم أولاء ملوكه وأمراؤه جند! والجندية أقرب للعمل منها للقول. فلا تجد الروح الأدبية سبيلها معبدة مذللة إلى نفوس أهلها. وأعاجم عن العربية! فليسوا على استعداد طبيعى للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم وتوجيه الدعوة إليهم ليكرروا بين يديهم ماسبق لهم تكراره فى عصور منصرمة، من تصاوير ملفقة وتهاويل موهومة وعواطف مفتعلة ومعانى يخترعها الوهم والخيال وليس من ورائها جدوى ولا طائل عملى! وإنهم لايقدرون حق قدره مايورده الشعراء من مجازات طريفة، واستعارات وتشبيهات رائعة، ومعانى مولدة مبتكرة. فكل هذا يفهمه العربى العريق الملم بأسرار اللغة وطرائق تراكيبها. فيهتز للمعنى الرائع يساق فى اللفظ الجزل. إذن لم يجد الشعراء بجمال القول الفسيح ولا بدر المال ولا صرر الدنانير ولا العيش الناعم الرغد - وقد عودوه من قبل هذا - وإليك ابن نباتة أمير الشعراء فى عصره: أخذ يذرع الأرض من مصر إلى الشام طلبا الرزق شاكيا باكيا بؤسه وشظف عيشه. قال ابن نباتة:

لاعار فى أدبى إن لم ينل رتبا وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فياعجبا منى لثروة لفظ وافتقار يد

ويظهر أن شعراء ذلك العصر لم يستقبلوا الأمر بالحذر الواجب. فلم يعنوا بفنون أخرى غير الشعر ينبغون فيها ويعيشون منها. فاضطروا حينئذ إلى الاحتراف سداً للحاجة وحفظا للرمق وسترا للحياة. وحقا، منهم من اصطنع الكتابة فاستخدم فى دواوين الإنشاء. ولكن كان منهم أيضاً الجزار والوراق، والدهّان والحمّامى والكحّال وغيرهم - وكان ضغثا على إبالة ذلك الميل الذى بدا من المماليك إلى الزجل وأهله وحب سماعه. لأنه وهو الشعر العامى أقرب إلى لسانهم وأدنى إلى فهمهم من الشعر العربى الفصيح الجزل. فراج ونفقت سوقه. ومن ثم هانت على كثير من الشعراء صناعة الشعر فَرَكَّ أسلوبه وتفه معناه. وانتقلوا من الشعر إلى الزجل، ومن القصائد الطنانة العصماء إلى المقطوعات أو التواشيح السهلة عربية أو عامية. وهكذا. وسولت هذه الحالة الأمارة

بالسوء لكل شعرور دخيل أن يندس بين الشعراء - كتشاعرى زماننا - فكثر السقط السخيف من الشعر مما يترفع عنه المبتدئون فيه . فزاد الطين بذلك بلة . ولذلك نحكم بانحطاط الشعر فى عصر المماليك إذا ما استوعبنا كل ما أثر منه فيه . ولو أن الشعراء عنوا بأنفسهم فقوموها بالعلم، وثقفوها بالمطالعة والدرس ، وقراءة كتب الفلسفةو العلوم العقلية والمنطق التى هجرت فى ذلك العصر ، لكان لذلك أثره المحمود فى تقدم شعرهم و توليد معانيه وابتكار أفكاره . ولكنهم قصروا فقصر شعرهم .

هذه أسباب انحطاط الشعر فى عصر المماليك . وليس معنى ذلك أن العصر قد خلا من نظم جيد أو شعر رصين . لا ، بل هناك الكثير الحسن جادت به قرائح أذكتها المنافسة الشخصية بين شعراء مصر والشام . فكثيرا ما كانوا يتقارضون الشعر ، ويتفكهون بالمناقضات ، ويسليهم التراسل بالأبيات - كالذى كان بين صلاح الدين الصفدى بالشام وبين ابن نباتة بمصر وهم فى ذلك مخلصون لفنهم لحسب ملبين دعوة الشعر الخفية فى طبيعتهم المتجلية فى أطواء نفوسهم . هنا رجع الشعراء إلى نفوسهم الحقيقية فلبوها . وخلوا إلى عواطفهم الخاصة فأجابوا نداءها . فبرزت العاطفة حية صحيحة فى الشعر وبانت النفوس الباطنة سافرة بأخلاقها وهواجسها بين أبياته . وهذا هو الشعر الحق الصادق . لا شعر الملق والخداع . وإن سما معناه وجاد مبناه . - وقد خفف من لوعة الشعر وأنهض من همة الشعراء أيضا ما كان يقدمه إليهم بعض الوزراء وأعيان الكتاب من معونة . وربما جادهم بعض المماليك وأمرائهم ممن يفهمون العربية ويطربون لشعرها ، فيعطفون على أهله . كآل قلاوون وكالمؤيد شيخ وكالسلطان حسن الأكبر . إلا أنه كان جودا أشبه بعارض الصحراء يلم بها لماما ثم يودع لا إلى ميعاد . وربما تفصح الكلمة التالية المقتبسة من كلام ابن الوردى فى مقدمة ديوانه عن شىء من ذلك . قال : « وقد يقف الناظر فى مجموعى هذا على وصف عذار الحبيب وخده . ونعت ردفه وقده . وشكوى عشقه وصده . وذم الشىء وحمده . ومدح الشخص لرفده . وجزر القول

ومده . فيظن لذلك بى الظنون غافلا عن قوله تعالى : « وإنهم يقولون ما لا يفعلون . وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة » .

لفظ الشعر وأسلوبه :

أ - زاد أسلوب الشعر ولفظه رقة أو قل ركة . وجنح الشعراء إلى السهل المتعارف منه حتى قربت ألفاظه وتراكيبه من ألفاظ العوام وتراكيبهم .

وهذا هو صفى الدين الحلى يقول :

إنما الحيزبون (١) والدردبيس   والطخا(٢) والنقاخ(٣) والعلطبيس (٤)
لغة تنفر المسامع منها   حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحـ   ـشى منها ويترك المأنوس
أين قولى : هذا كثيب قديم   ومقالى: عقنقل (٥) قدموس
خل للأصمعى جوب الفيافى   فى نشاف تجف فيها الرءوس
إنما هذه القلوب حديد   ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وذلك لأن الشعراء من صميم الشعب الذى عرفته . فأثرت فيهم بيئته . ولم تتجهم منها ثقافة عالية أو دراسة قويمة . لذلك دخل الشعر بعض الألفاظ العامية والتركية وغيرها . وتضمن أمثلة العوام وتعبيراتهم ، وحكم السوقة محبوكة فى قالب عربى فحسب ، وإن تعصت عليهم صياغتها فى العربية المعربة لم يتورع بعضهم عن إبقائها بصورتها العامية . وإليك بعض الأمثلة :

١ - قال نصير الدين الحمامى يتفكه :

رأيت شخصا آكلا كرشة(٦)   وهو أخو ذوق وفيه فطن   « كلمة عامية »
وقال : مازلت محبا لها   قلت: من الايمان حب الوطن!

(١) الحيزبون والدردبيس : العجوز (٢) الطخا : السحاب المرتفع (٣) النقاخ بضم النون : الماء البارد العذب (٤) العلطبيس : الأملس البراق (٥) العقنقل القدموس : الكثيب القديم (٦) كرشة : كلمة عامية وصوابها كرش بفتح الكاف وكسر الراء .

٢ — وقال الحسين بن يحي بن الجزاز يصف تركيا ويتفكه :

وكم قابلت تركيا بمـــدحى فكاد لما أحاول منه يختق
ويلطمنى إذا ما قلت: ألطـن ويرمقنى إذا ماقلت : يرمـق
وتسقـط حرمتى أبدا لديه فلو أنى عطست لقال: يشمق « كلمات تركية »

٣ — وقال ابن نباتة يشكو :

قل عونى على الزمان فأصبحـ ـت صبورا على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا س فلا من يدى ولا من لسانى « عبارة عامية »

٤ — وقال أيضا لرجل طلق زوجه « دنيا » وفيه تورية :

ظلمت دنيـاك وطلقتهــا فرحت لا دنيـا ولا آخرة « عبارة عامية »

٥ — وقال ابن الوردى من لاميته :

واهجر الخمرة إن كنت فتى(١) كيف يسعى فى جنون من عقل « عبارة عامية »

٦ — وقال أيضا يتغزل :

قلت : وقـــد عانقتــه عنـــدى من الصبح قلق
قال : وهـــل يحســـدنا قلت : نعم قال : انفلق(٢) « كلمة عامية »

٧ — وقال أيضا فى تاجر . وفيه تورية :

وتاجر شـاهدت عشــاقه والحرب فيما بينهم ســائر
قال : علام اقتتلوا هكذا قلت: على عينــك يا تاجر « مثل عامى »

ـ ومما يتصل بضعف الأسلوب اللجوء إلى الضرورات الشـــعرية والوقوع فى الخطـأ اللغـــوى والصرفى وإقحام كلمات القسم أو الدعاء أو بعض الحروف أو ظروف الزمان والمكان بلا حاجة إليها مما يعد حشوا لا غناء فيـه . وحذف بعض الكلمات أو الجمل الضرورية بلا مقتضى غـــير حب التلاعب بالقول ويسمى « الاكتفاء » . واســـتخدام الكثير من الكلمات

(١) هذا التركيب اعتبرناه عاميا لأنه بمعنى « إن كنت شهما » لا بمعني إن كنت فى زمن الفتوة . وهو مرادف للجملة العامية « إن كنت جدع » (٢) انفلق : هنا بمعنيين ، الأول عربى صحيح وهو انبلج . والثانى عامى معروف وهو دعاء .

الاصطلاحية وأشباهها إظهارا للقدرة على البديع فحسب . وتصغير الكلمات لضرورة الوزن . والتلاعب بالحروف بأي شكل . وهكذا فن ذلك .

١ — قال ابن نباتة يفخر :

ماكان في العشرين يهفو منطقي　　أيكون في الخمسين فعل هافي
شيم من السلف الذكي ورثتها　　لا في الصبا عيب علي ولا في　« كلمة محشوة »

٢ — قال شمس الدين الواعظ الواسطي من قصيدة يتغزل فيها : وفيها طباق ومراعاة نظير :

فلله ما أحلى قديم حديثكم　　وأطيب عندي من عشاي وغدوتي
عسى تسمح الأيام تجمع شملنا　　وترجع أوطاري ولذتي التي ..　« حذف الصلة »

٣ — وقال أيضا :

رعى الله ربعا كنتمو فيه جيرتي　　وعيشا تقضى معكمو يا أحبتي
وحيا زمانا كان يجمع بيننا　　ونحن جميعا في سرور ولذة
ولا غيرت أيدي الزمان منازلا　　نزلتم رباها يا أهيل مودتي　« تصغير كلمة »

٤ — وقال ابن الوردي ، وفيه هجاء وفكاهة :

لا تقصد القاضي إذا أدبرت　　دنياك واقصد من جواد كريم　« زيادة حرف »
كيف ترجي الرزق من عندمن　　يفتى بأن الفلس مال عظيم !

٥ — وقال البوصيري من قصيدة في نقد المستخدمين :

وقد ساومتهم حرفاً بحرف　　وكل اسم يخطوا منه سينا　« خطأ نحوي »

٦ — وقال ابن نباتة يمدح :

قاضي القضاة المليي　　تاج السراة الألبه　« خطأ صرفي »

٧ — وله أيضا :

أوحشه الغيث الذي قد نأى　　وجاءه ـ والله ـ في وقته　« زيادة قسم »

هـ ـ أكثر الشعراء من استخدام الحلية البديعية إكثاراً فاقوا به من عداهم من شعراء العصور الأخرى وأبدعوا فيها ماشاء لهم العطل أو تفاهة العمل أو حب التسلية . ولما لم تأخذهم أغراض الشعر وفنونه العالية الهامة أخذ

الجاد، ولما لم تكن لهم القدرة والهمة المتوثبتان على تجديد معانيه وتوليد أفكاره، نكصوا إلى أنواع البديع وانصرفوا إلى الحلية اللفظية انصرافا يظهرون به أثارة من فن أو تخرجا فى صناعة الزخرف الكلامى. ولعل ذلك الانصراف يعتبر من أسباب ضعف الشعر وركوده. إلا أنهم قد أتوا فى باب البديع بالرائع المعجب الأخاذ، مما يشهد لهم بذوق سليم وطبع قويم. حتى أصبحوا أهل البديع بلا منازع. وبهر البديع أهل العصر ودعا ذلك الشعراء إلى الاكثار منه. فكانت قصارى جهدهم أن يستخدم أو يضمن أو يوزى أو يطابق. ولم يقتصروا منه على نوع دون آخر. وإن كانوا أكثروا من الاستخدام والاقتباس والتوجيه والتضمين والتورية حتى عدوا مختصين بها.

قال مجير الدين بن تميم يعترف بحب التضمين وتعمده: وهو أحد شعراء هذا العصر بالشام.

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى!

وهذا الاعتراف يذكرنا بقول حسان بن ثابت الأنصارى فى إحدى قصائده التى أولها:

حى النضيرة ربة الخدر أسرت إليك ولم تكن تسرى
ومنها: لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعرى

وتأثر حسان بزهير قد بدا جلياً فى هذه القصيدة، وإن لم يكن على سبيل التضمين البديعى. فانظر الفارق بين الرجلين: بين أنفة حسان وصراحة ابن تميم.

هذا وقد شهد لشعراء هذا العصر بنبوغهم فى التورية ابن حجة الحموى صاحب «خزانة الأدب ونهاية الأرب» فى شرح بديعيته المشهورة. حيث قال: «هذا النوع وهو التورية ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب». وقال: «وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق

التورية وأطلعوا شموسها . ومزجوا بها الذوق لما أداروا كئوسها » . (١)

ومن أبياتهم البديعية :

١ ـ قال شمس الدين محمود الكوفى من قصيدة فى رثاء بغداد

إن لم تقرح أدمعى أجفانى ... من بعد بعدكمو فما أجفانى (٢) « جناس »

إنسان عينى منذ تناءت داركم ... ما راقه نظر إلى إنسان (٣) « جناس »

٢ ـ وقال ابن نباته :

وطابت بك الأرض التى أنت حلها ... « وكل مكان ينبت العز طيب (٤) » « تضمين »

٣ ـ وقال أيضاً :

وضعت سلاح الصبر عنه فاله ... يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله

وسال عذار فوق خديه جائر ... على مهجتى فليتق الله سائله (٥) « تورية وتضمين »

٤ ـ وقال الشاب الظريف فى الغزل :

ياساكنا قلبى المعنى ... وليس فيه سواك ثانى

لأى معنى كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان « توجيه »

٥ ـ وقال شهاب الدين محمود الحلبى :

وليلة زارت والثريا كأنها ... نظاما وحسنا عقدها وابتسامها

وحيت فأحيت ما أمات صدودها ... وردت فرد الروح فى سلامها « جناس وطباق »

٦ ـ وقالت عائشة الباعونية فى « جسر الشريعة » لما بناه الملك الظاهر برقوق : وقد أدركت هذه السيدة العصر العثمانى .

---

(١) راجع خزانة الأدب لابن حجة فى باب التورية ص ٣٤١ (٢) في البيت جناس تام بين أجفانى جمع جفن . وأجفانى من الجفاء (٣) في البيت جناس بين إنسان وهو عدسة العين وإنسان وهو شخص ما (٤) تضمين من بيت المتنبى الآتى :

وكل امرىء يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب

(٥) فى البيت تورية في كلمة « سائله » من سأل أو سال . وكذلك تضمين لجزء من بيت أبى تمام وهو : ولو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

بنى سلطاننا برقوق جسرا بأمر والأنام له مطيعة
مجاز فى الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة «تورية ومراعاة نظير»

٧ — وقال ابن نباته :

ومولع بفخاخ يمدها وشباك
قالت لى العين : ماذا يصيد قلت : كراكى(١) «تورية»

٨ — فأغار عليه صلاح الدين الصفدى وقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـ كرا كى غزال للبدور يحاكى
فقلت : ارجعى ياعين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى «تورية»

٩ — ولابن نباتة أيضا :

وبمهجتى رشأ يميس قوامه فكأنه نشوان من شفتيه
شغف العذار بخده ورآه قد نعست نواظره فدب عليه «تورية وحسن تعليل»

١٠ — فأغار عليه صلاح الدين الصفدى وقال :

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى تميل حمامات الأراك إليه
له عارض لما رأى الطرف ناعسا أتى خده سرا فدب عليه «حسن تعليل»

١١ — ومن قصيدة ابن نباتة فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام :

سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلّفه(٢) فى الرأس يزهو ويزهر «استخدام»
تغير ذاك اللون مع من أحبه «ومنذا الذى ياعز لا يتغير (٣)» «تضمين»

ى — وإن غرام الشعراء بالبديع وإغراقهم فى استعمال أنواعه أدى إلى ظهور البديعيات والمقطوعات .

---

(١) كراك : تصلح بمعنيين الأول الكرى والثانى جمع كركى وهو طائر (٢) الهاء فى خلفه تعود على بياض العيش ولكن بمعني بياض المشيب (٣) تضمين لبيت كثير : وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومنذا الذى ياعز لا يتغير .

١ – البديعيات(١) :

أما البديعات فهى قصائد طويلة فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام . وتنظم من بحر البسيط ، ويتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من البديع . وكثيراً ما يشير الشاعر إلى ذلك النوع فى نفس البيت الذى يتضمنه . ومنشأ هذه البديعات بردة البوصيرى وهى القصيدة العصماء التى مدح بها الرسول صلوات الله عليه . ومزج فيها بين المدح والحب والتصوف والحكمة ؛ وأولها :

أمن تذكر جيران بذى(٢) سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة(٣) وأومض البرق فى الظلماء من إضم(٤)

فكانت هذه البردة مصدر الوحى من بعده لشعراء البديعيات . أرادوا أن يحاكوا البوصيرى ويعارضوه بقصائد على نمطه . فاستحدثوا بذلك فى الأدب العربى هذا الفن الجديد المسمى « البديعيات » . وهم وإن لم يلحقوه فى جزالة اللفظ وجودة المعنى - لأنه كان مخلصا فى مدحه . أما هم فقد استهام البديع واستهوتهم الحلية فكانوا لفنهم مخلصين - نقول إنهم مع ذلك أضافوا إلى الأدب العربى وإلى علم البديع خاصة ثروة قيمة لا يستهان بها . وحسبك أن تعلم أن رجال البديعيات عدد وفير . وأن تعلم أنه ما من بديعية إلا تناولها النقاد والشراح . وأن تعلم أن إحدى البديعيات وهى بديعية ابن حجة قد شرحها صاحبها فى كتاب ضخم هو « خزانة الأدب ونهاية الأرب » وفيها أدب وعلم وتاريخ ونقد وشواهد ، وهى مرجع عام فى علم البديع وأدب المماليك .

وأول أصحاب البديعيات ومبتكرها أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسى الراحل إلى مصر والشام ؛ والمستوطن فى حلب . والمتوفى سنة ٧٨٠ هـ ؛ بالأندلس وهو رجل ضرير ولذلك عرفت بديعيته ببديعية العميان ؛ ومطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

---

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب : المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك .
(٢) ذو سلم : اسم جبل لطىء قرب المدينة . (٣) كاظمة : موضع قرب المدينة .
(٤) إضم : واد حول المدينة .

وأول من تبعه من شعراء المماليك صفى الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ وهما فى عصر واحد . وقد سمى بديعيته « الكفاية البديعية فى المدائح النبوية » ومطلعها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم   واقر السلام على عرب بذى سلم

وقد حذا حذو هذين الشاعرين شعراء سواهم فى هذا العصر ، نذكر منهم : عز الدين الموصلى بدمشق . وابن حجة الحموى . وابن المقرى . والسيوطى . والسيدة عائشة الباعونية . ولها بديعيتان ومن بديعية ابن حجه : (١)

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم	براعة تستهل الدمع فى العلم	(براعة استهلال)
بالله سربى فسربى طلقوا وطنى	وركبوا فى ضلوعى مطلق السقم	(جناس ملفق)
ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى	يسعى معى فسعى لكن أراق دمى	(جناس مركب ومطلق)
وذيل الهم همل الدمع لى فجرى	كلاحق الغيث حيث الأرض فى ضرم	(جناس مذيل)

ومن بديعية السيدة عائشة الباعونية : وهى - كما قالت فى شرحها - مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، قالت : (٢)

فى حسن مطلع أقمارى بذى سلم	أصبحت فى زمرة العشاق كالعلم	(حسن مطلع)
أقول والدمع جار جارح مقلى	والجار جار بعذل فيه متهم	(جناس مذيل وتام)
ياللهوى فى الهوى رُوح سمحت بها	ولم أجد رَوْح بشرى منهمو بهم	(جناس محرف)
وفى بكائى لحال حال من عدمى	لفقت صبرا فما أجدى لمنع دمى	(جناس ملفق)

وأعتقد أن القوم وصلوا بهذه البديعيات إلى قمة البديع علما وعملا ، فلم يعد بعدهم فيه نهج لغيرهم ولا ملتمس لسواهم ، إلا الاقتباس منهم والنسج على منوالهم .

٢ — المقطوعات

المقطوعات الشعرية قصائد قصيرة ذات بضعة أبيات . وإنما دعت إليها البطالة وفراغ اليد من العمل الجدى وضعف الهمة ، وحب التسلية السريعة ،

(١) راجع خزانة الأدب لابن حجة . (٢) نجد هذه البديعية وشرحها على هامش خزانة الأدب .

والعثور على ألفاظ يحسن فيها التشبيه أو الاستعارة ، أو تصلح للتورية أو التضمين أو الجناس أو غيرها من أنواع البديع .

فيسرع إليها الشاعر يقيدها قبل أن تشرد من ذهنه ، ليظهر بذلك مقدرته على صنع الزخرف اللفظى . وكثيراً ما ينساق الشاعر فى هذه الحالة إلى فكاهة مقبولة أو نكتة رائعة أو لغز علمى أو غير علمى ، يسرى بذلك عن نفسه وعن إخوانه ويُظهر لباقة وقدرة . وقد احتلت هذه الأغراض الشعرية مكانة كبيرة عند القوم ، حتى أصبحت إحدى غايات الأديب فى هذا العصر . ولذلك قل أن تجد من بينهم شاعراً لم ينظم العدد الكثير من المقطوعات الشعرية . فمنها :

١ - قال الشاب الظريف يتغزل : (١)

يحكى الغزال نظرة ولفتة — منذا رآه مرة ولا افتتن (جناس)
أحسن خلق الله وجها وفما — إن لم يكن أحق بالحسن فمن ؟ (جناس)
فى ثغره وشكله وخده — «الماء والخضرة والوجه الحسن» (تضمين ونشر ولف)

٢ - وله أيضاً :

وأهيف فاق الورد حسنا بوجنة — أنزه طرفى فى رياض جنانها
كأن بها من حول خالية جمرة — « تشب لمقرورين يصطليانها » (٢) (تضمين)

٣ - وله أيضاً :

من بين هجرك والنوى — قد ذبت فيك من الجوى
يا فاتنى بمعاطف — سجدت لها قضب اللوى
وحياة وجهك لا سلا — عنك المحب ولا نوى
ما أنت عندى والقضيب اللدن فى حد سوا
هذاك حركه الهوا — وأنت حركك الهوى (جناس)

---

(١) راجع ديوان الشاب الظريف ص ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ وتجد ترجمته في الجزء الثانى من فوات الوفيات ص ٢٦٣ (٢) تضمين لشطر من بيت الأعشى وهو :

تشب لمقرورين يصطليانها — وبات على النار الندى والمحلق

٤ - ولأبى الحسين الجزار المصرى فى زوجة أبيه : وفيه فكاهة (١)

تزوج الشيخ أبى زوجة   ليس لها عقل ولا ذهن

لو برزت صورتها فى الدجى   ماجسرت تنظرها الجن

كأنها فى فرشها رمسة   وشعرها من حولها قطن

وقائل قال : ماسنها   فقلت : مافى فمها سن !

٥ – ولصفى الدين الحلى قال يشكو ويتغزل (٢) :

شكوت إلى الحبيب أنين قلبى   إذا جن الظلام فقال : إنا (من الأنين)

فقلت له : أظنك غير راض   بما كابدت فيك فقال : إنا (نعم)

فقلت : أترتضى أن ناء قلبى   بأثقال الغرام فقال : إنا (حمل)

فقلت : فانكم لولاة أمر   على أهل الغرام فقال : إنا (إن واسمها)

٦ – ولأبى الحسين الجزار يصف داره المتهدمة . وفيه فكاهة (٣) :

ودار خراب بها قد نزلت   ولكن نزلت إلى السابعة

فلا فرق مابين أنى أكون   بها أو أكون على القارعة

تساورها هفوات النسيم   فتصغى بلا أذن سامعة

وأخشى بها أن أقيم الصلاة   فتسجد حيطانها الراكعة

إذا ماقرأت إذا زلزلت   خشيت بأن تقرأ الواقعة

٧ – ولسراج الدين الوراق يذكر الشيب (٤) :

وقالت ياسراج علاك شيب   فدع لجديده خلع العذار

فقلت لها : نهار بعد ليل !   فما يدعوك أنت إلى النفار ؟

فقالت : قد صدقت وما علمنا   بأضيع من سراج فى النهار ...

٨ – وله أيضا ملغزا فى سجادة إلى شهاب الدين محمود الحلبى :

ياإماما ألفاظه الغر فى الأسـ   ـماع تزرى بالدر فى الأسماط

---

(١) من الجزء الأول من فوات الوفيات لابن شاكر ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ وبها ترجمة هذا الشاعر (٢) عن الجزء الثانى من فوات الوفيات ص٣٦٢ (٣) عن المفصل ص٢٠٤ (٤) ترجمة الشاعر وشعره في الجزء الثانى من فوات الوفيات ص ١٣٥ .

وشهابا تجاوز الشهب قـــدراً ... فغدت عن علاه ذات انحطاط
أى أنثى وطئت منها حــــلالا ... مستبيحا مالا يبـــاح لواطى ؟
لم أحاول تقبيلها غـــير خمس ... حال زهدى فيها وحال اغتباطى!
وهى فى صـــورة خماسية ما ... فقهت لا ولا دنت للتواطى
وهى ممـــلوكة وعنـــد أناس ... هى ست على اختلاف التعاطى
ونصيب الإيمـــان يسعى إليها ... طالب الله وهـــو عبد خاطى
وأرى أن تحلهـــا بيمين ... ويسار فقـــد غدت فى رباط

٩ ــ وقال ابن الوردى يتفكه (١) :

بت وإبلـــيس أتى ... بحيـــلة منتـــدبـــة
فقـــال : مـــاقولك فى ... حشيشـــة منتخبـــة ؟
فقلت : لا . قـــال : ولا ... خمرة كرم مـــذهبة ؟
فقلت : لا . قال : ولا ... أمرد بالبـــدر اشتبه ؟
فقلت : لا . قال : ولا ... مـــليحـــة مطيبـــة ؟
فقلت : لا . قال : ولا ... آلة لهـــو مطربـــة ؟
فقلت : لا . قال : فقم ... ما أنت إلا حطبـــة ...

هـ ــ الزجـــل : قلنا إن بعض الشعراء لم يتورع عن أن يبقى العبارات والألفاظ العامية فى الشعر . وتغاضى عن الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية . وهنا تولد الزجل ـ وهو عبارة عن الشعر العامى . وليس الزجل من اختراع أهل هذا العصر ولكن سبقهم بـــه الأندلسيون ، ومن هناك انتقل إلى مصر والشام . وكما وجد الزجل عندملوك البربر سوقا نافقة ، وجد عند سلاطين المماليك كنفا رحبا . فشجـع أهله وتناولوا كثيرا من الأغراض الشعرية . وأكثروا من أوزانه ونوعوا فيه ماشاء لهم الفن والصنعة من تنويع . فكانت منه التواشيح والمواليا والدوبيت وكان وكان وغيرها وإمام زجالى مصر خلف الغبارى وإمام زجالى الشام أحمد بن عثمان الأمشاطى .

(١) لابن الوردى ديوان مطبوع مع غيره . وذلك عدا لاميته المشهورة .

واسمع بعض هذا الزجل :

١ – قال بعض الزجالة يصف حادثة وقعت لفيل الملك الناصر محمد بن قلاوون ، إذ انخسفت به قنطرة على الخليج المصرى (١) :

تعـا اسمعـوا يا ناس — اللى جـــره
الفيـل وقع يوم الاثنـين — فى القنطـــرة
لما أفلسوا غلمان الفيـل — راموا الجـزاف
خدوه وراحوا صوب بولاق — يجبـوا المطاف
رأوا شــويخ من أهل الله — ما فيه خــلاف
جويا خـدوا شاشو منـه — بالـزنطـــرة
دعا على الفيـل اتقنطر فى القنطرة

٢ – قال ابن الوردى من الدوبيت (٢) :

ما حمص قليـلة وأن طال عنـاد — حمص بلد قد فاق فى الحسن بلاد
تنبيك حروف حمص صدقا وسداد — إذ من سور القرآن حم وص

٣ - وقال شمس الدين الواعظ الواسطى من كان وكان : وهى طويلة فمنها (٣) :

دع عنك شرب الهليلج يامن فؤادى به حمى واترك ذنوبك أى من مايحمل التعذيب
أهـوال يوم القيـامة حدث عن البحر لاحرج أقل مافى التربـــة الطفل منه يشيب
القــبر قال نبيـك أول منـازل الآخرة من أول الدن دردى والله الأخير عجيب
من بالأمل يتمسّك مثل الذى يقبض الهوى ومن من الثلج يبتو لا يأمن التخريب

٤ - ومن الدوبيت قول بعضهم (٤) :

طرقت باب الخبا قالت : من الطارق — فقلت : مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من ثغـــرها بارق — رجعت حيران فى بحر أدمعى غارق

٥ – ومنه (٥) :

رمى أصاب صميم القلب زين الزين — وأصبحت مضنى قلق أخشى حلول البين
وكنت قبلو خلى لم أشك وشك البين — سـالم من العشق حتى صابنى بالعين

(١) كتاب المجمل ص ١٧٥ . (٢) عن ديوان ابن الوردى . (٣) نجد الشاعر وشعره وزجله بالجزء الثانى من فوات الوفيات ص٣٦٨ . (٤، ٥) عن مذكرات لأستاذى الإسكندرى . ولعلها منقولة عن تاريخ ابن إياس .

و — الموشحات والأوزان القصيرة :

ويظهر أن بعض الشعراء أحس ما تدلت إليه منزلة الشعر الأدبية والاجتماعية ، ورواج سوق الزجل . فأحب أن يتوسط بين الأمرين : الشعر العربى ذى القصائد الطويلة الطنانة ، والزجل . فحرر نفسه من قيد القافية الواحدة والوزن الواحد فى القصيدة الواحدة مبقيا على اللغة وألفاظها سليمة بعيدة عن العامية . ومن ثم تولدت الموشحات ، واختيرت الأوزان القصيرة . وكل ذلك ليسهل تذوقها أو التغنى بها ، فكان لذلك وقع لا بأس به . على أن الموشحات هى أيضا من صنع الأندلسيين . ويقال إنها من اختراع المشارقة . ومع هذا نقول أيضا إن الأندلسيين هم الذين عنوا بها وأكثروا منها ونوعوا فيها ، ومن هناك انتقلت إلى مصر والشام وغيرها .

ومن الأمثلة :-

١ — من توشيح للشاب الظريف (١) . يتغزل :

بدر عن الوصل فى الهوى عدلا　　مالى عنه إن جار أو عدلا
مذهب
مُتَرَّكُ اللحظ لفظه خنث　　إليه تصبو الحشا وتنبعث
أشكو إليه وليس يكترث
دعا فؤادى بأن يذوب فلا　　الموت - والله - من مقالى لا
أقرب

٢ - من توشيح لتقى الدين السروجى . يتغزل : (٢)

يالائمى فى الهوى كفانى　　فعد عن بعض ذا الملام
لم لا تلوم الذى جفانى　　وصد عن مقلتى المنام
. . .
هواه من أشكل المسائل　　كم حار فى وصفه فقيه
وفيه ما تنفع الوسائل　　أخشاه جهدى وأتقيه
وكم عتاب وكم رسائل　　أعدها حين ألتقيه

(١) من ديوانه ص ٨٦ (٢) . الشاعر وشعره فى الفوات جزء ١ ص ٢٨٢ .

يهتز من نشـوة الدنانِ كأنما لحظـه مـدام
وتعترى سكتة اللسانِ يعـود لا يفصح الـكلام

٣ ـ أما الأوزان القصيرة فليست هى الأخرى من بدع هذا العصر ، فلقد سبقهم بها العباسيون والأندلسيون وغيرهم . ولعلك واجد فى الشواهد السالفة بعضها . وإليك شاهدا من شعر الشاب الظريف فى الغزل . قال : (١)

كيـف يذوق عاشـق حـلاوة فى صـبره
فاعجب لنُـور زُهـره واعجب لنَـور زَهـره
ياعاشقـين حـاذروا من غـدره ومكـره
وطرفـه السـاحـر مذ شككتمـو فى أمـره

وقبل أن ننهى الكلام عن لفظ الشعر وأسلوبه ، لابد لنا من ملاحظة الفارق ، بين شعر أهل الشام ، وشعر أهل مصر . فقد كان الأول بوجه عام أجود لفظاً وأجزل أسلوبا من الثانى ، لقرب الشام من البادية ولغلبة العناصر العربيـة بها .

معانى الشعر :

أصبح من السهل علينا بعد الذى أوردناه فى لفظ الشعر وأسلوبه أن نستنبط الحال الذى وصلت إليه معانى الشعر . فلا شك أنها معانى أصبح الابتكار فيها نادراً ، والتجديد فيها قليلا ، وأصبحت معانى سهلة لا تحتاج من الذهن كداً ، ولا من الروية عملا ولا تدبرا ، فجلهـا معانى قديمة لان لفظها فبانت وأسفرت ، ورق التعبير عنهـا فوضحت مراميها ، وكثر تكرارها فاشتهرت فعرفت . ولا غرابة فقد جنت عليها أمور سبق أن ذكرناها منها : (١) قلة عوامل تشجيع الشعراء (٢) إغراق الشعراء فى العناية بالبديع (٣) نقص ثقافة الشعراء وانصرافهم إلى التافه من الأغراض وقناعتهم به . ولعل الأبيات الآتية وهى من نظم ابن الوردى خير شاهد على ما نقول . قال :

وأسرق ما استطعت من المعانى فإن فقت القديم حمدت سيرى

---

(١) عن ديوانه ص ٣٨ .

وإن ساويت من قبلي لحسبي مساواة القديم وذا لخيري
وإن كان القديم أتم معنى فذلك مبلغي ومطار طيري
فإن الدرهم المضروب باسمي أحب إليّ من دينار غيري ...

ويظهر أن شعر أهل الشام كان أكثر معاني وأجل أفكارا، لكثرة اختلاطهم بالفرنجة، بالحروب والمجاورة. هذا ولا يجوز أن نفهم مما تقدم في وصف الشعر لفظاً وأسلوباً ومعنى، أن العصر خلا من الشعر الجيد ذي اللفظ الجزل والمعنى العالي. وفي شعر ابن نباتة والبوصيري نماذج كثيرة منه، وسيرد عليك بعضها، فليس هنا مكانه اكتفاء بما سنذكر بعد.. وإنما حكمنا بما مر من الصفات لأنها الغالبة الكثيرة البدو والوجود في شعر هذا العصر.

اغراض الشعر :

لا بد أننا تبينا بعض أغراض الشعر فيما مر من الحديث. وإليكها صريحة واضحة :

ا ـ الرثاء. كما ورد على لسان ابن نباتة. ومنه رثاء الدول الزائلة كما ورد على لسان شمس الدين محمود الكوفي. فمن ذلك :

١ ـ من قصيدة لابن نباتة يرثي ولداً له مات صغيرا :

الله جارك إن دمعي جاري يا موحش الأوطان والأوطار
لما سكنت من التراب حديقة فاضت عليك العين بالأنهار
شتان ما حالي وحالك : أنت في غُرف الجِنان ومهجتي في النار

٢ ـ من قصيدة لشمس الدين الكوفي يرثي بغداد وأهلها :

إن لم تقرح أدمعي أجفاني من بعد بعدكمو فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم ما راقه نظر إلى إنسان
يا ليتني قدمت قبل فراقكم ولساعة التوديع لا أحياني

ب ـ الوصف. ويتناول مسائل شتى. كالصيد والخمر وكاساتها. وذلك من باب المحاكاة والتقليد غالباً، فقد كان أكثر الشعراء فقهاء ليس لهم في الصيد

ولا فى الخمر . وكوصف مدرسة فتحت وبناء شيد ، أو ركوب سلطان لكسر خليج أو غيره ، وكوصف الأشياء التافهة كالسجادة والمرأة العجوز والدار المتهدمة وقد مر أمثلة لهذا . وكوصف بعض حالات الشعب مع نقد طائفة المستخدمين وأهل المناصب . وقد ورد بعضه على لسان البوصيرى وابن الوردى وغيرهما . وكوصف مظاهر الطبيعة المختلفة من بساتين ضاحكة باسقة وأزاهير يانعة وأغصان مُتوَّجة وطيور غردة وغيرها . ومن الحق أن نقول إن الشاميين فى هذا الباب - وأعنى مظاهر الطبيعة - كانوا أكثر شعراً وأبدع قولا وأرق حديثاً من المصريين . وما ذاك إلا لكثرة هذه المظاهر واختلافها فى بلادهم . فمن حر لافح إلى برد قارس . ومن جبال متوجة بالجليد مليئة بالأنهار الثلجية إلى سفوح وسهول واسعة وارفة الظل طيبة الثمر . ومن رمال بباطن الصحراء إلى شواطىء قرب الماء . وفى كل هذه الأماكن هم يعيشون ويتنقلون ، فكان لذلك أثره فى شعرهم . وكثيراً ماحل وصف الطبيعة فى صدر القصيد ، كما فعل صفى الدين الحلى حين مدح السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وجل الوصف كان حسياً لا نفسياً تحليلياً . وقد مرت أمثلة كثيرة لذلك . ومنها :

١ - من قصيدة « مصائد الشوارد » لابن نباتة ، يصف غلمان الملك واستعدادهم للصيد بالأقواس ، بوادى حماة . قال :

لما دنا زمان رمى البندق	سرنا على وجه السرور المشرق
فى عصبة عادلة فى الحكم	وغلمة مثل بدور التم
من كل مبعوث إلى الأطيار	تظله غمامة الغبار
وكلِّ معسول الشباب أغيد	منعطف عطف القضيب الأملد
قد حمد القوم به عُقبى السفر	عند اقتران القوس منه بالقمر
لولا حذار القوس فى يديه	لغنّت الوُرق على عطفيه
فى كفه محنية الأوصال	قاطعة الأعمار كالهلال
زهراء خضراء الإهاب معجبة	مما ثوت بين الرياض المعشبة

٢ — لبدر الدين الذهبي فى وصف حمامة ، وهو من الشعر الجيد (١) :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة ... بالواديين فنبهت أشواقي
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن ... يعقوب والألحان عن إسحق
قامت تطارحني الغرام جهالة ... من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أنى تباريني جوى وصبابة ... وكآبة وأسى وفيض مآقي ؟
وأنا الذى أملي الجوى من خاطرى ... وهى التى تملى من الأوراق ...

ح - الغـــزل : وهو من الأغراض الشعرية الدائمة . وقد أكثر منه شعراء هذا العصر . وكثيراً ما نظموه ممزوجا بشكوى الدل والصد والوجد . ويلاحظ أنه كان بالمذكر ، ولعل ذلك تقليد ومحاكاة لمن سبق . أعان الشعراء عليه جودةُ البديع فيه . أو لعله روعى أنه غزل « بشخص » فعومل معاملة المذكر . مع أن « الشخص » قد يطلق على الأنثى . يقول الشاعر :

وكان مجنى دون ما كنت أتقى ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

هـذا إذا لم يكن فى الشعر ما يعيّن المذكر بالذات - نقول ذلك لأن أغلب الشعراء - كما مر - فقهاء وقضاة . وربما كان الغزل بالمذكر صادراً عن رغبة فيه صحيحة . والله سبحانه أعلم ! وقد كان الغزل يحتل صدر قصيد المديح على سنن القدامى . ومن الشعراء من أفرد له المطولات المستقلة أو المقطوعات . ومن ذلك :-

١ — قال الشاب الظريف (١) :

نمت بما تحنو عليه ضلوعه ... أسقامه وشجونه ودموعه
جلبت نواظره لمهجته أسى ... وجوى يذوب ببعضه مجموعه
مُغْرًى بوسنان اللحاظ وإنما ... فى حبه هجر المحب هجوعه
أبدى محياه وأسبل شعره ... والبدر يحسن فى الظلام طلوعه
للطرف فيه سنى وفيه بارق ... هـذا وذاك بروقه ويروعه

٢ — وله أيضا :

يـــارب قـــد علقتـــه ... لدن المعاطف أهيفـــا
والـــنرجس الغض الذى ... فـــي ناظـــريه تألفـــا

(١) عن المنهل جزء ٢ ص ٢٠٢ .

هو مُضعَف لكن بكسـ ـر العين أصبح مُضعِفا
إن كان أذنب بالصدو د فإن صبرى قد عفا

٣ – وله أيضا ؛ ويُتَغَنَّى به فى عصرنا . من قصيدة :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عشاق
قد كان يخفى الحب لولا دمعك الـ ـجارى ولولا قلبك الخفاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى فى حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزعن فلست أول مغرم فتكت به الوجنات والأحداق

٤ – ولابن الوردى فى صدر قصيدة يمدح بها شهاب الدين بن فضل الله العمرى(١) :

أ أقتل بين جدك والمزاح بنبل جفونك المرضى الصحاح ؟
يكدرنى نواك وأنت صاف ويسكرنى هواك وأنت صاحى
وأبكى للغرام وأنت لاه وأعذر فى الأوام وأنت لاحى
فما لسراح دمعى من إسار وما لإسار وجدى من سراح
وما لصباح وجهك من مساء وما لمساء شعرك من صباح
رضاك إلى رضابك لى دليل أليس كلاهما روحى وراحى
ولى لحظ يطير إليك شوقا فها قد طار مبلول الجناح

ء – الشكوى : وما أجدرها أن تكون طابع شعراء هذا العصر . !!
الذى أنكر أدبهم وأخذت فيه الأيام بتلابيبهم . وجدت بهم ، ونأت عما كانوا يرجون من نعيم . وظهرت الشكوى على لسان الكثير منهم . وفى مقدمتهم ابن نباته والبوصيرى وابن الوردى وغيرهم . واختلط بالشكوى وصف الزمان وغدره وصرفه وذم أهله ، ووصف الشيب وبياضه واشتعاله وندب حظ الأديب . وغير ذلك من الأوصاف . ومن الشكوى ما يأتى :

١ – قال ابن نباتة :

من يحارب حوادث الدهر يخفى لون فوديه (٢) فى غبار الحروب

(١) راجع ديوان ابن الوردى . (٢) الفود . جانب الرأس .

من يمم فى بحـــار همى يظهر زبد فوق فرعـــه الغربيب (١)
أى فرع جَون عـــلى عنت الأيام يبقى وأى غصن رطيب
لو همى ماء مَعْطِفىّ من الليــــن لأفنته مهــجتي بلهيب

٢ ـ وقال أيضاً :

فكفى من وضــوح حالى أنى فى زمانى هـــذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضـــلى ضيعة السـيف فى يد شلاء

٣ ـ وللبوصيرى من قصيدة طريفة شكا بها حاله إلى أحد الوزراء . قال :

إليك نشــكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسرة
فى قلة نحن ولكن لنا عائلة (٢) فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عبرة

٤ ـ ولابن الوردي :

أشكو إلى الله زمانى الذى صرت إليه وتحيرت فيه
أى امرىء جربت من أهله يظهر منه كل أمر كريه
كم حاسد كم مارد كم عدى كم عائب كم مبغض كم سفيه
فليفعل الحاسد فى دهره ما شاء لا بد وأن يلتقيه
ما بين أعدائى وبينى سوى أن بهم جهلا وأنى فقيه

هـ ـ الفخر . وإنما دعا الشعراء إليه ما أصابهم به الزمان من نسيان وحرمان . فكأنهم أرادوا أن يذكروه بفضلهم . أليسوا أدباء شعراء فقهاء علماء ؟ ذوى عقول راجحة ونفوس متوثبة ونسب عريق ؟ بهـــذا افتخروا ومنهم ابن نباتة وابن الوردى فمن فخرهما :

١ ـ قول ابن نباتة . وهو من الشعر الجيد :

من مبلغ العرب عن شعرى ودولته أن ابن عباد باق وابن زيدو

---

(١) الغربيب والجون : الأسود القاتم . (٢) العائلة : استعملت تجوزا بمعنى الأسرة . والأسرة أفضل منها .

حبّرتها فيه زهراء المعاطف من ... أعلى وأنفس ما يهدى المجيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعته ... فقد رأت مقلتاك البحر والنونا
كأن ألفاظها فى سمع حسّدها ... كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

٢ - ولابن الوردى من قصيدة :

أيها الحاسد لولا أننى ... رجل من دون حدى أقف
كنت أضنيك فخاراً وعلىّ ... وأنا الدر وأنت الصدف
ولى الفقه الذى فقت به ... ووجوه النحو نحوى تصرف
ولى النظم الذى سارت إلى ... سائر الأقطار منه التحف
ولى النثر الذى سجعاته ... تسكر الأسماع فهى القرقف (١)
وإلى الأبكار ذهنى سابق ... وقوى الأفكار عندى تضعف
وإمام الأدبيّات وإن ... أُنكر الحق فلى يعترف
كم وكم شمس جدال طلعت ... فى سماء البحث لى تنكسف

و - المدح . وهو من الأغراض الشعرية العامة . وقد قلت فيه المعانى الجديدة الجيدة . ومدح الشعراء السلاطين والوزراء والقضاة ومن إليهم . ولعل أكثر مدحهم زائف لم يصدر عن عقيدة أو إيمان . ولعلنا نلمح هذا المعنى فى بيت ابن الوردى حيث يقول :

أين الكرام وأين أهل مدائحى ... غير النبى وآله الأطهار .

وكثيرا ماقدموه بالغزل أو وصف مظاهر الطبيعة أو وصف الحروب وفرسانها وعددها . ومنه :

١ - قال الشاب الظريف يمدح ابن عبد الظاهر . من قصيدة . وهو من الشعر الجيد :

ومعشر لم تزل للحرب بيضهمو (٢) ... حمر الخدود وما من شأنها الخجل
إذا انتضوها بروقا صيرت سحبا ... يسيل من جانبيها عارض هطل

---

(١) القرقف : الخمر (٢) البيض : السيوف . وهى حمراء من الدماء . - وفى البيت التالى يشبهها بالبروق فى اللمعان ، وبالسحب في غزارة ما يتساقط منها .

يثنى حديث الوغى أعطافهم طربا ... كأن ذكر المنايا بينهم غزل
كم نار حرب بهم شبت وهم سُحُب ... وأرض قوم بهم فاضت وهم شُعُل
ضاءت بحسنهمو تلك الخيام كما ... ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول
أغر ما أبدت السحب الحيا لسوى ... تقصيرها عن نداه حين ينهمل
توحى إلى كل قرطاس بلاغته ... سحر البيان ومن أقلامه الرسل

٢ ـ ومن قصيدة لابن الوردى يمدح ابن فضل الله .

ولست سوى ابن فضل الله أعنى ... شهاب الدين ذى الغرر الملاح
له قلم بفضل الله يحيا ... لنا يحيى به بعد انتزاح
فما أدرى أنقشا فوق طرس ... يطرز أم مساء فى صباح
أشد من القضاء قضاء أمر ... وأجرى فى الخطوب من الرياح

ر ـ مدح النبى عليه السلام . هو فرع من الغرض السابق وأعنى « المدح» وإنما أفردناه بالذكر لبروزه فى هذا العصر بروزاً جعل له وجوداً مستقلا وأثراً فى الأدب . وكان مخلوطاً بإظهار الحب للنبى الكريم عليه السلام والحنين إلى دياره مع بعض التصوف والحكمة . ولعل سبب انتشاره فى هذا العصر خاصة :

١ـ ما كان فيه القوم من سوء حال . وذلك يؤدى إلى ذكر النبى والاستعانة به . ٢ ـ حب البديع وإظهار القدرة عليه . ٣ ـ أن أكثر الشعراء من الفقهاء . فلعلهم حسبوا عيبا عليهم ألا يتمدحوا بالنبى ويتواجدوا بذكره عليه السلام . ٤ ـ ذيوع روح التصوف حتى لقد كانت له مدارس وشيوخ خاصة به . ٥ ـ تقليد الأندلسين . فهذا الفن ظهر فى ديارهم زمن ملوك الطوائف ، ومنها سرى إلى المشرق . هذا وقد سبق لنا كلام فى هذا الباب عند البديعيات ، فارجع إليه ـ والمدائح النبوية اتخذت وسيلة إلى البديعيات غير أنها لم تكن مقصورة عليها . ومقدم الشعراء فى هذا الباب الإمام البوصيرى وله قصيدتان شائقتان . مطلع الأولى وهى البردة .

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ومطلع الثانية وهى الهمزية :

كيـــف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ماطـــاولتها سمـــاء

وقد اتبعه من بعده شعراء البديعيات وغيرهم. وتقدمت نماذج لها وإليك واحدا ، من قصيدة لابن نباتة . وهى من الشعر الجيد :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضا تتسعـــر

ومنها فى مدح النبى عليه السلام :

نبى أتم الله صـــورة فخره وآدم فى فخاره يتصـــور
تنقل نورا بين أصلاب سادة فلله منه فى سما الفضـــل نير
به أيد الطهر الخليـــلى فانتحت يداه على الأصنام تغزو وتكسر

ح ـ التصوف والحكمة والزهد والعظة . ذاع التصوف كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ولعله مأثور عن عصر الأيوبيين . ولما جنح بعض الشعراء إليه وجد على لسانهم شعر الزهد والحكمة والعظة . وفى مقدمتهم ابن الوردى ولاميته مشهورة . ومنها أبيات كثيرة سائرة . ومنها :

اعتزل ذكر الأغانى والغـزل وقل الفصل وجانب من هـزل
ودع الذكر لأيام الصـــبا فلأيام الصـــبا نجم أفـــل
، اطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخـــير على أهل الكسل
، واترك الدنيا فمـــن عاداتها تخفض العالى وتعلى من سفل
، لا تقل أصلى وفصـــلى أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصـــل

ط ـ البديع : وأى غرابة فى أن نعتبر البديع أحد أغراض الشعر فى هذا العصر ؟ لقد نظم كثير من الشعراء شعرهم لالشىء إلا لإظهار المقـــدرة على البديع ، ولكى يثبتوا أنهم من رجاله . ألم ينظموا البديعيات حبا فى البديع أولا ؟ ألم تحل لهم المقطوعات لأنهم اتفق لهم نوع بديعى فضـــمنوه مقطوعة ؟ إذن كان البديع غرضاً شعريا لهم وقد سبقت نماذج له كثيرة .

ه ـ الفكاهة والنكتة والمجون والألغاز : وهذه بعض أغراض الشعر أيضاً . دعا إليها ـ كما أشرنا آنفا ـ البطالة الاضطرارية وفراغ اليد من العمل الجدى والمنصبِ السامى الذى يليق بالأديب . ومن ثَم التراسل بالشعر فى المناسبات لتهنئة ، أو سؤال عن مريض ، أو شكوى حال ، أو لعتاب ، أو غير ذلك . فوجدت هذا الأغراض قطعاً للوقت وتمرينا للقريحة وجلباً للتسلية . ومن الحق أن نذكر هذه الأغراض على أنها من أهم ما طبع عليه الشعب المصرى عامة منذ تلك العصور التى ذاق فيها الأمَرَّين فأحب أن يسرى عن نفسه . ويفرج من كربه وينقد بلا مؤاخذة . فاصطنع الفكاهة والنكتة من ذلك العهد حتى اليوم . وكان الشعراء حينئذ خير ترجمان لشعبهم فيها . وقد أسلفنا الكثير من الشواهد لذلك . فارجع إليها .

د ـ نظم العلوم والفنون: اخترعه ـ كما قيل ـ أبان بن عبد الحميد اللاحقى فى العصر العباسى . ولكن الأندلسيين أصحاب الفضل فى اصطناعه والإكثار منه . ومن ثم انتقل من بلادهم إلى مصر والشام . أو انتقل رجاله إليهما بأنفسهم . ومنهم ابن مالك ناظم الألفية فى النحو ، والشاطبى ناظم الشاطبية فى القراءات . ومن الأمثلة : (علامات الاسم والفعل من الألفية) :

بالجر والتنوين والندا وأل ... ومسند للاسم تمييز حصل

بتا فعلت وأتت ويا افعلى ... ونون أقبلن فعل ينجلى

قبل أن تتم الكلام فى الشعر نقول : إنه حقا مثّل الشعب المصرى فى نواحى كثيرة . ولكنه غفل عن وصف الحالات الاجتماعية بما فيها من فتن واضطراب ، والحالات النفسية بما فيها من هواجس وخواطر كانت لابد كثيرة فى هذا العصر . ولعل عذر الشعراء فى ذلك أن هذه الهواجس والخواطر كانت مكتّمة فكتموها هم أيضاً . ولكن كان فى مقدورهم أن ينفثوا الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى . وأن يصفوا أمراض الشعب وصفاً أدق وأبلغ . وأن يصفوا لهذه الأمراض علاجا . ولكن ماذا نقول وقد قصر فى هذا الميدان العلماء أيضا ؟

فلا غضاضة إذن على الشعراء !

الشعراء . وجد فى عصر المماليك عدد جم من الشعراء مصريين وشاميين وغيرهم . وكثيراً ما كانوا يترحلون بين مصر والشام (١) .

فمن شعراء مصر . أبو الحسين الجزار المصرى (٦٧٩ هـ) الشاب الظريف (٦٨٨ هـ) محيى الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢هـ) تقى الدين السروجى (٦٩٣ هـ) سراج الدين الوراق (٦٩٥هـ) ، البوصيرى (٦٩٥هـ) ، نصير الدين الحمامى (٧١٢هـ) شمس الدين بن العفيف (٧١٥ هـ) ، شمس الدين الواعظ الواسطى (٧٤٤ هـ) جمال الدين بن نباتة (٧٦٨ هـ) ، القيراطى (٧٨١ هـ) ، وابن أبى حجلة صاحب ديوان الصبابة (٧٧١ هـ)

ومن شعراء الشام : بدر الدين يوسف الذهبى ، (٦٨٠ هـ) مجير الدين ابن تميم (٦٨١ هـ) ، ابن حجة الحموى (٨٣٧ هـ) زين الدين عمر بن الوردى (٧٤٩ هـ) ، صلاح الدين الصفدى (٧٦٤ هـ) . وغير هؤلاء وهؤلاء كثير . ومنهم شمس الدين الكوفى ، والسراج المجان الحلبى ، وابن النقيب ،والوداعى (٧١٦ هـ) وعبد العزيز الأنصارى الحموى .

نماذج للشعر : حسبنا من النماذج ما مر من الشواهد . على أننا سنترجم لثلاثة من هؤلاء الشعراء . وفيما سنورده من شعرهم الكفاية .

الكتابة الفنية فى عصر المماليك ونماذج منها

أغراضها : للكتابة الفنية فى هذا العصر من الأغراض الكثير ، ومنها :

١ — تدبيج الرسائل والمنشورات والأوامر والولايات السلطانية . وكلها تصدر عن ديوان الانشاء وصاحبه وكتابه . وفى صبح الأعشى جمهرة كبيرة منها : كذلك فى كتب التراجم .

نموذج لذلك : من كتاب كتبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر إلى صاحب

(١) تجد تراجم كثير من هؤلاء في الوفيات . وفى الفوات . وفى حسن المحاضرة وفي الوافي بالوفيات . وفي خزانة الأدب لابن حجة . وفي تاريخ ابن إياس .

اليمن عن السلطان الملك المنصور قلاوون مبشراً بفتح صافيتا (١) :

« فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون . وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون . وغدا جاذبا بضبع (٢) الشام وآخذ بمخانق بلاد الإسلام . وشللا فى يد البلاد . وشجا فى صدر العباد . تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة . وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام ، وتُفوَّق من قسيّه سهام تصمى مفوقات السهام . تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون . ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شكت منه حماة (٣) قلة الإنصاف . وكم خافته معرة وما من معرة خاف » إلخ .

٢ — إنشاء الرسائل الإخوانية وما فى معناها فى المناسبات الشخصية ، كتهنئة وتعزية واعتذار وطلب حاجة . وهى كثيرة فما من أديب فى هذا العصر إلا له ديوان رسائل . كرسائل ابن الوردى . وابن عبد الظاهر . وابن فضل الله العمرى . وغيرهم .

نموذج لذلك: لابن الوردى من رسالة يطلب تحقيق رجاء (٤) :

أرسلتها - إليك وجعلت طولها عرضا بين يديك . والله تعالى يبقى حياتك التى فيها لأهل العلم النصيب الأوفى والحظ الأوفر . ويديم أياديك التى إذا دامت فما نقص الفضل ولا مات يحيى ولا نضب جعفر (٥) وغير بدع أن يعضد أمينُ هذه الأمة عمرَه . والمرجو أن يجتنى المملوك من غصن القلم بهذه الورقة ثمرة » .

٣ — تدبيج المقامات الأدبية الوصفية المعتمدة على الخيال فى نعت الناس وأحوالهم وديارهم وما حل بها على نحو ما كان يكتب الحريرى . وذلك كمقامات ابن الوردى .

---

(١) القطعة عن المنتخب ص ٤٦١ . (٢) الضبع : ماتحت الإبط . (٣) حماة ومعرة : بلدان بالشام . (٤) عن ديوان ابن الوردي (٥) الجعفر : النهير . وفى الكلام تورية بأسماء البرامكة .

نموذج لذلك : لابن الوردى من المقامة الصوفية قال (١) .

« حكى إنسان . من معرة النعمان . قال : سافرت إلى القدس الشريف . سفرَ مُنَكَّر بعد التعريف . فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرمضا . وقال : حكمت على الوادى الذى تروع حصاه حالية العذارى ، فقلنا: دام الحكم والإمضا . وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر . ويقول ماؤها : أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر . فرويت كبدصاد من تلك العين . ولكن تُنغص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين . » إلى آخرها .

٤ – تزويق الفصول والمقالات لوصف بعض الأشياء مثل : السماء وزينتها ؛ الشمس والقمر ، البحر ، النهر ، الأثمار ، الأشجار ، الطيور ، الوحوش ، الشمعة ، أو الكتابة والبلاغة أو حادث مطر ، أو إصابة عامة بمرض ما . ولعل ما نراه اليوم فى دروس الإنشاء فى معاهد التعليم من عناية بمثل هذه الموضوعات بقية مما ترك عهد المماليك ! وقد أكثر كتاب الشام فى الكتابة فى هذا النوع .ومنهم ابن الوردى وابن حبيب الحلبى فى كتابه « نسيم الصبا » . وشهاب الدين محمود الحلبى .

نموذج لذلك : من كتاب « نسيم الصبا » لابن حبيب الحلبى (٧٧٩ هـ) من فصل فى الشمعة والنار :

« جلست مع بعض الأصحاب . فى ليلة حالكة الجلباب . ماؤها جامد . وهواؤها بارد . وطلها متناثر . والماشى بها فى ذيله عاثر . نجرى ذكر أهل البراعة . ونعد مناقب فرسان أهل البراعة . ونورد أخبار أرباب اللسن . ونروى عنهم كل حديث حسن :

قوم بهم شرف الزمان كلامهم ... شرك النفوس وعُقلة الأحداق
أشخاصهم صرفت ولكن ذكرهم ... أبداً على مر الليالى باق

(١) عن ديوان ابن الوردي .

فبينما نحن نجول فى ميدان المحاضرة . ونحقق النظر فى وجوهها الناضرة. والليل قد روق . وشراب المنادمة مروق . لمحت فى المجلس شمعة . وقفت فى الخدمة . وأجرت الدمعة . جسمها نحيل . ومحياها جميل . قامتها قويمة . ودرة تاجها يتيمة . تحرقها أنفاسها . ويوبقها نبراسها . كاسية عارية . تخجل بضوئها الجارية

مفتـــولة مجـــدولة تحكى لنا قـــد الأسل
كأنهـــا عمـــر الفتى والنـــار فيها كالأجل

أو نبل نصله ذهب . أو حيـــة لسانها لهب . أو وردة على قضيب . أو محب أسهره بُعد الحبيب . ، إلى آخر ماقال :

٥ - الموازنات والمفاخرات بـــين شيئين : كالصيف والشتاء ، والربيع والخريف ، والسيف والقلم وفى « نسيم الصبا » بعضها . وممن كتب فيها ابن نباتة وابن الوردى وغيرهما .

نمـــوذج لذلك : كتب ابن نباتة ، من مفاخرة بين السيف والقلم ، قال القلم :

« أتفاخرنى وأنا للوصل . وأنت للقطع . وأنا للعطاء وأنت للمنع . وأنا للصلح وأنت للضراب . وأنا للعمارة وأنت للخراب . أعلى مثـــلى يشق القول . ويرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ! »

٦ - كتابة القصص الخيالية كقصة عنـــترة وأبى زيد الهلالى . ومن أهم ماظهر منها « ألف ليلة وليلة » وهو معروف متداول . وكتاب « طيف الخيال » لمؤلفه ابن دانيال الموصلى (٧١٠) هـ وهو كتاب هزلى وُصفت فيـــه لعبة « خيال الظل » أو المسمى عند العوام « الكراكوز » . والأول يصلح بدايـــة للحكايات القصصية «المسرودة» . والثانى يصلح بداية للحكايات التمثيلية . ويظهر أنه لما فيها من مجون كثير وخيالات حسية مُبالغ . فيها ، لم يعن الأدباء من بعد بالنسج على منوالهما . فتأخر وجود القصة الأدبية والتمثيلية فى الأدب العربى إلى اليوم ، ويظهر أيضا أن الأوربيين انتفعوا بهما ، وكانتا معينا للقصة فى أدبهم . وربما

كانت لعبة خيال الظل ، هى التي أوحت إليهم بفكرة الصور المتحركة « الخيالة » المعروفة فى الفرنجية « بالسينما » . وهذه القصص وأشباهها وليدة العصور الماضية . وظهرت فى أتم صورها فى عصر المماليك .

نموذج من كتاب ألف ليلة وليلة : قطعة من حكاية السندباد فى الجزء الثالث .

« قالت : بلغنى أنه كان فى زمن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد بمدينة بغداد ، رجل يقال له : السندباد الحمال ، وكان رجلا فقير الحال ، يحمل بأجرته على رأسه فاتفق له أنه حمل فى يوم من الأيام حملة ثقيلة ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتعب من تلك الحملة ، وعرق واشتد عليه الحر ، فمر على باب رجل أمامه كنس ورش . وهناك هواء معتدل ، وكان بجانب الباب مصطبة عريضة . فحط الحمال حملته على تلك المصطبة ليستريح ويشم الهواء . . » إلى آخر القصة .

٧ - شرح بعض الرسائل الأدبية أو القصائد الهامة ، وذلك ككتاب « سرح العيون » فى شرح رسالة ابن زيدون » لابن نباتة وككتاب « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى فى شرح بديعيته .

نموذج لذلك : من « كتاب سرح العيون » . قال المؤلف ابن نباتة : من كلام يشرح قول ابن زيدون : « أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله » - قال:

« أيها المصاب » : « اسم لمن نزلت به نائبة مصيبة . وأصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ، فالمصيبة أصلها فى الرمية ، ثم اختص بالنائبة ، « بعقله » : العقل : المعرفة المستعملة فى تحرى النفع وتجنب الضرر ، ولأهل اللغة المتكلمين فى اشتقاقه ومعناه أقوال كثيرة ، قيل : اشتق من عقل الناقة ، إذا شُدَّ وظيفها مع ذراعها بحبل يمنعها من الشراد ، فكأنه يمنع الإنسان مما يميل إليه من الهوى . . » ، إلى آخر ما قال .

٨ - النقد الأدبى للشعر والنثر مع إيراد وجهة النظر مدعمة بالحجج والشواهد . وخير مثال ذلك «خزانة الأدب » للحموى المتقدم ذكره . ويلاحظ أن البديع كان الميزان الذى يزن به النقاد نتاج الأدباء . فكان لذلك أثره فى

توجيه الكتاب نحو البديع. لجنى النقد والبديع معا على الكتابة والشعر.

نموذج لذلك : من كتاب « خزانة الأدب » لابن حجة. قال فى باب براعة الاستهلال :

« وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال ، حسن الابتداء. وفى هذه التسمية تنبيه على تحسين المطلع. وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشىء من حسن الابتداء. وأورد فى هذا الباب قول النابغة :

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أميمةَ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطىء الكواكب

قال زكى الدين بن أبى الإصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار ، فإنى أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرىء القيس حيث قال :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فرأى ابتداء امرىء القيس على تقدمه وكثرة معانيه متفاوت القسمين جداً. لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعانى. وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك. وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل من جهة ملائمة ألفاظه وتناسب قسميه. وإن كان مطلع امرىء القيس أكثر معانى. وما عظم ابتداء امرىء القيس فى النفوس إلا الاقتصار على سماع صدر البيت ، فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت. وإذا تأمل الناقد البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين ».

١ - الإجازات العلمية. وهى أشبه بالشهادات المدرسية فى عصرنا. وكانت تصدر من الشيخ لأحد تلاميذه ، يشهد له بأنه أتم قراءة كتاب ما مثلا.

نموذج لذلك : من إجازة لابن الوردى. قال :

« قد قرأ عليّ فلان ذو الذهن الوقاد. والفكر المنقاد. المهاجر فى تحصيل العلم لأوطانه. النازح فى طلب الحديث عن أهله وإخوانه. جميع كتابى المنظوم فى الفتاوى. الموسوم ببهجة الحاوى. وجميع أرجوزتى الموسومة بالبهجة الوردية فى علم العربية. وبحث عليّ من الكتابين مواضع كثيرة. وتنبه لمعان عزيزة غزيرة. فبلغ من ريا البهجة وشذا شرحها سولا. وزاد البهجة بهجة فتلوت : وللآخرة

خير لك من الأولى . وما أحق من وقف لتحصيل العلم وهو نضو سفر . أن يكتب من النفر العاملين بقوله سبحانه : فلولا نفر . مع ما سمع منى من منثور طيب الشذا . ومنظوم يعدله المنصف من جنس بئس إلى فصل حبذا » .

ملحوظـــة : الأغراض التسعة السالفة هى أغراض الكتابة الأدبية .

---

١٠ - تأدية حاجة العلوم فى تدوين الكتب والمؤلفات فى تاريخ وسير أبطال وتراجم وتقويم وغير ذلك . وهذه هى الكتابة العلمية .

نمـــاذج لذلك :

ا - من فصل فى صناعة الفلاحة من مقدمة ابن خلدون :

« هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب . بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعهـا . وعلاج نباتها ، وتعهـــده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه . وإحكام الأعمـــال لذلك . وتحصيل أسبابه ودواعيه . وهى أقدم الصنائع » الخ .

ب - من خطبة كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندى :

« وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضـائع وأنفعهـا . وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأغلاها . لا سيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانهـا . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا تعول فى المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها . ويقربون كتابها . لخليفها أبداً خليق بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تسر مجـــانيها إذا ما جنى الظما وتروى مجاريها إذا بخل القطر »

إلى آخر ما قال .

حـ - قال المقريزى تحت عنوان « الطبلخانة تحت القلعة » فى خططه الجزء الثالث صفحة ٣٤٦ :

« وهذه الطبلخانة الموجودة الآن تحت القلعة ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها . فلما

كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة هدمها الناصر محمد بن قلاوون وبناها . هذه الطبلخانة الموجودة الآن تحت قلعة الجبل فيما بين باب السلسلة وبين باب المدرج . وصار ينزل إلى عمارتها كل قليل » .

أسلوب الكتابة ومعانيها :

١ ـ أعتقد أن أسلوب الكتابة هذا العصر فى مصر والشام قد وضح لنا وضوحا جلياً بعد أن أوردنا أغراضها ونماذج لهذه الأغراض . وأصبح غير صعب علينا أن نستجلى أمامنا الصورة التى انطبع على غرارها .

٢ ـ تنقسم الكتابة إلى نوعين : أدبية وعلمية . أما الأدبية فهى التى تناولت الأغراض التسعة الأولى ويغلب عليها الخيال . أما العلمية فهى التى تناولت الغرض العاشر . وتعتمد على الحقائق فتصفها وصفاً لا مبالغة فيه ولا خيال .

٣ ـ وقد اتبع فى أسلوب الكتابة الأدبية الطريقة الفاضلية . وسبق لنا شرحها . وهى التى تعني بالحلية البديعية . وتجعلها أساساً لها ، وبخاصة التضمين والتورية ومراعاة النظير والتوجيه والجناس . والتقيد بالسجع ، وإطالة العبارات، وتكلف التشبيه والاستعارة . واستخدام مأثور الشعر والنثر والأحاديث والآيات القرآنية على سبيل التضمين أو الاقتباس . حتى سمى ابن خلدون هذا الكلام « الشعر المنثور » .

٤ ـ وتزعم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر هذه الطريقة الفاضلية فى أول عهد المماليك ، وتعصب لها ، وسار على نهجه مَنْ بعده من الكتاب . فهو مجددها الثانى . وقد زادوا فيها بديعاً ، وأغرقوا فيها إغراقا نأى بها كثيراً عن محجة الصواب ، وبعد بها عن الأدب اللباب . وبدت وفى وجهها كثير من الكلف . وبين طياتها وضح التعسف . فقلت جدواها وتضاءل النفع بها . وما ذلك إلا لأن العناية باللفظ جنت على العناية بالمعنى فصرفتها عنه . فأصيب إما بالخفاء تحت استعارة متكلفة أو تشبيه متعسف فيه أو تورية مصطنعة . وإما بالتفاهة والحطة والتكرار ، لقلة ما تختزنه العقول منه . وأوضح ما يتراءى لنا ذلك فى الرسائل إخوانية وسلطانية . وفى أعمال الدواوين من منشورات وولايات وتوقيعات ،

وغيرها إلا القليل منها مما ترسل فيه كاتبوه . أما السجع فكان الشارة والعلامة للكتابة الأدبية ، فكأنما اقترض الكتاب ومعهم نقادهم أن الكتابة غير المسجوعة وغير المحلاة كتابة غير أدبية ، وغير جديرة بأن تصل بكتابها إلى صف الأدباء والكاتبين الكرام ، وتراءى أيضاً هذا الأسلوب فى كتب الأدب بصفة عامة وفى المقامات والمقالات والرسائل الأدبية ذات الفصول ، وفى المفاخرات . ولذلك كان محصولها قليلا وتتاجها ضئيلا ، حتى كتاب ابن حجة الحموى « خزانة الأدب » والذى شرح فيه بديعيته كان أجدر به أن يرسل الكلام فيه إرسالا لأنه ـ على ما به من أدب ـ كتاب علم ، شرح فيه علم البديع بأنواعه شرحاً وافياً شافيا ، ولكنه اصطنع أسلوب القاضى الفاضل أيضا من العناية بالبديع وإن لم يلتزم السجع كثيراً . فكأنه أراد أن يكون بديعيا شعراً ونثرا وتأليفا ! فتكلف الاستعارة والتشبيه وغيرهما .

هـ ـ ومما زاد فى هذا العصر : (١) استعمال أنواع بديعية جديدة تفننوا فيها كالجناس الملفق والمذيل وغيرهما . (٢) تقديم المقدمات الطويلة بين يدى الفصول الأدبية وأشباهها ، وعدم الكتابة مباشرة فى الموضوع كما رأينا فى وصف الشمعة والنار . (٣) إنشاء مصطلحات ديوانية جديدة وتجديد ألقاب التعظيم ، والتفخيم ، والأدعية ، فى صدر الرسائل . وقصر كل طائفة منها على طائفة معينة من الناس ، على نحو ما كان متبعا فى العصر الأيوبى ، وللقاضى محيى الدين ابن عبد الظاهر وولده القاضى فتح الدين محمد ـ ممن ولى ديوان الإنشاء ـ أكبر الفضل . فى هذا الإنشاء والتجديد .

فمن الألقاب: للخليفة : الديوان العزيز ، المقام الأشرف ، الجانب الأعلى .

« « : للملوك : المقام العالى ، المقر العالى .

« « : لغيرهم من ذوى المناصب : المجلس السامى . الحضرة السامية . وهكذا .

ومن الأدعية للخليفة : خلد الله ديوان السلطان العزيز المولوى السيدى النبوى .

« « للملوك : أعز الله أنصار المقر العالى الكريمى الأشرفى . لغيرهم من الأمراء والرؤساء : أدام الله أيام المجلس السامى الأميرى الأجلي ، وللقضاة : أعز الله أحكام المجلس العالى القاضوى الكبيرى العالمى العاملى الأكملى الأوحدى ،

٤ - نلاحظ من نماذج الألقاب والأدعية زيادة ياء النسب على الوصف « الأميرىّ القاضوىّ » ، وذلك مبالغة فى التعظيم . وتحذف هذه الياء عند عدم إرادة المبالغة . (٥) إدخال كثير من الكلمات العامية والتركية واستعمال أساليب العوام وتراكيبهم وأمثلتهم . وأوضح مايبدو ذلك فى القصص الوصفية ، كألف ليلة وليلة ، وطيف الخيال وغيرهما .

و - أما الكتابة العلمية وأعنى بها لغة العلوم وتدوينها فنلاحظ فيها مايأتى :

١ - أنها لم تكن كتابة علمية خالصة من نزعة الأدب . بمعنى أنها لم تسلم من الكتابة الأدبية ، وتعنى كل العناية بالتحقيق والتدقيق العلمى ، وتصف الحقائق والمعلومات وصفاً علميا محضا بعيدا عن الخيال والأسلوب الأدبى . كأنما أراد كل عالم مؤلف أن يثبت للناس شخصيته الأدبية فى سياق جهوده العلمية . فكان هذا هو السر فى أن نرى بعض كتب العلوم ، وبخاصة كتب التاريخ والتراجم والموسوعات تبدو فيها الروح الأدبية . وخصوصا أن علماء العصر كانوا أيضا أدباء .

٢ - لم يتقيد المؤلفون بالأسلوب البديعى الذى قهر كتّاب هذا العصر فى الكتابة الأدبية . بل أطلقوا العنان لأقلامهم . فترسلت ونثرت الكلام دون سجع أو جناس أو غيره من أنواع البديع . إلا ماسنح عرضا دون تكلف أو تعسف . وقد أحسنوا بذلك كل الإحسان إذ لم يضيفوا إلى الصعوبة العلمية وجفاف حقائق العلم صعوبة الأسلوب بإقامة أحجار البديع فيه ، وتكلف الاستعارة والتشبيه . وسواء أكانت طبيعة البحث العلمى أو إطالة الحديث أو خيفة فوات الزمن ، قهرتهم على إرسال الكلام إرسالا . أم هم الذين عادوا إليه ، ونكصوا عن أسلوب البديع نقول : سواء أكان هذا أم ذاك ، فقد أحسنوا كل الإحسان بهذا الترسل .

٣ - على أن اتجاههم الأسلوب المرسل لم يخل من شائبة . فقد سرت إليهم عدوى البديع وخاصة السجع فيما يأتى : ١ - عناوين الكتب ، فقد التزموا فيها السجع ، حتى ابن خلدون نفسه الذى نعى على كتاب البديع بديعهم ، لم يسلم منه فى عنوان كتاب تاريخه ؛ ولعله أطول عنوان لكتاب . فقد سماه : « العبر ،

وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وغيره كتاب « وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان » لابن خلكان . وكتاب « صبح الأعشى فى كتابة الإنشا » للقلقشندى وكثير غيرها .

ب ـ الخطبة التى يقدم بها الكتاب ـ وقد سبق لنا بعض من خطبة كتاب صبح الأعشى . حـ ـ بعض الفصول وبخاصة فى كتب التراجم . وقد ذكر صاحب « فوات الوفيات » عن الشاب الظريف قال : قال القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى حقه : « نسيم سرى . ونعيم جرى . وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى . لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرىء من العيوب . راق شعره فكاد أن يشرب . ورق فلا غرو ا للقضب أن ترقص ، والحمام أن يطرب » .

٤ ـ افتتاح الكتب بخطب طويلة يبين فيها الدافع إلى تأليفها وموضوعها ، والجهود التى بذلت فيها . ولا تخلو هذه الخطب من نقد ما : وقد تقدم أنها خطب مسجوعة ، وربما حلت محلها التقاريظ .

٥ ـ بعض الكتب كان الحديث فيها مجرد سرد هبط بها إلى الأحاديث العادية بين الناس ، ولعل أقرب الأمثال لذلك « خطط المقريزى » . وقد تتخلله الكلمات والعبارات العامية . بل قيل إن بعض الكلمات ألقيت بالعامية ترويجاً لها وتيسيراً للناس . ولكن شرها لم يستطر ونهجها لم يتبع .

ز ـ بين الكتابة والشعر : بعد دراستهما المتقدمة نقول إن الشعر يفضل الكتابة فى هذا العصر . لأنه لم يذهب به اللجاج البديعى كما ذهب بالكتابة فكان له من قيود الوزن والقافية ما أمسك به بعض الإمساك عن التدنى إلى تلك الهوة التى تدنت إليها الكتابة ، فكان له بعض الرونق والحسن ، والجودة والرواء . أما الكتابة فقد سخفت وتفهت معانيها ، وحقا للكتابة أن تفخر الشعر بشيئين : الأول : تلك المنزلة العالية التى بلغها الكتاب كتاب الرسائل والدواوين بكفايتهم الأدبية . والثانى : المحصول العلمى القيم الذى أنتجته الكتابة العلمية . ولكن الشعر يقول : إنه مع تلك الظروف السعيدة التى أتيحت للكتابة بنوعيها ولم تتحها له حاجة العصر إلى الكتابة دونه ، قد أدى رسالته وحفظ على نفسه

طرفا من الرونق وجانبا من الجودة والبلاغة لم تُرزقهما الكتابة . . .

ح ـ شهادة ابن خلدون فى كتابة هـــذا العصر . قال فى مقدمته :

« وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدى الأغراض . وصار هـــذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه لم يفترقا إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات الســـلطانية . وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه . وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه خصوصا أهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ، لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاَطب والمخاطِب . وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليبَ الشعر، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعة . وخلطَ الجـــد بالهزل . والإطنابَ فى الأوصاف وضرب الأمثال . وكثرةَ التشبيهات والاستعارات ، حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب ، والتزامَ التقفية أيضا . وجلالُ الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافى ذلك ويباينه . والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل . وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا فى القليل النادر . وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له . ثم إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو استعارة . وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى على أساليب الشعر فمذموم . وما حمل عليه أهلَ العصر إلا استيلاء العجز على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة وانفساح خطوه ، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومطابقة الحال فيه . ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك . وأكثر

من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم : كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف ، إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدَعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس ، فتأمل ذلك بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه ، والله الموفق للصواب بمنه كرمه والله تعالى أعلم » .

ديوان الانشاء

حق علينا أن نعرج على ديوان الانشاء فنقف أمامه وقفة يسيرة ، ونحن بصدد الكلام عن الكتابة . فقد كان له أثر أيما أثر فى نباهة شأن الكتابة ورفع منزلة الكتاب . فبه يترقى الكاتب الأديب حتى يصل إلى رئاسة الديوان . وهى منصب كان ضروريا فى الدولة لحاجتها إلى كتاب كرام يكتبون رسائل السلطان وولاياته وتوقيعاته ومنشوراته وقصصه وأوامره . ولئن كانت الحاجة ماسة إليه فى العصر الفاطمى والأيوبى فهى فى عصر المماليك أمس ، لمكان سلاطينها من العجمة ، واضطرارهم إلى مخاطبة العرب من رعايا وأمراء وملوك ، وإلى ضبط أمور المال والقضاء باللغة العربية ، لذلك نبُه أمر الديوان فى عصرهم ، وتسمى صاحبه كاتبَ السر . وأول من تسمى بذلك فتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر ، الذى برع أباه فى حياته ، وكان كاتبُ السر - كوزير الخارجية فى زماننا - مستشاراً للسلطان فى أمور الدولة الخارجية بل والداخلية . وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ردودها ، وقد يوقع القصص عن السلطان ، ويعاونه كتاب الدَّست وكتاب الدَّرج ، والأولون يقرءون القصص على السلطان فى دار العدل ويوقعون عليها بأمره ، والآخرون يكتبون الولايات والمكاتبات الداخلية .

أشهر الكتاب فى عصر المماليك : لا بدع أن نبغ فى هذا العصر عدد كبير من الكتاب وتلقب الكثير منهم بالقاضى ، ونعتبر من سبق ذكرهم من العلماء ، والمؤلفين كابن خلكان والقلقشندى ، من أهل الكتابة العلمية . أما كتاب

الرسائل والدواين فنهم محيى الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢ ﻫ) وشهاب الدين ابن فضل الله العُمرى (٧٤٩ ﻫ) وشهاب الدين محمود الحلبى (٧١٩ ﻫ) وتاج الدين ابن الأثير (٦٧١ ﻫ) وناصر الدين محمد بن البارزى (٨٢٣ﻫ) والقلقشندى (٨٢١ ﻫ) وعلاء الدين بن فضل الله العُمرى ومكث نحو ٣٠ سنة كاتب سر للديار المصرية (٧٦٩ ﻫ) وفتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر (ولد سنة ٦٣٨ ﻫ ولعله توفى سنة ٦٩١ قبل والده) ، راجع حسن المحاضرة للسيوطى .

لغـــة التخاطب

نعتقد أننا فهمنا مما سـلف الحالة التى كانت عليها لغة التخاطب فى مصر والشام ، منذ عصر الفاطميين إلى نهاية عصر المماليك ، وقد كانت هى العـامية العربية التى ذهبت حركات إعرابها ، وأصاب التحريف بعض ألفاظها ، ودخلتها الكلمات والأساليب الأجنبية . وقـد زاد ذلك فى عصر المماليك لكثرة من وجد من الترك والجركس وغيرهم فى البلاد ، فكثرت الألفاظ وطرق الاداء التركية وبعض الكلمات الفارسية وغيرها فى لغة التخاطب . واتسـع أفق اللغة العامية لأنها أقرب إلى أن يفهمها المماليك من اللغـة العربية الفصحى بألفاظها الغريبة وتراكيبها الجزلة الفخمة ! فشجعوها وعملوا على رواجها بتقريب الزجالين وأضرابهم إليهم . فعظم شأن العامية حتى كادت تكون لغة أدب وكتابة وتدوين وتأليف ، ولكن الله سلم . وبقيت العربية الفصيحة لغة الدواوين والقضاء ، والسياسـة والعلم والأدب ، وإن لم تكن لغة التخاطب . حتى حلت اللغـة التركية محلها فى «الرسميات» ، فى العصر العثمانى . ومن نماذج الزجل تفهم حال العامية زمن المماليك .

الخطابـــة

لم تتعرض تماما فى كل ماسبق إلى ذكر الخطابة وحالها . وما ذلك إلا لأنها منذ أواسط العصر العباسى إلى عهد الفاطميين والأيوبيين ثم عهد المماليك ، لم

تكن أحد مظاهر الأدب الرائعة . لأنها إنما تذكو فى أيام الثورات العامة والتقلبات السياسية الشعبية . ولم يكن ثم شىء منها . ولأنها إنما تقوى ويشتد ساعدها عند ملوك من العرب أو من الأعاجم يفهمون العربية ويستجيبون نداءها كما يستجيب العرب . ولم يكن ثم أحد منهم . فقد طم خطر الأتراك والفرس والأكراد والتتار وعم . فأزالوا دول العرب ، وحلوا محلهم فيها فى كل ناحية تقريبا وتعصبوا للغاتهم ، إلا أنهم كانوا مسلمين . ومن لم يكن مسلما من قبلُ فقد أسلم من بعدُ طلبا للعزة وسعيا وراء تثبيت الملك . فلم يكن بد إذن من إقامة مظاهر الإسلام . فكان منها خطب الأعياد والجمع . إذن كانت الخطابة العربية الفصيحة فى عصر الفاطميين تبدو فى الخطب الدينية فى الأعياد والجمع . وربما بدت أيضا فى بعض المناظرات والاحتفالات التى كانوا يقيمونها . كذلك كان شأنها عند الأيوبيين . وربما بدت أيضا فى بعض الخطب التى ألقيت تحميسا للجيوش وإثارة للناس على الصليبين . ولكن كانت تتخللها العامية . أما فى عصر المماليك فلم يكن للخطابة مظهر إلا خطب الجمع والأعياد وتلاوة المنشورات والأوامر السلطانية .

التعريف ببعض رجال عصر المماليك

١ - محيى الدين بن عبد الظاهر (١) ٦٢٠ هـ - ٦٩٢ هـ

هو الكاتب الشاعر والعالم المؤلف عبد الله بن عبد الظاهر المصرى ولد فى المحرم سنة اثنتين وتسعين وستمائة . تثقف ثقافة جمع فيها بين العلم والأدب . ونبغ فى الكتابة والشعر ، حتى قيل : إنه كان زعيم الكتاب والشعراء فى حياته . ولقد خدم بديوان الإنشاء بمصر نحو عشرين عاما وبلغ منصب رئاسته . فكان

(١) ترجمته في فوات الوفيات جزء ١ ص ٢٧١ ، الدرر الكامنة جزء ٣ ، طبقات الحفاظ (راجع جورجى زيدان جزء ٣ ص ١٥٤) وفى المفصل جزء ٢ ص ٢٥١ والوسيط ص ٢٩٦ ، وحسن المحاضرة جزء ١ ص ٢٧٣

وزيرا مسموع الكلمة عظيم الجاه . يتملقه الكتاب ويتقرب إليه الشعراء . وقد كتب للظاهر بيبرس . والمنصور قلاوون . والأشرف صلاح الدين خليل .

كتابته : عرف بالكتابة واشتهر بها . ولعل مرجع ذلك طول عهده بديوان الإنشاء والكتابة فيه . وقد نهج فى أسلوبه نهج القاضى الفاضل . بل يعد محيى الدين زعيم المتعصبين للطريقة الفاضلية فى أول عصر المماليك ، وهى الطريقة التى أساسها العناية بالبديع وإدخال الحلية اللفظية ، وبخاصة التورية والتضمين والتوجيه والجناس والطباق والاستخدام والتزام السجع وطول العبارة وتكلف التشبيه والاستعارة ، كل ذلك مع حل الشعر والنثر المأثورين وإدخال الآيات والأحاديث .

وقد أغرق فيها ابن عبد الظاهر ، ووضع كثيرا من مصطلحات الدواوين وألقاب التفخيم والتعظيم والأدعية ، مما ظل مرعيا طول عهد المماليك . فله الفضل فى ذلك . وقد شاركه فيه ابنه فتح الدين الذى كان كاتب السر للديار المصرية زمنا طويلا ، وأولَ من تسمى بهذا الاسم .

شعره : قيل كان زعيما للشعراء فى حياته ! ونعتقد أن زعامته تلك مستمدة من منصبه فى ديوان الإنشاء ، فإن بعض الشعراء كالشاب الظريف مثلا ، يعتبر أجود منه شعرا ، هذا ، وشعره المروى قليل ، متوسط الجودة ، مكرر المعنى ، دخله البديع وبدت فيه التورية والتضمين وغيرهما ، و تعرف فيه نضرة النعيم ، ومسحة الترف .

مؤلفاته : (١) شعره (٢) رسائله الديوانية التى كتبها على لسان السلاطين . ورسائله الإخوانية (٣) كتاب « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » فى التاريخ والتقويم والأدب . وهو سفر قيم ولكنه مفقود . والمقريزى استعان به فى تأليف خططه .

نموذج من كتابته :

١ — أوردنا له جزءاً من رسالة عند الكلام عن أغراض الكتابة ، فارجع إليه .

٢ — من كتاب له إلى الأمير شمس الدين أقسنقر جوابا عن كتاب كتبه يبشر بفتح النوبة : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة . أدام الله نعمة المجلس ولا زالت عزائمه مرهوبة . وغنائمه مجلوبة ومحبوبة . وخطاه هذه تكفى النوب وهذه تكف النوبة . ولا برحت وطأته على الكفار مشتدة . وآماله لإهلاك الأعداء كرماحه ممتدة . ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التى يرى فيها الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . » إلى آخر ما كتب .

٣ — وله من رسالة :

« حرس الله نعمة مولاى . ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف . ومنادى جوده لا يرخم . وأحمد عيشه لا ينصرف . ولا عدم مستوصل الرزق - من يراعته التى لا تقف - الوصل . ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود . ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . وما خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد . ولا عدوه لا بلام الجحود » .

نموذج من شعره :

١ - كتب إلى ولده فتح الدين :

إن شئت تنظرنى وتنظر حالتى ... قابل إذاهب النسيم قبولا
تلقاه مثلى رقة ولطافة ... ولأجل قلبك لا أقول : عليلا
فهو الرسول إليك منى ليتنى ... كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

٢ ـ فى الحمامة :

نسب النـــاس للحمامة حزنا ... وأراها فى الحزن ليست هنالك
خضبت كفهـا وطوقت الجيــ ... ـــد وغنت وما الحزين كذلك

٣ ـ وقال فى الشبابة :

وناطقة بالروح عن أمر ربهـا ... تعبر عما عنــدنا وتترجم
سكتنا وقالت للنفوس فأطربت ... فنحن سكوت والهوا يتكلم ...

ب ـ أبو العباس شهاب الدين القلقشندى (١) ٧٥٦ هـ - ٨٢١ هـ

هو أبو العباس شـــهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشـــندى . ولد بقلقشندة بجوار قليوب ســـنة ٧٥٦ ، وتلقى العلوم العربية والشرعية بالأزهر الشريف . وعرف بالذكاء والجد فى التحصيل . وشغف بالكتابة ونبـــغ فيها وأولع بها . حتى عدها أشرف الصـــناعات . واستخدم بسبب نبوغه فيهـا فى ديوان الإنشـاء بمصر سنة ٧٩١ هـ ، وبقى فيه زمنا فى عهد الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج . فكان يكتب رسائل السلطان وتوقيعاته ويظهر أنه أقام زمنا كبيراً به فاتصل بكثير من رؤساء الدولة . واستعان بهم على قضاء حوائجه . ثم توفى بالقاهرة سنة ٨٢١ هـ .

كتابته : اتبع القلقشندى الطريقة الفاضلية فى رســـائله السلطانية والإخوانية . فكان ملتزما السجع مصطنعا أنواع البديع الأخرى من طبـاق ومقابلة وتضمين وتورية وجناس وغير ذلك . فكان لذلك يبدو بعض التكلف فى كتابته . وقد نبذ هذه الطريقة فى مؤلفاته العلمية كصبح الأعشى ، فكان فيهـا كاتبا مترسلا لم يتقيد بقيود البديع . إلا أن هذا لم يمنعـــه انتهاج الطريقة الفاضلية فى خطبة الكتاب وفى بعض فصوله .

آثاره الأدبية ومؤلفاته كثيرة ومنها :

١ ـ توقيعاته ورسائله السلطانية والإخوانية .

---

(١) ترجمته فى كتاب شذرات الذهب . وفي صدر كتابه : قلائد الجمان ـ (راجع جورجي زيدان جزء ٣ ص ١٣٣) .

٢ - له مؤلفات منها : « صبح الأعشى فى كتابة الإنشاء » ، « وضوء الصبح المسفر » وهو مختصر صبح الأعشى ، « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » ، « قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » .

كتاب صبح الأعشى : أهم مؤلفات القلقشندى وأبقى أثر أدبى على له . ولهذا نورد عنه نبذة يسيرة : فهو مؤلف ضخم فى أكثر من عشرين مجلدا رتبه القلقشندى على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . وفى كل منها أبواب وفصول . وقد تكلم فيه عن الكتابة وصناعتها وأنواعها وأطوارها فى كل مصر وعصر . وما يتصل بها من كتابة خطية وأدوات كتابية ، كالدواة والقلم والقرطاس والكتاب وأحوالهم وأوصافهم ومنازلهم . وما يجب أن يتحلوا به من خلق وعلم وفضل . كل ذلك بأمثلته وشواهده . وقد يستطرد إلى ذكر حوادث أدبية أو ترجمة أديب أو غير ذلك . والكتاب يعتبر فريدا فى بابه . قد استوعب كل مايحتاج إليه الباحث فى موضوعه . وقد سبقه بالكتابة فى هذا الباب كتابان : « التعريف بالمصطلح الشريف » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العُمرى « وتثقيف التعريف » للمقر التقوى بن ناظر الجيش ، وهما أقل منه نفعا فى بابه ، وقد اعتمد عليهما القلقشندى فى تأليف كتابه .

نماذج من كتابته :

١ - أوردنا له نموذجا فى أغراض الكتابة فعد إليه .

٢ - من رسالة عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس يصف موقعة قال :

« وتحركنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها حصر ، ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر ، ولم نزل نحث السير ، ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير . حتى وافينا دمشق المحروسة ، فنزلنا بظاهرها منتمطرين النصر فى أوائل حركتنا وآخرها . وانضم إلينا من عساكر الشام وعربانها وتركمانها الزائدة على العد ، ما لا ينقطع له مدد ، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد » .

شعره ونمـــوذج منـــه :

للقلقشندى شعر ، ولـكنا لانستطيع عده فى الشعراء وذلك :

١ - لندرة شعره ٢ - ولاشتغاله الدائم بالـكتابة ٣ - ولأن شعره أشبه بمنطق الفقهاء وأبعد عن خيال الشعراء . هذا . وقد سلك فيه مسلك البديع . وكان يسوقه فى المناسبات الشخصية كتهنئة أو شكر أو شكوى ومنه :

كتب إلى شيخ الإسلام جمال الدين البلقينى راجيا :

لقـــد عم نوء منك كل مـــؤمل ... وحاشا لبرق شمت يظهر خلبـــا
أأحرم معـــروفا له كنت أرتجى ... ويحجب ذو بُعـــد من القوم أقربا
وما زلت أرجو فى زمانك رفعـة ... ولـكن جواد الحظ بالبعـد قد كبا
ولن يستعيض الخفض بالرفع ماجد ... خصوصا ومن أخرت ما نال مطلبا

هـ - جلال الدين السيوطى (١) : ٨٤٩هـ - ٩١١هـ

علم من أعلام مصر ونابغ من نبغائهـا وأحد هواة التأليف . ولد بأسيوط فى مستهل رجب ٨٤٩هـ من أبوين مصريين ، إلا أن نسب أبيه يتصل بأصل فارسى . ونسب أمه يمتزج بالجنس التركى . أما اسمه فعبد الرحمن بن الكمال أبى بكر . وقد مات والده وسـنه خمس سنين وسبعة أشهر . وقد ترجم السيوطى لنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة » ويفهم من هذه الترجمة ما يأتى :

١ - أنه حفظ القرآن الكريم وسنه دون ثمانى سـنين . ثم حفظ العمدة ، ومنهاج الفقه والأصـــول والألفية . ثم تابع الانـكباب على العلم . ووفد على القاهرة وتتلمذ لـكثير من الشيوخ . وقد عدهم أكثر من مائة وخمسين شيخا .

٢ - لم تقف جهوده عنـــد طلب العلم بل رحل وسافر إلى كثير من البلاد ، تكميلا لثقافته وعلمه . فوفد على بلاد الشـام والحجاز واليمن والهنـــد والمغرب والتـكرور « بلاد النيجر » .

---

(١) كتب لنفسه ترجمة في حسن المحاضرة بالجزء الأول ص ١٥٥ .

٣ ـ أنه زاول التأليف وسنه سبع عشرة سنة . وهى سن مبكرة . فدل بذلك على حذقه ومهارته . وبرهن على ثقته بنفسه وشجاعته وجرأته . وقلما نجد هذه الميزة فى مؤلف سواه . وقد بدأ بشرح الاستعاذة والبسملة . ثم تابع التأليف حتى أربت مؤلفاته على الثلثمائة فى علوم وفنون شتى .

٤ ـ أنه تصدر للإفتاء وهو فى سن الثانية والعشرين . وأملى الحديث وهو فى سن الثالثة والعشرين .

٥ ـ أنه نبغ فى كثير من علوم الدين واللغة وألف فيها . وقد قال فى ترجمته : « ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير . والحديث . والفقه والنحو . والمعانى والبيان . والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ولم يقف عليه أحد من أشياخى ، فضلا عمن هو دونهم . وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه . بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعا . ودون هذه السبعة فى المعرفة أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف . ودونها الإنشاء والترسل . والفرائض والقراءات ، ولم آخذها عن شيخ . ودونها الطب . أما علم الحساب فهو أعسر شىء علىّ ، وأبعده عن ذهنى . وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به ، فكأنما أحاول جبلا أحمله ! وقد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . أقول تحدثا بنعمة الله تعالى لا لأفخر . وأى شىء فى الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر . وقد أزف الرحيل . وبدا المشيب . وذهب أطيب العمر . ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولى وبقوتى » .

هذا ونحن نعجب لكلمة السيوطى تلك لأمور :

١ ـ أنه لم يذكر بين العلوم التى تبحر فيها التاريخ وفقه اللغة . مع أن

له فيهما مؤلفات عظيمة القيمة منها « حسن المحاضرة » ، الذى ترجم لنفسه فيه . وهو من أثمن الكتب فى تاريخ مصر والقاهرة . ومنها « المزهر » وهو من أثمن الكتب فى فقه اللغة وفنونها . ولعله ألفه بعد كتابة ترجمته .

٢ ـ أنه اعتبر نفسه فى الإنشاء أقل قدرة منه فى العلوم الأخرى : السبعة وغيرها ! ونحن نقول : إن رجلا مثل السيوطى ألف نحو ثلثمائة كتاب ، فى علوم عربية وشرعية ، يعتبر ولا شك فى مقدمة أهل الإنشاء وأقدرهم . وخصوصا إذا قيس بكتاب عصره .

مؤلفاته :

السيوطى مؤلف مكثار . ذكر فى ترجمته أنه ألف نحو ثلثمائة كتاب . وأحصى له غيره أكثر من ذلك . وهذه المؤلفات ـ وإن يكن كثير منها صغير الحجم ـ بينها الضخم العظيم القيمة الجليل النفع . وقد ذكرها السيوطى فى ترجمته وإليك بعضها :

١ ـ فى التاريخ والأدب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » . وهو جزءان . يحتوى كل منهما على أبواب هامة وأخبار طريفة عن مصر . ومثل ذلك بيان عدد المرات التى ذكرت مصر فيها فى القرآن الكريم والحديث الشريف . ومن دخلها من الصحابة . ومن حكمها من الأمراء من عهد عمرو بن العاص إلى الفاطميين والأيوبيين والمماليك إلى عهده . وفى الكتاب تراجم سريعة لكثير من نبغاء مصر من فقهاء ، وعلماء وكتاب وشعراء . وكثير من القصص والأخبار الأدبية والتاريخية . ويؤخذ عليه تدوين بعض الخرافات فيه .

٢ ـ فى التفسير : « الإتقان فى علوم القرآن » ، « تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلي » المسمى بالجلالين .

٣ ـ فى الحديث : « كشف المغطى فى شرح الموطا » .

٤ ـ فى النحو : والصرف « البهجة المضية فى شرح الألفية » . « همع الهوامع على جمع الجوامع » ، « الأشباه والنظائر » .

٥ - فى فقه اللغة وفنونها : « المزهر » .

كتابته :

يعتبر السيوطى من أبرز كتاب هذا العصر . وأكثر نثره من الكتابة العلمية التى لا تتقيد بقيود بديعية ، ويغلب عليها السرد ، وخاصة فى كتب التاريخ . وله بعض فصول من الكتابة الأدبية ، حذا فيها حذو كتاب عصره من استخدام البديع ، كما يظهر البديع أيضا والتزام السجع فى خطب كُتبه .

شعره :

للسيوطى شعر نَثَره فى ثنايا مؤلفاته أكثره فى باب الرثاء . ولا نستطيع أن نرقى به بسبب هذا الشعر إلى مصاف الشعراء . فحسبنا أن نقول إنه قال شعرا ، وإن شعره تبدو عليه سمة العلم والكلفة .

نماذج من نثره .

١ - أوردنا له قطعة من ترجمته لنفسه أولها « ورزقت التبحر » فعد إليها .

٢ - ومن نثره المسجوع ما ترجم به لشيخه الشمنى فى كتابه « حسن المحاضرة » إذ قال (١) :

« قدوة عين الزمان وإنسانها ، وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التى طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها . ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها ، وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها . إن أخذ فى التفسير كلٌّ عنده الكشاف واختفى ، أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مزيل الخفا ، أو الفقه عُدَّ للنعمان شقيقا ، أو النحو كان للخليل رفيقا » .

نموذج من شعره .

رثى الشيخ أمين الدين الأقصر يحيى بن محمد شيخ الحنفية فى زمانه ، وهو آخر شيوخه قال (٢) :

(١ ، ٢) عن كتاب حسن المحاضرة الجزء الأول ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

مات سيف الدين منفردا وغدا فى اللحد متعمدا
عالم الدنيا وصالحها لم تزل أحواله رشدا
فابكه دين النبي إذا ما أتاه ملحد كمدا
إنما يُبكى على رجل قد غدا فى الخير معتمدا
لم يكن فى دينه وهن لا ولا للكبر منه ردا
عمره أفناه فى نصب لإله العرش مجتهدا

٤ـ البوصيرى : (١) ٦٠٨ هـ – ٦٩٥ هـ

هو الإمام الكاتب الشاعر المتصوف شرف الدين البوصيرى محمد ابن سعيد بن حماد المغربى . وينتهى نسبه إلى قبيلة صنهاجة . أشهر مادحى رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحاً ممزوجا بالتصوف ـ كان أحد أبويه من أبى صير والآخر من دلاص فركبت له نسبة منهما وقيل : الدلاصيرى . لكنه اشتهر بالبوصيرى . ولد فى دلاص سنة ٦٠٨ هـ ونشأ ببوصير . وكلاهما من قرى مديرية بنى سويف . ثم انتقل إلى القاهرة فتعلم العلوم الشرعية والعربية ، وأخذ بحظ من الأدب حتى شعر ونثر . واستخدم فى الدواوين بالشرقية جهة بلبيس وبالقاهرة . وكان يلاقى من الكتاب العاملين معه جوراً وتلفا . فلعلهم استغلوا تواضعه وحرموه مرتبه ، فلم يكن يتسلمه بانتظام . فلحقه بؤس العيش ، وشظف الحياة ، حتى شكا سوء حاله . وحمل على هؤلاء المستخدمين حملة شعواء ، بقيت لهم وصمة فى سجل التاريخ . وما زال حتى زهد ونسك وتصوف . ثم توفى سنة ٦٩٥ هـ ودفن بالإسكندرية بجامعه المعروف فيها .

شعره :

اشتهر البوصيرى بمدائحه النبوية . وله قصائد أخرى سواها . ولكنه فى الجملة شاعر مقل . وخاصة فى غير المديح النبوى . ويعده بعض المؤرخين

(١) تجد ترجمته فى فوات الوفيات جزء ٢ ص ٢٥٦ ، وفي حسن المحاضرة جزء ١ ص ٢٧٣ ، وفي المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك ص ١٤١ ، وقد ترجمناه ترجمة أخرى مطولة . . . وافية ستطبع قريباً .

أشعر من الجزار والوراق وأضرابهما . وفى رأينا أن شعر البوصيرى ثلاث مراتب : (١) قصيدة البردة (٢) بقية مدائحه النبوية (٣) قصائده الأخرى. فلنتكلم عن كل منها .

١ ـ البردة : هى تلك القصيدة العصماء التى دبجتها يراعة البوصيرى مدحاً فى سيد المرسلين محمد صلوات الله عليه . وهى من أجود الشعر . وهى كذلك أجود شعر البوصيرى . وتبلغ أبياتها مائة وستين بيتاً . أما سبب نظمها ، فقد قال فيه البوصيرى : « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى . ففكرت فى عمل قصيدتى هذه ـ البردة ـ فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ونمت . فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم . فمسح على وجهى بيده المباركة . وألقى علىّ بردة فانتبهت ووجدت فىّ نهضة فقمت وخرجت من بيتى » .

أما سبب تسميتها « البردة » فقد قال فيه البوصيرى أيضاً : « أدرك سعد الدين الفارقى المُوَقِّعَ رمدٌ أشرف منه على العمى . فرأى فى المنام قائلا يقول له : « اذهب إلى الصاحب وخذ البردة . واجعلها على عينيك فتعافى بإذن الله عز وجل . فأتى إلى الصاحب (وكان قد احتفظ بقصيدة البوصيرى) وذكر منامه فقال : ما أعرف عندى من أثر النبى صلى الله عليه وسلم بردة . ثم فكر ساعة وقال : لعل المراد قصيدة البردة التى للبوصيرى . ثم قال : فأتى بها فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعوفى ومن ثم سميت البردة » .

هذا وتسمى هذه القصيدة أيضاً « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » . وقد تناول فيها البوصيرى جملة أغراض وطرق أبوابا شتى . منها ذكر الديار . منع هوى النفس . مدح النبى عليه السلام . مولده . دعوته . معجزاته . المعراج . الجهاد . التوسل وطلب المغفرة من الله والشفاعة من نبيه الكريم . مناجاة الرسول ـ وأكثر أبيات القصيدة سامى المعنى ، جيد المبنى ، جميل

التركيب، حسن الموقع. - وهذا لا يمنعنا القول إن معظم معانيها مسبوقة منثورة فى كتب السيرة. وإن فى كثير من أبياتها أثر البديع.

وقد كان نظم البردة فتحا مبينا فى الأدب. فقد أثرى من ورائها ثروة واسعة. وقد سبق أن بينا كيف كانت مصدر وحى لأصحاب البديعات. ثم تناولها كثيرمن الأدباء بالشرح أو المعارضة أو التشطير أو التخميس أوالتسبيع.

٢ - مدائحه النبوية الأخرى: للبوصيرىمدائح نبوية غير البردة فى طليعتها الهمزية والمضرية، وتدور أغراضها ومعانيها حول أغراض البردة ومعانيها، ولكن أسلوبها أقل جودة من أسلوب البردة، وهذا لا يمنعنا القول إن الهمزية تلى البردة جودة ورقيا وسعة أغراض ومعانى.

٣ - قصائده الأخرى: طرق البوصيرى أغراضا أخرى غير مدح النبى عليه السلام، كالشكوى، والنقد، والغزل، وله فى ذلك بضع قصائد نهج فى لفظها وأسلوبها منهج شعراء عصره من عدم العناية بالتركيب الجيد أو التأنق فى اختيار اللفظ أو المبالاة فى اصطناع الأسلوب، ولذلك دخلتها الكلمات والأساليب والأمثال العامية، بل شابتها الأخطاء اللغوية وصاحبتها الحلية البديعية. وهذه القصائد - وإن تكن معانيها شائعة معروفة فى زمانه - أصبحت صفحة سجلها الزمن وحفظتها بطون التاريخ، ولا سيما قصائد الشكوى والنقد فلها إذن أهمية خاصة وذلك لأمور منها:

١ - أنها برهان على شجاعة البوصيرى فى مثل هذا الزمن الذى ندرت فيه شجاعة الشعراء. فلم يتناولوا الموظفين أو المسيطرين على شئون الرعية نقد أو شكوى.

٢ - أنها لسان الشعر الناطق الصادق الذى شهد بما كان يقترفه الكتاب والمهيمنون على الدولة من سلب ونهب، وما يجترحونه من ظلم وجور.

٣ - أنها صورة للحياة فى زمانه وخصوصا لأنه وصف أسرته وما انتابها من بؤس، وما اعتورها من فساد بسبب الفقر، وصفا شائقا، فكانت أسرته بذلك نموذجا لأشباهها من أسر ذلك الزمان.

أما غزله فأكثر الظن أنه متكلف صدر منه تمرينا لقريحته !

نـــثره : غلبت شهرة البوصيرى بالشعر وخاصة بالمدائح النبوية فلم يعرف نثره ، مع أنه استخدم فى الدواوين كاتبا ومتصرفا ومع ذلك نقول : إن نثره كان سهلا لا تأنق فيه شبيها بالحديث المرسل الذى يتخاطب به الناس . ـ وقد أوردنا له كلمة فى سبب نظم البردة فاعتبرها نموذجا .

وإليك نماذج من شعره :

١ ـ من البردة : قال فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

أكرم بخَلـــق نبى زانه خلـــق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ... والبحر فى كـــرم والدهر فى همم
كأنه وهـــو فرد من جلالته ... فى عسكر حـــين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف ... من معدنى منطق منـــه ومبتسم
لاطيب يعدل تربا ضم أعظمـــه ... طـــوبى لمنتشق منـــه وملتـــثم
أبان مـــولده عن طيب عنصره ... ياطيب مبتـــدأ منـــه ومختـــتم

ب ـ ومن أبياتها السائرة :

ا ـ والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
ب ـ فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعـــام يقوى شهـــوة النهم
حـ ـ وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عـــال من الأطم
ء ـ أمرتك الخير لكن ما ائتمرتُ به ... وما استقمتُ فما قـــولى لك استقم

٢ ـ من الهمزيـــة :

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاء ... ياســـماء ما طاولتها ســـماء

٣ ـ من المضرية :

يارب صل على المختار من مضر ... والأنبيا وجميع الرسل ما ذكروا
وصل رب على الهادى وشيعته ... وصحبه من لطى الدين قد نشروا

٤ ـ من نقده وهى قصيدة طويلة نقد بها المستخدمين ولعلهم الصيارفة دون غيرهم :

نقـــدت طوائف المستخدمينا فـلم أر فيهمو رجـــلا أمينا
فقـــد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال همـــو جميعا فلا صحبت شمـــالهمو اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنـا بهم فكأنما سرقـــوا العيونا

٥ ـ من شكواه وهى قصيدة طويلة أيضا وصف فيها بؤس أسرته . وما دب بينهما من فساد ونزاع :

يأيها المـــولى الوزير الذى أيامـــه طائعـــة أمـــره
ومن له مـــنزلة فى العـــلا تكل عن أوصـــافها الفكرة
إليك نشـــكو حالنا إننـــا حاشـــاك من قوم أولى عسرة
فى قِـــلة نحـــن ولـكن لنا عائـــلة فى غايـة الـــكثرة
أحـــدث المولى الحديث الذى جـــرى لهم بالخيط والإبرة
صـــاموا مع الناس ولـكنهم كانوا لمن أبصرهم عـــبرة
إن شربوا فالبئر زير لهم ما برحت والشربة الجـــرة
لهم من الخبـــز مصـــلوقة فى كل يـوم تشـــبه النشرة
أقول مهما اجـــتمعوا حولها : تنزهـــوا فى الماء والخضرة . . .

٦ ـ من غزله وهى قصيدة ضمنها حكاية بينه وبين جارية . ونعتقد أنها من صنع خياله :

أهوى والمشيب قد حال دونه والتصابى بعد المشيب رعونة
أبت النفس أن تطيع وقالت : إن حبى لا يدخل القنينـــة !
كيف أعصى الهوى وطينة قلبى بالهوى قبـــل آدم معجونة ؟
سلبته الرقاد بيضـــة خدر ذات حسن كالدرة المكنونة
سمتها قبـــلة تسر بهـــا النفـ ـس فقالت : كذا أكون حزينة ؟
قلت : لابد أن تسيرى إلى الدا ر فقـــالت : عسى أنا مجنونة ؟

٥ - صفى الدين الحلى (١) ٦٧٧ هـ - ٧٥٠ هـ

هو عبد العزيز بن سرايا المعروف بصفى الدين المنسوب، إلى بلده الحلة إحدى مدن العراق. وهو طائى ولد بالحلة سنة ٦٧٧ هـ ونشأ بها وتعلم وتادب حتى أجاد قول الشعر، وأصبح أشهر شعراء العراق. وقد اتصل بخدمة ملوك الدولة الأرتقية بماردين ودياربكر. وخاصة الملك المنصور نجم الدين غازى ابن قره أرسلان، ومدحه بقصائد عدة تعرف « بالأرتقيات ». وقد حج البيت ثم عاد معرجا على مصر سنة ٧٢٦ هـ أيام سلطنة الناصر بن قلاوون، وكاتب سره القاضى علاء الدين بن الأثير. فحظى عندهما ومدحهما. وجمع ديوانه بإشارة القاضى علاء الدين. ثم عاد إلى ماردين ومنها إلى بغداد حيث توفى سنة ٧٥٠ هـ

منزلته فى الشعر :

لعل صفى الدين أقدر شعراء زمانه على قول الشعر. حقيقة يعتبر الشاعر ابن نباتة المصرى أمير شعراء ذلك الزمان وكانت بينهما صلة ود وتراسل وتقارض بالمدح. فلئن كانت براعة ابن نباتة ورقته وتفننه قدوصلت به حد الإمارة، فلا ننسى جزالة صفى الدين وعوده بالشعر العربى إلى بعض ما كانت عليه تراكيبه الفحلة البليغة. خصوصاً فى هذا العصر الذى طغي فيه سيل العجمة على ألسنة الشعراء. فانحطت بلاغتهم، وضعفت عبارتهم، وسرت إليهم عدوى العامية - وليس معنى ذلك أن صفى الدين قد خلا من خطرها. لا. بل لحقته وأصيب بها ولكن بمقدار، فقدكان ذا مقدرة خاصة تسعفه فى المواقف التي تتطلب الجزالة والجودة وفخامة العبارة، وتنويع المعنى ودقة الوصف. كمدح الملوك والحماسة وبعض الغزل والمراسلات الشخصية بينه وبين شاعر مثله. وصفى الدين من شعراء البديع، ولكنه مع ذلك أقل من غيره تمسكا به. إذا استثنينا بديعيته المسماة « الكفاية البديعية فى المدائح النبوية »، وهى التى مدح بها النبى عليه السلام، وتكلّفَ فى كل بيت منها نوعاً بديعياً.

---

(١) تجد ترجمته في فوات الوفيات جزء ١ ص ٣٥٦، راجع جورجى زيدان جزء ٣ ص ١٢٨

ويعتبر صفي الدين من أكثر الشعراء تفننا فى القول . طرق أغراضاً شتى وجود فى كل منها : فمن غزل رقيق يشعرك برقة البحترى . ومدائح كأنما استلهم وحيها من المتنبي . ووصف للطبيعة كأنه وصف ابن خفاجة الأندلسى . وله كذلك شعر كثير فى الحماسة والمجون والمثل والحكمة والنصائح .

وكما قال القصائد الطوال نظم المقطوعات والموشحات ، وشطر وخمس وعارض ، ويعد أول أصحاب البديعيات فى عصر المماليك ، وله كثير من الشعر العامى ، وكثيرا ما تلهى فى شعره بالتلاعب بالحروف ، يستخدمها مصغرة أو مهملة أو منقوطة أو مقطوعة أو متصلة فيبدو لذلك عليه تكلف يسقطه .

على أن ذلك كله يدلنا على قدرة هذا الشاعر وتفننه فى ضروب الشعر غرضاً وأسلوبا ، وتصرفه فى المعانى بما يكسبها جدة وإن كانت معادة مكررة .

وله مؤلفات كثيرة منها ديوان شعره ، ودور النحور فى مدائح الملك المنصور ، والعاطل الحالى والمرخص الغالى . فى أنواع من الشعر العامى .

نماذج من شعره .

١ ـ مدح الملك الناصر محمد بن قلاوون عند كسر الخليج المصرى بقصيدة صدرها بوصف الربيع والمناظر الطبيعية المصرية فمنها :

خلع الربيع على غصون البان ... حللا فواضلها على الكثبان (١)
ونمت فروع الدوح حتى صافحت ... كفلَ الكثيب ذوائبُ الأغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت ... خدّ الرياض شقائق النعمان (٢)
وتنوعت بسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع ... أو أزرق صاف وأحمر قانى

(١) معنى البيت : أن الربيع كسا غصون البان ثيابا هي أوراقها وقد تدلت أطرافها على الرمال ونمت حتى لمست كفلها أى عجزها . (٢) معنى البيت : أن أعلى الغصون لبست تيجانا هي الأزهار . كما احمرت صفحة الرياض مما نبت فيها من شقائق النعمان وهي الأزهار الحمراء المزدوجة .

ومنها فى مدح الناصر :

ملك إذا اكتحل الملوك بنوره خروا لهيبته إلى الأذقان
قد عز دين محمد بسميه وسما بنصرته على الأديان
شاهدته فشهدت لقمان الحجا ونظرت كسرى العدل فى الإيوان (١)
ورأيت منه سماحة وفصاحة أعدى بفيضهما يدى ولسانى

٢ - ومدح أيضاً الملك الناصر عند قدومه إلى مصر بقصيدة يعارض بها قصيدة المتنبي التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

فقال :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا

ومنها :

الناصر الملك الذى خضعت له صيد الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة ويعد راحات الفراغ متاعبا
لم تخل أرض من ثناه وإن خلت من ذكره ملئت قنا وقواضبا
بمكارم تذر السباسب أبحرا وعزائم تذر البحار سباسبا

٣ - ومن غزله :

أقد سكرت عطفاه من خمر ريقه فمالت به أم من كئوس رحيقه
مليح يغار الغصن عند اهتزازه ويخجل بدر التم عند شروقه
فما فيه شىء ناقص غير خصره ولا فيه شىء بارد غير ريقه
ولا ما يسوء النفس غير نفاره ولا ما يروع القلب غير عقوقه

٤ - من شعره الحماسى :

سل الرماح العوالى عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا

---

(١) فى البيت تشبيه للملك بلقمان فى عقله وحكمته ، وبكسرى فى عدله وهيبته .

وسائل العرب والأتراك مافعلت — فى أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا — عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد — دنّا الأعادى كما كانوا يدينونا

٥ ـ ومن تلاعبه بالحروف :

ا ـ التصغير :

نُقَيط من مُسَيْك فى وُرَيْد — خُوَيْلك أو وُسَيْم فى خُدَيْد

ب ـ القطع :

إذا زار دارى زور ودود — أود وأورده ورد ودى

حـ ـ الوصل :

سل متلفى عطفا عسى يتعطف — فلقد قسا قلبا فما يتلطف

٦ ـ ومن اقتباسه :

قلوبنا مودعة عندكم — أمانة يُعجَز عن حملها
إن لم تصونوها بإحسانكم — « ردوا الأمانات إلى أهلها »

٧ ـ من حكمه ونصحه :

ا ـ اسمع مخاطبة الجليس ولا تكن — عجلا بنطقك قبلما تفهم
لم تعط مع أذنيك نطقاً واحداً — إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

. . .

ب ـ بقدر لغات المرء يكثر نفعه — فتلك له عند الملمات أعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهداً — فكل لسان فى الحقيقة إنسان

نموذج من نثره : من رسالته المهملة لخلوها من النقط :

« أدام الله الملك العادل . العامل الأوحد الكامل . موئل الآمال ومآل الأرامل . مالك ملوك الدول . طامس أسماء الكرام الأول . أسد الآساد . مكمد الحساد . الهمام الأروع . والأسد الأدرع » . إلى آخر ماقال .

و ـ جمال الدين بن نباتة المصرى : (١) ٦٨٦هـ - ٧٦٨هـ

أمير الشعراء فى عصره . وحامل لوائهم بشعره . الفحل الجـــزل . المبدع المتفنن . فخر مصر والنيل . أنصفهما بأدبه فلم ينصفاه فى ماله ونشبه . ووجـــد عليه الزمان حتى أبأسه . فوجد على الزمان حتى أشجاه . وهو بعد العالم الفقيـه والكاتب المؤلف .

اسمـــه : هو جمال الدين محمد بن محمد وينتهى نسبه إلى عبـــد الرحيم بن نباتة ، الذى كان خطيباً لسيف الدولة بن حمدان ، وتوفى سنة ٣٧٤ هـ . أما والده فشمس الدين بن نباتة ، وكان عالما محدثا تولى دار الحديث بدمشق ، وولد بمصر سنة ٦٦٦ هـ وتوفى سنة ٧٣٠ هـ .

فبيت ابن نباتة بيت علم وأدب وفقه منذ زمن بعيد . فلا غرابة أن شب ابن نباتة الشاعر ميالا إلى الأدب ، راغبا فى العلم ولقد صدق حيث يقول :

ورثت اللفظ عن سلفى وأكرم   بآل نبـــاتة الغـــر السّراة
فلا عجب للفظى حين يحـــلو   فهذا القطر من ذاك النبات

حياته : لكأنما نشأ ابن نباتة ولا يزال فى دار أبيه بقية من الفضل والثراء ، أخذ يرتع فى بحبوحتها . غير آبه لما ينتظره فى مستقبله من شظف عيش ـ كان لأبيه سكن بدمشق . ودار بزقاق القناديل بفسطاط مصر . حيث ولد ابن نباتة الشاعر سنة ٦٨٦ هـ . وزقاق القناديل إذ ذاك كان حيا لأهل الجـــاه واليسار ـ فاعتمد الشاعر على مال أبيه . ولما كانت فيـــه نزعة إلى الأدب وميل إلى العلم موروثان . وكانت مصر والشام تموجان بمن فيهما من علماء وكتاب وشعراء . والحركة العلمية ممتدة فى الآفاق والمدارس واسعة الرّواق . أدلى بدلوه فى الدلاء وقارب تلك المناهل واغترف منها . وحسبك أن تعلم أن من علماء ذلك العصر : تقى الدين السبكى . وابن العطار . وابن هشام . وابن منظور . ومن كتاب الدواوين :

(١) تجد ترجمته فى الدرر الكامنة جزء ٣ (راجع جورجى زيدان جزء ٣ ص ١٢٢) . وله ترجمة ممتعة في المفصل جـزء ٢ ص ٢٠٦ . كما ترجم له بعض أهـل الفضل في كراسة صغيرة مطبوعة . وقد ترجمناه ترجمة أخرى مطولة وافية ستطبع قريباً .

شهاب الدين بن فضل الله العمرى وأخويه . وعلاء الدين بن الأثير . ومن الشعراء : صفى الدين الحلى . صلاح الدين الصفدى . وابن الوردى . والقيراطى . فى هذه البيئة الصالحة نشأ ابن نباتة . ونما ذهنه وثقف عقله . وكان أكثر رغبة فى الأدب والشعر ، وكأنى به وقد أحس من نفسه القدرة على قول الشعر ، وإجادته فى سن مبكرة ، قد أبى إلا أن يهب حياته كلها لهذا الفن ، يحيى دولته ، ويغرد بأبياته على غصون حياته . وكأنه أقسم على نفسه أن يكون شاعر زمانه غير مدافَع . وكأنما كان يرجو من وراء ذلك أن يعيش عيشة مترفة ناعمة يملأ الدل برديه . ويسحب الذيل تيها وعجبا . وتلك ـ لعمرى ـ أحلام شاعر! فإن جنة الشعراء قد أغلقت منذ زمن بعيد ـ ولم تعد بلابلهم تجد الأفنان التى كانت عليها تتغنى . والأرواح التى كانت من فوقها تترنم . والأسماع التى كانت ترهف لتغنيها . وتنصت لترنمها . والدهر حال بعد حال .

ولا أدرى لماذا لم يُقدر ابن نباتة كل هذا ، ولم يحتط لمستقبله ؛ أهو الشعر جنى عليه شيطانه ، وطوع له سلطانه ؟ . والشعر ـ وربك ـ لمعة من خيال! يملأ نفس الشاعر تيها وعزة وثقة وأملا ! حتى إذا ما امتدت يده لتقطف أزاهيره هزت رياح الأسى والهم أغصانه ..

أنف ابن نباتة من أن يحترف كما احترف سواه من الشعراء ، وأن يكسب قوته بعرق جبينه ، وكيف يكون هذا وهو الذى يقول فى إحدى مدائحه لعلاء الدين بن فضل الله العمرى :

خذها منظمة الأسلاك معجزة بالجوهر الفرد فيها كل نظّام
مصرية من بيوت الفضل ما عرفت فيها بنسبة جزار وحمّامى

لذلك قصر عمله على شعره فاضطر إلى أن يتكسب به ، ويسعى إلى أبواب الملوك والرؤساء بمدائحه . وهو وإن أفاد بعض الجدوى من تكسبه ، لم يكن فيما أفاد ما يرغد عيشه ، وينعم باله ، ويكفيه هم نفسه ، وأسرته . ولعله كان فى شبابه متلافا يهفو إلى ملذات الشباب ، لذلك بدأت الحاجة تأزمه ، والضيق يعرف سبيله إليه ، وقد رماه الدهر إذ ذاك بثلاث ضربات قوية يهى لها عزم

الشجاع ، هي ضيق ميدان العمل ، وكثرة الأبنـاء ، والشيب العاجل ، فكانت هذه الضربات سببا فى ابتئاسه ، وشكواه . واستخدم فى ديوان الانشاء بمصر ، ولكنه ضاق ذرعا به . فنفر من مصر إلى الشام سنة ٧١٥ هـ حيث اتصل بالملك المؤيد صاحب حماة ثم ابنه الأفضل ثم المنصور ولد الأفضل . ورتبوا له ستمائة درهم فى السنة ، وكان شاعرهم المقدم . فدحهم بمدائح خلدت ذكرهم أبد الدهر . ثم اتصل بشهاب الدين بن فضل الله العمرى . صاحب ديوان الانشاء بدمشق ، وبأخيه علاء الدين فاستخدماه فى الديوان ، ومدحهما بقصائد طنانة . وفى هذه الفترة التى أقامها بالشام أكثر من القول فى الأغراض الآتية : المدح ، الحنين ، الشكوى ، الوصف ، ويبدو لنا أن هذا الرجل كان قلق الخاطر غير مستقر النفس ، تملؤه الآمال ، ولكن لم تواته الأيام ، ولم تسعفه الدنيا ، فعاوده وهو فى الشام ضيقه وكدره ، فهم بالعودة إلى مصر وهو يقول لعلاء الدين بن فضل الله العمرى :

ورب شائمة عزمى ومرتحلى إلى حمى مصر أشكو جفوة الشام
قالت : وراءك أطفال فقلت لها : نعم ونعمى ابن فضل الله قدامى

ثم عاد إلى مصر ، وكانت له صلات ود بكثير من علمائها وأدبائها ، ولذلك كان له فيهم كثير من الشعر فى باب التهنئة أو المناقضة لاظهار شوق أو عتب أو الرثاء لمن مات منهم . ولكن لم ترفعه هذه الصلات إلى عمل مستقر دائم ينال من ورائه مايطمع فيه من طيب الحياة . ولذلك استمرت شكواه ، وندب حظه . ثم عطف عليه السلطان الناصر حسن فى أخريات حياته ، فاستكتبه ديوان شعره ، واستخدمه فى ديوان الانشاء بمصر ، فكان لذلك رنة فرح عند الشاعر ، أشاعت بعض البهجة فى قلبه الحزين ، ومدح هذا السلطان بقصائد باقية بقاء الدهر ، ولعله السلطان الوحيد من بين سلاطين مصر الذى حظى بمدح ابن نباتة ، وقد قال له :

يأيها الناصر السلطان لاغمضت عين لها عن سنا مرآك سلوان
كم فى ملوك الورى فضل ومعرفة كانوا ومثلك فى ذا النحو ما كانوا

إن يمض كسرى فكم إيوان معدلة　لديك قد زانه يمن وإيمان
أمرت شعرى ياخير الملوك على　أشعار قوم فلى أمر وديوان

ومع كل ما لاقاه ابن نباتة من ضروب الغير تنزلها بساحته الأيام ، لم يفارقه افتخاره بنسبه وشعره . كأنما يوهم نفسه بمجد يعوضها عن مجدها الذى كان يرجوه ولم يبلغه. ومع ذلك ظلت شكواه من الدهر . وتألمه لغابر أيامه حيث الشباب النضر واللذة الوفر . وتفجعه لما حل برأسه من شيب عاجل حرمه كثيراً من لذاذاته . وندبه حظه وحظ الشعراء والأدباء معا . نقول ظلت هذه الأمور طابعا طبع شعره عليه . يرددها فى كل موقف وفى كل قصيد تقريباً .

اعترى ابن نباتة المرض لحمل إلى « البيمارستان » المنصورى ، ثم توفى فيه فى صفر سنة ٧٦٨ هـ .

شعره :

ابن نباتة شاعر مكثار . أفاض فى كثير من فنون الشعر . وتفنن فى أغراضه . ويعتبر بحق أمير الشعراء فى عصره . ولا يدانيه فى حلبته إلا صفى الدين الحلى . وكثيراً ما كانت بينهما المراسلات الشعرية والمناقضات . وله القصائد الطويلة والمقطوعات والموشحات وإليك أغراضه :

أغراض شعره : له أغراض أساسية . وأغراض أخرى فى سياقها :

الأغراض الأساسية : نعنى بها تلك الأغراض التى يبنى عليها الشاعر قصيدته والتى تدفعه إلى نظمها فمنها : المدح ، التهنئة ، الوصف ، الرثاء ، الزهد ، الإخوانيات ، مدح النبى عليه السلام .

الأغراض الأخرى : نقصد بها الأغراض التى يسوقها الشاعر بين تضاعيف القصيدة مستطرداً إليها ، ومنها : شكوى الدهر ، التفجع للمشيب ، ندب حظ الأدباء ، الغزل ، وصف الخمر ، الفخر بنفسه وشعره ، الاستجداء ، الحكمة . وله شعر فى : الألغاز ، الإجازة ، المجون .

أسلوبه : غلبت على ابن نباتة صناعة البديع . بل قيل إنه كان متعصبا لها . ولذلك ظهرت أنواع البديع فى شعره بل ونثره بكثرة . وبخاصة التضمين والاقتباس والتورية والتوجيه والطباق وقليل من الجناس . وقد سلمت له تراكيب كثيرة شابه بها أرباب البلاغة من الشعراء . ولكن مع ذلك قد دخلت شعره كلمات عامية وأمثال وعبارات مما تجرى على ألسنة العوام . بل ومما تتحدث به النساء . وكذلك لم يعن ابن نباتة بسلامة أسلوبه فدخله الخطأ النحوى والصرفى وأكثر من الضرورات الشعرية . وهو مع ذلك كله ذو شعر جيد كثير يعتبر غاية فى الجودة والرقة .

معانيه : لم يكن ابن نباتة مجدداً فى المعانى مبتكراً فى الأفكار والآراء ، فهو مقلد . وقل أن نعثر له على معانى جديدة . على أنه قد يتصرف فى القديم حتى يكسبه بعض الجدة والروعة . ومن عيوب شعره تكرار المعنى الواحد مرات كثيرة وبألفاظه نفسها لا بألفاظ متغايرة . ولكنه مع ذلك قد أكثر من إيراد المعانى والتشبيهات فى شعره . وخصوصاً فى بابى المدح والشكوى . ويعد له بعض النقاد كثيراً من السرقات الشعرية ، وربما كان ذلك نتيجة لكثرة الحفظ .

مؤلفاته : له مؤلفات كثيرة منها : (١) ديوان شعره (٢) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون (٣) القطر النباتى : وفيه مقطوعات شعرية (٤) مجمع الفوائد (٥) الفاضل من إنشاء الفاضل (٦) فرائد السلوك فى مصايد الملوك .

نماذج من شعره : (١) الغزل : وكان يصدر به قصائد المدح . وقد قال من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد :

لا وخمر بابلية (١) فى ثنايا لؤلؤية
لارقا سفح دموعى فى هوى تلك الثنية

---

(١) بابلية : نسبة إلى بابل لقدمها أو لاشتهارها بسحر هاروت وماروت . والثنايا : الأسنان .

ربع سـلوانى خراب وشـجونى عامرية (١)
حرّبى من ذات حسن باسم تُبكى البريـة
غـادة يروى لمـاها عن صحـاح جوهرية (٢)
من يـوت الترك ترى عن قسى عربيـة
رحـلتنى عن سلوتى بلُغـات فارسـية
لست أرضى ياعـذولى فى هـواها بالتقيـة
ولقـد أبذل روحى فى معانيهـا السـنية

٢ - المدح: أكثر ديوانه مدائح فى الملك المؤيد صاحب حماه، وابنه وحفيده. وفى أبناء فضل الله العمرى. ومنه فى مدح علاء الدين على بن فضل الله:

لولا على بن فضـل الله ما استبقت سفائن العيس فى لج الفـلا الطامى
لعاقد خنصر المُدّاح يوم ثنـا وموضح الجود فيهم بعد إبهـام
رب السـيادة فى إرث ومكتسب فيالهـا ذات أنواع وأقسـام
سُـدْ يا على بن يحيى كيف شئت فما فى فرعك المجتنى والأصل من ذام
وارفع إلى عمـر إسناد بيتـك فى فضل وفصـل وتقديم وإقـدام
بيت تسامى إلى الفاروق منصـبه فكاتبه العـلى بالمنصب السامى

٣ - من حنينه إلى مصر فى سياق قصيدة يمدح بها علاء الدين بن فضل الله العمرى وهو فى الشام:

ومالى لا أبكى على در مبسم كما بكت الخنساء قبلى على صخر
وأجرى عيون الدمع فائضة على عيون المهايين الجزيرة والجسر

---

(١) فى البيت مقابلة بين سلوانى وشجونى. وبين خراب وعامرية. كما أن سلوان والعامرية بلدان أيضا. (٢) معنى البيت: أن هـذه الغادة يسقى احمـرار شفاهها مستمدا من أسنانها الصحيحة الشبيهة بالجواهر. أو أنها تروى وتتحدث بكلمات عربية فصيحة كالتى رواها «صحاح الجوهرى» وهو معجم عربى.

ظباء بِشَطِّى نيل مصر لأجلها يقول حنين الشوق آها على مصر
خليلىّ شابت فى النواظر لِمتّى وشب الأسى نار التذكر فى صدرى

٤ - من خمرياته فى صدر قصيدة مدح بها الملك المؤيد :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشَّرب أم الدهر إن نسبتْ أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر فى ثوب من النور أو عقد من الحبب

٥ - من وصفه من قصيدة شائقة جيدة سماها « مصائد الشوارد » معظمها فى وصف الصيد بوادى حماة بالشام . قال فى أولها :

أثنى شذا الروض على فضل السحب واشتملت بالوشى أرادف الكثب
ما بين نَور مسفر اللثام وزهر يضحك فى الأكمام
إن كانت الأرض لها ذخائر فهى لعمرى هذه الأزاهر
قد بسطتها راحة الغمائم بسط الدنانير على الدراهم

٦ - من رثائه لولده عبد الرحيم :

يالهف قلبى على عبد الرحيم ويا شوقى إليه وياشجوى ويا دائى
فى شهر كانون وافاه الحمام لقد أحرقت بالنار يا كانونُ أحشائى

٧ - أوردنا لابن نباتة كثيرا من الأبيات فى الأغراض الآتية : الفخر ، الشكوى ، الشيب ، وندب حظ الأديب ، وكذلك أبياتا فيها أنواع بديعية أو غلطات نحوية أو صرفية أو لغوية ، مما يعد عيبا فى شعره ، فعد إليها عند الكلام على الشعر فى عصره .

٨ - وأوردنا له أيضا نموذجا نثريا فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وقطعة من سرح العيون . فى باب أغراض الكتابة ، فاحفظهما .

٤ : اثر الأتراك العثمانيين فى العلم والأدب

العثمانيون وفتح مصر (١) : بينما كانت مصر فى أواخر عهد المماليك ترزح تحت نير الظلم والارهاق والفتن ، إذ كان الأتراك العثمانيون قد أسسوا لأنفسهم بناء مشيدا وملكاً وطيدا فى شبه جزيرة الأناضول ، وامتدت يدهم إلى جزء كبير من أوربا ، وفتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ ، واتخذوها مقرا لملكهم ، وما زالت أطماعهم تتكاثر ، وشجاعتهم تفسح المجال أمامها ، حتى فتحوا بلاد الفرس . ثم بدا لهم أن يفتحوا مصر ، وكان ذلك فى عهد السلطان سليم الأول ، وقدتم لهم فتحها فى سنة ٩٢٣ هـ الموافقة سنة ١٥١٧ م . وقد أبدى المماليك فى الدفاع عنها من ضروب البسالة والشجاعة ماسطره لهم التاريخ ، وخاصة السلطان الغورى الذى قضى عليه العثمانيون فى موقعة « مرج دابق » سنة ٩٢٢ هـ ، وطومان باى الذى حاول قتل السلطان سليم بيده ، ولكن قبض عليه بعدُ ، ثم شنق علي باب زويلة ، وقد أبدى السلطان سليم كثيرا من ضروب القسوة والفتك وسفك الدماء مما كان عادة له وطبيعة .

حالة مصر العامة فى عهد العثمانيين :

كان أهم أغراض العثمانيين من فتوحهم فى ذلك الوقت إظهار القوة وإخافة الناس ، وإخضاعهم فحسب ، ولم يعنوا كثيرا باصلاح مرافق البلاد ، وتدبير شئونها وإحلال الأمن وإقرار العدل فيها ، لذلك كان حكم العثمانيين لمصر وبالا عليها ، وكان جل همهم استنفاد مال البلاد وخيراتها ، وحملها غنيمة باردة إلى خزائنهم . زد على ذلك ما كان يقوم به أعوانهم من مماليك ورؤساء جند ، من إنزال الأذى والظلم بالناس إلى حد لايطاق ، فرجعت البلاد القهقرى وارتبكت أمورها ، واعتلت مواردها ، وتكاثرت فيها ضروب

---

(١) انظر كتاب « الأتراك العثمانيين » للمرحوم حسن بك لبيب . وكتاب « تاريخ الدولة العلية » للمرحوم محمد بك فريد . وكتاب « الكافي فى تاريخ مصر » جزء ٣ لميخائيل شاروبيم .

الفساد وساد الجهل، وساءت الصحة العامة، واقفلت المدارس، ونهبت دور الكتب، وغاض معين الرزق عن الطلاب والعلماء فتضاءل عددهم، ولم يبق منهم إلا بقية بين الحياة والموت، تعيش بين جدران الأزهر. فاضطر كثير من الناس إلى الهجرة نحو ديار أخرى، فنقص عدد السكان. وقد وضع السلطان سليم الحكم في يد سلطات ثلاث متنازعة: هى الوالى ومجلسه والمماليك فزادت الفتن والمؤامرات، ولم ينقذ البلاد من شرها ماحاوله بعض المماليك. من إعادة الاستقلال إليها. وأهم الأحداث التى تهمنا هنا مايأتى:

١ - أخذ السلطان سليم معه حين عودته إلى القسطنطينية محمداً المتوكل علي الله الخليفة العباسى الموجود بمصر حينئذ، وهناك نزل للسلطان عن الخلافة. فأصبح بذلك خليفة رب العالمين. وانتقل مقر الخلافة والعلم من القاهرة إلى القسطنطينية، وصار يتسمى سلاطين آل عثمان بأمراء المؤمنين وخلفاء المسلمين.

٢ - أن العثمانيين استولوا علي مال البلاد وأوقافها وخاصة ماكان موقوفا على المساجد وعلمائها وطلابها.

٣ - أنهم حملوا معهم آلافا من الكتب التى كانت تغص بها دور التعليم وغيرها بمصر. وأودعوها خزائن القسطنطينية.

٤ - أنهم أشخصوا معهم أيضاً عددا كبيرا من علماء مصر ومهندسيها وصناعها وفنانيها حتى قيل إن عددهم بلغ ١٨٠٠ رجل. وغرقت ببعضهم السفن.

٥ - أنهم جعلوا اللغة التركية تدريجياً اللغة الرسمية فى الدواوين والمخاطبات السلطانية. فحلت محل العربية.

الحالة العلمية : كان الفتح العثمانى ضربة قاسية وجهتها الأيام إلى الحركة العلمية بمصر والقاهرة. فبعد أن حلت القاهرة محل بغداد على أثر احتلال التتار، وبعد أن كانت مزهوة بعلمائها وأدبائها، ومساجدها الجامعة ودور كتبها المليئة، والحركة العلمية فيها واسعة النطاق. وظلت عاصمة الإسلام ومقر الخلافة ردحا من الزمن. فى كنف مماليكها الذين ما فتئوا يشجعون العلم. نقول إنها بعد ذلك انعكست آيتها وتغيرت صفحتها،

فزالت منها السلطنة والخلافة وأصبحت تابعة لا متبوعة. وقلت أموالها وخيراتها، وأصبحت القسطنطينية ميدانا للحركة العلمية بعد القاهرة التى لا غرابة أن يرفض عنها علماؤها وينفض طلابها. ولذلك ضاقت دائرة الحركة العلمية فيها. وغاض معين العلم الصحيح. وقلت الرغبة فى التأليف. وهزلت المؤلفات. وأصبح أكثرها شرحا لكتاب أو اختصارا لمؤلف. وأكثر علماء هذا العصر من أهل العراق والشام. ومنهم السيد المرتضى الزبيدى (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) وهو من اليمن وقد شرح القاموس المحيط للفيروزابادى وسماه «تاج العروس»، وشرح كتاب إحياء العلوم للغزالى وسماه «إتحاف السادة المتقين» فى عشرة أجزاء. ومنهم عبد القادر البغدادى (المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ). وهو من بغداد وترحل ومات فى القاهرة. وقد ألف كتابا شرح به شواهد شرح الكافية وضمنه تراجم كثير من الشعراء والأدباء وسماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب». ومنهم الشهاب الخفاجي (المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ) صاحب كتاب «ريحانة الألباء» فى تراجم أدباء عصره. وشهاب الدين أحمد ابن حجر شارح متن الهمزية للبوصيرى «المتوفى سنة ٩٧٢ هـ».

حالة اللغة والأدب: أصيبت اللغة العربية وآدابها أكبر إصابة فى ذلك العصر المظلم. فقد أصبحت التركية شيئاً فشيئاً لغة رسمية فى الملك والسياسة والقضاء وكل ما له صلة بالحكومة، وأغلق ديوان الإنشاء. ولم يجد الشعراء ولا الكتاب من يأبه لهم ويهتم بشأنهم أو ينصت إليهم. ونجمل أثر ذلك فيما يأتى:

الشعر: كنا نُعيّر شعراء عصر المماليك بركونهم إلى الصناعة البديعية وتناول التافه من الأغراض وعدم العناية بتجويد المعانى وتجديدها. ومع ذلك كله لم يخل عصرهم من شعر جيد ونظم رصين. ولكن فى هذا العصر التركى يمكن القول إن دولة الشعر قد دالت وزالت. ولم يبق منها إلا ما يبقى من الدار بعد طموسها. فتقاصرت همم الشعراء عن الأغراض الهامة. وعجزوا عن استخدام المعانى السابقة. وضاق ذرعهم حتى عن اصطناع البديع...

أغراضـــه : الإخوانيات . الغزل الصناعى . مديح النبي وآله . قليل من الوصف ولا سيما وصف الأدوات . التاريخ الشعرى . الحنين . الهجاء . الرثاء .

معـــانيه : لا جديد فيها بل والقديم المستعمل منها لم يستخدم ببراعـة أو قدرة ، تكسبه جدة أو روحا .

أسلوبه ولفظه : كان أكثر الشعر مقطوعات صغيرة لضعف الشعـراء عن الإطالة . ونهج الشعراء النهج البديعى من تورية وتضمين وغيرهما . ولكنهم عجزوا عن التجديد ومجاراة أهل البديع من شعراء المماليك ، أو اللحـاق بهم . ودخل كثير من الكلمات العامية والدخيلة ـ وخاصة التركية ـ فى كلامهم . وكثرت القصائد المشطرة أو المخمسة .

الشعـــراء : منهم شهاب الدين الخفاجي المصرى (١٠٦٩ هـ) صـاحب « ريحانة الألباء » والأمير محمد بن منجك الجركسى المولود بالشام والمتـــوفى (١٠٨٠) هـ وعبد الله الشبراوى القاهرى من علماء الأزهر (١١٧٢هـ) ومنهم ابن النحاس . وابن معتوق . والكردى . والكيوانى . والرشيدى . والمتـــاتى المصرى . والمنوفى . وكثير غيرهم (تجدهم فى كتاب ريحانة الألباء) .

نمـــاذج منـــه : ١ ـ للشهاب الخفاجي يحن إلى مصر :

إن وجدى بمصر وجـــد مقيم   وحنينى كما ترون حنيـــنى
لم يزل فى خيـــالى النيل حتى   زاد عن فكرتى ففاضت عيونى

٢ ـ وللأمير بن منجك الجركسى فى الغزل :

نبه جفونك من نعاســـك   واسمح بريقك أو بكاســـك
طـاب الصبوح فهاتهـــا   واشرب معى بحيـــاة راسك
ما الورد إلا من خـــدو   دك والبنفسج من نعاســـك

٣ ـ وللشيخ عبد الله الشبراوى فى مدح آل النبى عليه السلام :

آل طه ومن يقل آل طـــه   مستجيراً بجاهـــكم لا يرد
حبكم مذهبي وعقـــد يقينى   ليس لى مذهب سواه وعقـــد

٤ ـ وله يعتذر إلى بعض أشياخه :

إن ذنبى والله ذنب كبيرُ غير أنى بحلمكم أستجير
ضاق صدرى وأخجل الذنب وجهى واعترانى من الحيا تغيير

٥ ـ ولعبد الواحد الرشيدى يهجو :

قلت للنائب الذى قد رأينا معايبه
لست عندى بنائب إنما أنت نائبة

٦ ـ للمتانى المصرى يؤرخ مدرسة :

مفتى البرايا بنى لله مدرسة لها من الأنس أنوار تغشيها
على الهدى أسست واليمن أرخها دار العلوم فيحيا العدل منشيها

٧ ـ لمحمد بن يس المنوفى فى وصف الحياة وآلامها :

ومن تخطئه نيران المنايا فسوف يصيبه ألم الدخان
وأبلغ من مذاق الموت يأس جناه المرء من روض الأمانى

الكتابة : أغلق ديوان الإنشاء الذى كان سبباً لنباهة شأن الكتاب. فتراخوا من بعده عن إحسان الكتابة . ومع أنهم سلكوا طريقة البديع والمحسنات ، والتزموا السجع ، فقد كانت كتابتهم ركيكة متكلفة . بدا فيها عجزهم عن أن يلحقوا بنظرائهم من كتاب المماليك . وتلاشت أغراض الكتابة الهامة : كالكتابة السلطانية فى الدواوين ، والمقامات والفصول ، والمفاخرات وما شابه ذلك . وبقى بعض منها : ككتابة الرسائل الإخوانية وتدوين كتب التراجم والشروح ولم يتحرج كثير من الكتاب عن اللحن ، وإقحام الكلمات ، والأساليب العامية ، والدخيلة . كما عجزوا عن الأساليب الفحلة والمعانى الشريفة . وكان هذا العجز داعياً لهم إلى أن يستعيروا ما كتب الأقدمون ، وخاصة فى الرسائل الإخوانية . لذلك جمعت دواوين للرسائل فى أغراض متنوعة يستعير الناس منها إذا دعتهم الحاجة إلى التراسل . ومن مشهورى الكتاب حينئذ الشهاب الخفاجى المصرى وعبد الوهاب الحلبى ، وغيرهم ممن سبق من المؤلفين .

نمـــوذج: ١ - كتب الشهاب الخفاجي فى كتابه «ريحانة الألباء» فى ترجمة محمد بن يس المنوفى الشاعر قال:

«وكانت لنا معه أويقات، هى فى صحائف العمر حسنات، وخمائل الشباب دانيـــة القطاف، زاهية الزّهرات، فى عنفوان عمرى، وإقبال طليعة أمرى. وماء الحياة مغدق، وغصن الشبيبة مورق. متفيئا فى هاجرة التحصيل أفياء الصبا، نازلا حيث لا عليل إلا عيـــون الغيد ونسيم الصبا، ولا باكى غير طرف النرجس بدمع الندى، ولا ساهر إلا عيون النجوم التى هى للسارين هدى. والدهر طلق طيب الأخلاق، وسوق الفضائل لا ينفق فيه النفاق. لا كهذا الزمان الذى كسد فيه الأدب وبار. حتى قيل فيه: نفق الحمار وبارت الأشعار».

٢ - ومما كتبه عبد الوهاب الحلبى إلى الشهاب الخفاجي من رسالة يمدحه:

«لقد طفحت أفئدة العلماء بشرا، وارتاحت أسرار الكاتبين سرا وجهرا. وأفعمت من المسرة صدور الصدور، وطارت الفضائل بأجنحة السرور. بيمن قدوم من اخضرت رياض التحقيق بأقـــدامه، وغرقت بحـــار التدقيق من سحائب أقلامه».

لغـــة التخـاطب: انحطت لغة التخاطب عما كانت عليه فى زمن المماليك حتى بين الخواص والمشتغلين بالعلم والأدب والتأليف. ودخل اللغة كثير جداً من الألفاظ والأساليب الدخيلة. ولم تصل لغة التخاطب فى انحطاطها فى أى عصر من العصور إلى مثل ما وصلت إليه فى العصر التركى.

الخــــطابة: كانت الخطابة فى العصر السالف مقصورة على الجمع والعيدين والزواج. وظلت كذلك فى هذا العصر لضرورتها الدينية. ولكن قلت العناية بتحضيرها، بل وقلت العناية باستظهارها وحفظها. ومن ثم كانت تكتب وتُلقى. ولذلك وجـــدت لها إذ ذاك دواوين كتبت فيها الخطب الدينيـــة لتختار فى مناسباتها، وأصبحت تتناول التخويف من القبور وما فيها من وحشة أو عقاب أو ديدان أو حشرات بعـــد أن كانت تتناول أمور الدنيا وترشـــد إلى ما به صـــلاح حال الناس.

بيان بشأن الأزهر وفضله على الآداب والعلوم

منذ بنائه إلى انتهاء حكم العثمانيين لمصر (١)

الأزهـــر : إذا ماتصدى المؤرخ للكتابة عن الجامع الأزهر ملكتـــه الحيرة، وأفلت من يده زمام القـــول . ولم يدر من أى نواحيـــه يبدأ . ولا غرابة فهو للعلم طود أشم وحصن منيع ، وهو للدين ركن متين وعضد قوى . وكما شاء الله أن تقوم القاهرة مقام بغداد بعد محنتها فيحيا فى ربوعها العلم والدين واللغة ، شاء أيضاً أن يستمر الأزهر باقيا بعد محنة القاهرة يعيش فيه الدين وتحيا بينه اللغة ويشع منه نور العلم . فكان الوصلة الصالحة بين الماضى والحاضر ، والبذرة الحيـة التى تعهدها السقاة من بعدُ بالرى حتى أينعت وآتت أكلها شهيا . وهو اليـــوم أكبر جامعات الإسلام . وإحدى مفاخر مصر والشرق .

بناؤه وتجديده : لما شرع القائد جوهر الصقلى مولى المعز لدين الله الفاطمى فى بناء مدينـة القاهرة المعزية شرع أيضا فى بناء مسجد جامع لهـا سمى فيما بعد بالأزهر : قيل نسبة إلى فاطمة الزهراء ، وقيل لإحاطة القصور به . وبُدىء فى بنائه لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ ، وتم بناؤه فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وصليت به الجمعة لسبع خلون منه . وقيـل إن الفضل فى بنائه يعود إلى جوهر . فهو صاحب الاقتراح بذلك . أغرى به سيده المعز ليكون لهما أثراً خالداً يذكّر بهما أبد الدهر ، ولينافسا به جامع عمرو بالفسطاط وجامع ابن طولون بالقطائع . وليكون مثابة يفد إليها المتشيعون يدرسون مذهبهم على علمائه ـ والأزهر ثالث المساجد العظيمة التى بنيت بمصر بعد فتح العرب . وقد عنى به كثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء المماليك لما ناله فى عالم الدراسة من سمعة طيبة ولما حازه من مركز دينى عظيم . وخاصة فى زمن المماليك الذين بنوا كثيراً من المساجد على

(١) ارجع في موضوع الأزهر إلى خطط المقريزى في مواضع مختلفة ، وإلى حسن المحاضرة جزء ٢ ص ١٥٤ ، وإلى الخطط التوفيقية جزء ١ ص ١١ ، ٨٨ وجزء ٢ ص ٩٠ ، جزء ٤ من ص ١٠ إلى ص ٤٢ ، وإلى كتاب « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر » للشيخ سليمان رصد .

غراره . ولنجمل هنا الكلام على تجديد بنائه وما يتصل به من تبليط أو فرش أو تزويق أو تنظيم أو أوقاف فنقول :ـ

في عهد الفاطميين : جدده الحاكم بأمر الله وأوقف عليه رباعا وزوده بقناديل فضية توقد في رمضان . ثم جدده من بعده المستنصر . ثم الحافظ لدين الله ، وقد بنى به مقصورة كانت تعرف بمقصورة فاطمة الزهراء .

في عهد الأيوبيين : لم يحظ الجامع الأزهر بعطف بنى أيوب ، فلم يتناولوه بإصلاح ما . بل أبطلوا منه الدراسة وخطبة الجمعة وقصر أمره على الصلاة اليومية اكتفاء بمسجد الحاكم بأمر الله .

في عهد سلاطين المماليك : عنى بأمره كثير من سلاطينهم وأمرائهم أكبر عناية فمن ذلك :

١ ـ في سنة ٦٦٥ هـ جدده الأمير عز الدين إيدمر الحلى بعد استئذان السلطان الظاهر بيبرس ، فاكتتب واكتتب معهما الناس بطائفة من المال . فأقام جدرانه الواهية وأعلى سقفه وبيضه وبلطه وفرشه وبنى مقصورة ، ورتب بعض الدروس ، وأعيدت إليه صلاة الجمعة وخطبتها بناء على رغبة السلطان وفتوى قاضي الحنفية ـ وقد كان الأمير عز الدين يسكن بداره بجوار الأزهر .

٢ ـ في سنة ٧٠٢ هـ أصاب مصر زلزال عظيم تهدم على إثره مساجد كثيرة . فهب أمراء المماليك يتقاسمون إصلاحها . فكان الأزهر من نصيب الأمير سيف الدين سلار فجدد مبانيه .

٣ ـ في سنة ٧٦١ هـ في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، استأذنه الأمير سعد الدين بشير الجدار الناصري في إصلاح الأزهر ، فنزع كثيرا من مقاصيره التي كانت قد ضيقت من سعته وأقام جدرانه وسقفه وبيضه وبلطه حتى عاد جديدا . وأنشأ ببابه القبلي موردا ومكتبا يحفظ به الأيتام القرآن الكريم . وخصص طعاما يوميا لفقراء المجاورين . وأقام شيخا يدرس فقه الأحناف للطلاب . ثم أوقف على ذلك كله أوقافا واسعة . وكان هذا الأمير يسكن بجوار الأزهر .

٤ – ومنذ سنة ٨٠٠ هـ فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج أقيمت منارة الجامع عدة مرات وبنى له صهريج مياه وميضأة .

٥ – وفي سنة ٩٠١ هـ أنشأ الأشرف قايتباى ميضأة جديدة فى وسطها حوض بديع ، وموردا للماء ومكتبا .

٦ – وفى سنة ٩٠٢ هـ أنشأ قانصوه الغورى منارته ذات الرأسين ، ومنحه كل سنة ٦٧٠ ديناراً ، ١٠٠ قنطار من العسل ، ٥٠٠ إردب من القمح .

فى عهد الأتراك العثمانيين : وقد تناوله كثير من الولاة العثمانيين بالإصلاح غير أن أهم إصلاح جدير بالذكر والثناء ما قام به الأمير عبد الرحمن كتخدا من أمراء المماليك سنة ١١٦٧ هـ وكان محسنا برا معنيـا بإصلاح بيوت الله وعمارتها ، وقد أنشأ بالأزهر مقصورة جديدة تشتمل على نحو خمسين عمودا فوقها المنحنيات من الحجر المنحوت ، وسقفها بخشب جيد ، وجملها بمحراب ومنبر جديدين ، فزادت بذلك سعة الجامع وأصبحت مثليها من قبل . والمقصورة الجديدة ترتفع نحو نصف ذراع عن المقصورة القديمة ، التى أنشأها جوهر وبها المحراب القديم . وقد أنشأ أيضا مكتبا لتحفيظ القرآن ومدفنا لنفسه ، ومنارة جديدة . وميضأة ، وعدة أروقة وبابين « باب الصعايدة ، وباب المزينين » ، والباب الثانى هـو أكبر أبواب الأزهر ، وأجرى على أهله كثيرا من الأرزاق مالا وطعاما وثياباً .

ويعتبر هذا الإصلاح أكبر إصلاح تناول الأزهر ، فصار من بعده مكونا من المقصورتين المسقوفتين ، ولهما باب يفتح فى صحن واسع غير مسقوف يؤدى إلى الباب الغربى وهو باب المزينين . وله جملة أبواب أخرى وعدة أروقة .

والجامع الأزهر لا يستمد عظمته من ضخامة بنائه أو نقوشه وزخرفه ، ففى القاهرة من الجوامع ما يفوقه ضخامة وسعة ، ويمتاز عنه بجمال النقش وروعة الزخرف . ولكن الأزهر يستمد عظمته من تاريخه الحافل المجيد وبما أسداه فى عصوره السالفة المتواصلة إلى الدين واللغة والعلوم .

عهود الدراســـة فيه وفضله على العــلم والأدب :

ا ـ منذ بنى الجامع الأزهر إلى سنة ٣٧٨ ﻫ لم يستخدم للدراسة بصفة رسمية . وفى هذه السنة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلّس الخليفة العزيز بالله أن يسمح له فى صلة جماعة من الفقهاء ليقرءوا دروسا بالجامع فأذن له . فأجرى لهم الوزير مايكفى كل واحد منهم ، وبنى لهم دارا بجانب الجامع . فكانوا يجتمعون بعد صلاة كل جمعة ويعقدون حلقات الدروس حتى صلاة العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين رجلا . وفى سنـــة ٣٨٠ ﻫ نظمت الدراسة فيه أفضل مما كانت عليه قبلا ، وظل الجامع من يومئذ مدرسة للمذهب الشيعى وعـــلوم الدين ، قيل وعلوم اللغة والعلوم الكونية كالطب والفلسفة والفلك ، لميل بعض خلفاء الفاطميين إليها ، وكان الفاطميون يستقدمون أفذاذ العلماء من الأقطار الإسلامية ويعهدون إليهم بالتدريس فى الأزهر مجزلين لهم العطايا . ب ـ حتى إذا مادالت دولتهم وملك بنو أيوب ، وكان مذهبهم شافعيا ، وكانوا على بينة من أن هذا الجامع مثوى المذهب الشيعى ، أبطلوا الدراسة فيه وعطلوا خطبة الجمعـــة أكتفاء بها فى مسجد الحاكم . فأصبح أمر الأزهر مقصورا على الصلاة اليومية زهاء مائة عام ، ﺣ ـ فلما أسس سلاطين المماليك دولتهم أعيدت إليه خطبة الجمعة وصلاتها بأمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ﻫ . وقد علمنا همة المماليك فى تشجيع العلم وأهله وتأسيس دوره وحشد كتبه ، وخاصة بعد نكبة بغداد . فلا غرابة أن نراهم كثيرى الحدب والعطف على الأزهر ، موســـعين فى الرزق على طلابه معنيّين بأمر علمائه . فازدهرت الدراسة فيه ازدهارا ، وأمه كثير من الطلبة على اختلاف أوطانهم ، فكان فيه المصرى والتركى والشامى واليمنى والمغربى والهندى والحجازى والتكرورى وغيرهم . فكان هؤلاء عنه لسان صدق ورسل حق ، ينشرون اسمه فى آفاق بلادهم ، عاملين بتعاليمه ، حافظين له ولمصر ولسلاطينها هذه اليد الطولى . وأهم ما كان يدرس به علوم الدين ومذاهبه الأربعة واللغة والأدب وتخرج فيـــه كثير من العلماء .

ى ـ ولما استولى العثمانيون على مصر ونهبوا أوقافها وسلبوا دور كتبها وحملوا

علماءها إلى عاصمتهم لتزدان بها دون القاهرة . أقفلت دور التعليم ، وأبطلت الدراسة فى المساجد ، وضاقت دائرة العلم على أهلها . ولم يصبر لهذه العاصفة الهوجاء إلا الجامع الأزهر ، وتلك إحدى مفاخره فبقيت فيه من الدين ومن الدعوة إليه بقية ، ومن العلم صبابة ، ومن اللغة والأدب أثارة . كانت أساسا للنهضة الحديثة .

نظام الدراسة : قيل : « كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة عمد معينة من الأزهر لا يجلس للتدريس بجوارها غيرهم . ولكل طالب فى حلقة الدرس مكان لا يتعداه . وكان يتصدر للتدريس من يشهد له العلماء والطلبة بالكفاءة . وفى عهد المماليك كان يكتب له كتاب من السلطان بتعيينه مدرسا . وفى عهد الأتراك العثمانيين كان من يريد التدريس يلقى درسا على جمع من العلماء والطلبة . فإذا تلعثم فى جواب سؤال منع « التصدّر » . وهذا النظام أقرب شبها إلى نظام منح الشهادات الجامعية العالية فى عصرنا . وقد استمر بالأزهر إلى أن كثر المتصدرون للتدريس بحق وبغير حق ، حتى بدىء فى وضع نظام الامتحانات ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨٧ هـ أيام رياسة الشيخ المهدى .

ومما هو جدير بالذكر أن الدراسة فى الأزهر كانت فى أول أمرها منتجة . دفعت كثيراً من علمائه إلى التأليف المثمر . ثم تراخى أمرها قبيل الحملة الفرنسية ، وأصبحت مناقشات لفظية جدلية لا تصل العقول بعدها إلى المعانى إلا مجهودة مكدودة وبعد ضياع زمن كبير . ومع ذلك فقد تعود الطلبة منها الصبر والدقة ، والخوض فى ميدان المناقشة دون خوف ولا وجل . وكان لذلك أثره العظيم فيهم حينما اختارهم بعدئذ محمد على باشا فى بعثاته إلى أوربا .

أسباب بقاء الأزهر فى عهد العثمانيين :

ولرب سائل يسأل : لماذا انفرد الأزهر عن مساجد القاهرة باستمرار الدراسة فيه على ضآلتها . وبعدد من العلماء والطلاب على قلتهم . ونال بذلك فضلا لا يُجحد على العلم والدين والأدب واللغة . وكان حبل الاتصال بين الماضى والحاضر ؟ ونقول أولا : إنها إرادة الله سبحانه وتعالى الذى ادخر هذا الجامع

العظيم ليقوم بتأدية رسالة روحية جليلة فى المستقبل . ثم هناك أمور منها :ـــ

(١) أن الأزهر كان أوسع جوامع القاهرة وأقربها إلى سكانها إذ ذاك . وأحفلها بأمور التعليم . فهو أولى بعنايتهم ووفودهم إليه والتعلم فيه .

(٢) أن كثيراً من أمراء المماليك ومحسنيهم كان يسكن بجوار الأزهر ، كالأمير عز الدين إيدمر الحلى ، وكالأمير سعد الدين الجدار الناصرى ، فله عليهم حق الجوار ، فأصلحوه وجددوه وأوقفوا عليه ، ورعوا أهله والوافدين إليه ، فكان لذلك أثره بعد .

(٣) أن الأزهر رُزق طائفة من علمائه ظهرت فى ميدان العلم وأفق الأدب تحب العلم لذاته ، ومنهم الورع التقى الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا تزن الدنيا فى نظره جناح بعوضة ، نافرين من المناصب وذلها ، فنالوا من وراء ذلك مكانة عالية عند العوام ، وجاها ونفوذا عند الولاة العثمانين ، وخاصة لما كان الولاة العثمانيون يبدونه من غيرة على العلم وركون إلى أهله ، أليس سلطانهم خليفة رب العالمين وأمير المؤمنين !!! ، لذلك كثيراً ما كان العوام يستعدون علماء الأزهر على الولاة أو أمراء المماليك ، فيجيبونهم ويسعون معهم حتى ترد إليهم حقوقهم ، وتدفع عنهم أسباب الظلم ، قيل : إن اتباع محمد بك الألفى ، من أمراء المماليك ظلموا أهل قرية بالشرقية لجأ أهلها مستغيثين بعلماء الأزهر ، فقام هؤلاء وعلى رأسهم شيخهم الشرقاوى إلى حاكم مصر إبراهيم بك ، وطلبوا إليه رفع الظلم ، وأن يكف أتباعه عن نهب أموال الناس وأن يسيروا سيرة حسنة فأجاب طلبهم وطلبوا حجة بهذا ! وغير ذلك كثير .

(٤) انفضاض الطلاب والعلماء عن المساجد الأخرى ، مع بقاء بعض طلاب الأزهر وعلمائه حتى انتهى عهد العثمانيين وليس بمصر متعلم سواهم .

(٥) إقامة شيخ يرأس علماء الأزهر كان يعرف بين الناس بشيخ الأسلام ، فاكتسب من ذلك جاها كان له أثره فى بقاء الأزهر ، فإذا مات شيخ هب العلماء يطلبون شيخا سواه وكان بدء ذلك فى القرن الحادى عشر الهجرى .

(٦) كون الأزهر أقدم المساجد المصرية التى قام فيها التعليم واستمر زمنا

كبيرا، فهو أفضلها وأقواها نفوذا، فلا تمتد إليه يد السوء إلا وئيدا.

بعض شيوخ الأزهر: كان خلفاء الفاطميين أو وزراؤهم، ثم سلاطين المماليك يلون أمر الأزهر بأنفسهم، حتى كان العصر العثماني فعين الشيخ الخرشي شيخا للأزهر وتوفى سنة ١١٠١هـ. ومن تلاميذه اللقاني والزرقاني والنفراوي والفيومي والقليني وغيرهم. ومن بعده عين الشيخ النشرتي شيخا للأزهر وتوفى ١١٢٠هـ. ثم عين القليني بعد نزاع بين أنصاره وأنصار النفراوي. ثم عين في المشيخة على التوالي الشيخ محمد شنن ثم الشيخ ابراهيم الفيومي ثم الشبراوي ثم الحفني ثم السجيني ثم الدمنهوري، ثم تنازع أنصار العريشي والعروسي فكانت الغلبة للعروسي، ثم الشيخ عبد الله الشرقاوي وفي أيامه غزا نابليون بونابرت مصر.

العصر الحاضر

أسباب النهضة العلمية والأدبية

الحملة الفرنسية

وصلت مصر في عهد العثمانيين إلى نهاية ما تصل إليه بلاد ضعفا واضطرابا وانحطاطا علميا وخلقيا وبعدا عن العالم المتحضر. وكان الضعف أيضا قد ساور الدولة العثمانية نفسها؛ فهيأت هذه الظروف للدولة الفرنسية غزو مصر. فأوفدت إليها سنة ١٧٩٨ م نابليون بونابرت على رأس حملة عظيمة، وقد قاتله المماليك قتالا عنيفا، لم يجدهم نفعا، أمام مدافعه، فتحصن بعضهم في الصعيد. وظل نابليون يدبر أمر مصر حتى أكرهته جيوش العثمانيين والإنجليز وثورات الأهالي على الفرار منها. ثم أخرجوا جيشه من بعده بعد أن مكث بمصر ثلاث سنوات. ثم عادت البلاد مرة أخرى تابعة للدولة العثمانية ومسرحا لفوضى المماليك واستبدادهم. فوقعت إثر ذلك في طخية عمياء وجهالة جهلاء. والذي يهمنا من أمر هذه الحملة ما يأتي:

١ - كان في عدادها جمع كبير من خيار علماء الفرنسيين تألف من ٤٨ منهم مجمع سمي «المجمع العلمي المصري» عكف أعضاؤه على دراسة مصر من

كل ناحية تاريخياً واقتصادياً واجتماعياً . وكانوا على استعداد تام للعمل على تقدمها . وقد استقدموا بعض علماء مصر وأعيانها لمشاهدة ما تدور فيه أبحاثهم ، وما تقوم به معاملهم الكيميائية ، وغير ذلك ، مما كان مثار دهشتهم وإعجابهم . وقد قام هذا المجمع بأبحاث عدة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر . ثم ضمنها سفراً قيما سمى « وصف مصر » .

٢ - أسس الفرنسيون مدرستين لتعليم أبنائهم . وأنشأوا مكتبة يطلع عليها من يشاء .

٣ - أحضروا معهم مطبعة جيدة بها حروف فرنجية وعربية طبعوا بها ما أرادوا ، وخاصة المنشورات التى كانوا يذيعونها على المصريين . وبمعونة المطبعة أخرجوا صحيفتين فرنسيتين ونشرة عربية سميت « التنبيه » ، كما طبعوا بعض كتب عربية .

٤ - وقد قام نابليون بضروب شتى من الإصلاح : منها تأليف ديوان خاص من تسعة أعضاء مصريين كان بينهم الشيخ الشرقاوى والفيومى وعمر مكرم وغيرهم . وديوان عام يضم كل من له نفوذ بين المصريين . وكان كل من الديوانيين ذا رأى استشارى فحسب .

من هذا يتبين أن الحملة الفرنسية لها فضل فى تقدم مصر كبير ، فبها بدأ اتصال مصر بأوربا . وتنبه المصريون إلى ما وصل إليه الأوربيون من علم وقوة وحضارة ، وتيقظوا إلى حقوقهم المغتصبة بيد المماليك والعثمانيين ، وإلى ضرورة اشتراكهم فى الحكم . وقد وضعت الحملة بذور الاشتغال بالعلم والطباعة والصحافة والتأليف . ولفتت الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بالمرافق الحيوية . لذلك نعتبرها أولى أسباب النهوض العلمى والأدبى فى مصر بما قامت به .

محمد على باشا (١)

يعتبر محمد على باشا رأس الأسرة المالكة المصرية مؤسس مصر الحديثة وواضع

(١) اقرأ كتاب « خلاصة تاريخ مصر الحديث » للاستاذ محمد الحسينى رخا بك ، في وصف عصر محمد على باشا وإسماعيل باشا ، والمغفور له الملك فؤاد الأول .

أساس نهضتها ، وفد إلى البلاد فى الجيش التركى الذى كافح الفرنسيين ، وكان ضابطا صغيرا . وقد هيأت له حنكته وذكاؤه أن تربع على عرش مصر واليا مختاراً من علمائها وأعيانها ، وقد ثبته فى هذه الولاية سلطان الأتراك سنة ١٨٠٥م . ومن ذلك الوقت شرع يحيى هذه البلاد ويوطد فيها ملكه العتيد . فاحتال أولا على المماليك حتى أجهز على بقاياهم ، ثم نظم لنفسه جيشا عظيما كان المصريون فى النهاية دعامته القوية ، فغزا به غزوات عدة موفقة بمعاونة ولده الأكبر إبراهيم باشا ، وبذلك امتد نفوذه وقويت هيبته ودوى اسم مصر فى الآفاق . وأصبح ملكها وراثيا فيه وفى أبنائه من بعده ، وما زال أبناؤه يتوارثون عرشها عاملين على إنضاجها وإنهاضها فى قوة وإيمان وإقدام ، حتى أصبحت اليوم بفضل جهودهم ويقظة بنيها دولة حية بدأت تقوم بنصيبها من جديد فى ميدان العلم الصحيح والأدب والتأليف والحياة الإنسانية عامة .

وقد كانت حركة الإصلاح فى عهد محمد على باشا حركة عسكرية . ولكنه فى سبيلها سلك ضروبا من الإصلاح أخرى صبغتها بالصبغة العلمية . نجمل منها فيما يأتى ما يختص بموضوعنا ويعتبر من أسباب النهوض العلمى والأدبى :

١ ـ استدعاء بعض الأساتذة الأجانب وخاصة من الفرنسيين للاستعانة بخبرتهم . فكان منهم مدربو الجيش وأساتذة المدرسة الحربية والطبية ومدرسة الألسن وغيرها . وكانوا لونا آخر من الصلات التى ربطت مصر بأوربا .

٢ ـ إنشاء طائفة من المدارس تتلخص فيما يلى : (ا) مدرسة حربية ومدرسة أركان حرب . (ب) مدرسة طبية ألحق بها مستشفى للتمرين . وكانت بجهة أبى زعبل ، ويديرها كلوت بك الطبيب الفرنسى يعاونه آخرون من أطباء الأجانب ، واختير أكثر طلبتها من المصريين ومن نابغى الأزهر . (ح) مدرسة الألسن لتخريج المترجمين : وكان يديرها رفاعة بك الطهطاوى أحد علماء الأزهر وإمام البعثة العلمية الأولى إلى فرنسا . (ء) مدرسة خاصة فى باريس ألحق بها نحو أربعين طالبا مصريا منهم بعض الأمراء . (ه) ومن المدارس الهامة مدرسة الهندسة والصيدلة والطب البيطرى والزراعة وغيرها .

ومما يذكر أن محمـــدا عليا باشا قسم التعليم إلى ثلاث مراحل : ابتدائية وثانوية وخصوصية . وفتح فى عهده نحو خمسين مدرسة ابتدائية فى أنحاء البلاد ، يساق إليها التلاميذ كما يساق شباب اليوم إلى الجندية ! ثم عهـــد بإدارتها إلى ديوان المدارس « برئاسة مصطفى بك مختار » .

٣ ـ البعثات العلمية إلى أوربا . وتتلخص فيما يأتى : (ا) بعثة حـــربية إلى إيطاليا سنة ١٨١٣ م . (ب) بعثه للعلوم والفنون الهندسية إلى انجلترا سنة ١٨١٨م . وكانتا من شبان المماليك . (ح) بعثة علمية كبرى إلى فرنسا . وتعـــد أولى البعثات لكثرة أعضائها وكثرة المصريين فيهـــا . وتكونت من ٤٤ طالبا فى مختلف العلوم من حربية وطبية وتاريخية وكيمائية وطباعة وزراعة وحفر وغيرها . وكان إمامها رفاعة بك الطهطاوى . هذا وقد تتالت البعثات فى عهد محمـــد على باشا حتى قيل إن عدد أعضائها بلغ نحو ٣١٩ طالبا ترسل عنهم التقارير إليه ويرسل إليهم تعليماته الدقيقة .

٤ ـ الترجمة : اهتم محمد على باشـا بها لضرورتها القصوى فى التعليم . فالطلبة لا يعرفون غير اللغة العربية أو التركية . والأساتذة لا يفقهون غير الفرنجية . فلابد إذن من الترجمة . وقد سلك محمد على باشا إليها سبلا عدة أهمها : (ا) استحضار طائفة ممن يعرفون العربية والفرنجية معا وكلهم من السوريين أو المغاربة أو الأرمن . واستخدموا خاصة فى مدرسة الطب فكانوا الصلة بين الأســـاتذة والطلبة . واستخلصوا من مفردات العربية وأساليبها ما أدوا به وساطتهم خـــير الأداء . (ب) إنشاء مدرسة الألسن وقد مر ذكرها . (ح) إنشاء قلم للترجمة برئاسة رفاعة بك ومعه طائفة من خريجى مدرسة الألسن . عهد إليه بترجمة ما يُحتاج إليه من كتب العلم من الفرنجية إلى العربية . فترجمت كتب فى الطب والهندسة والرياضة والفنون الحربيـــة وغيرها . وكان لهذا القلم فضل فى تحرى أساليب العربية الصحيحة ومفرداتها ، ما أمكن . فإذا عُجز عنها وضعت كلمات عامية أو دخيلة . وهكذا ، مع ترتيب الفكرة ودقة الاستنباط ، وحسن التنظيم ، مما كان خير أساس يُبنى عليه ، حتى تضطلع العربية بالعلوم الأوربية الحديثة بعـــد ما طال بها العهد على ترك مزاولة أشباهها .

٥ ـ إنشاء أول جريدة مصرية وهى « الوقائع المصرية » فى سنة ١٨٢٨ م. وكتب عددها الأول بالتركية. ثم اقتسمتها العربية والتركية. ثم زالت منها التركية وبقيت العربية. وتنشر فيها أوامر الحكومة وأخبارها وبعض الحوادث الأخرى وطرف من الفصول الأدبية والاجتماعية. وممن تولوا تحريرها الشيخ حسن العطار الذى انتهت إليه من بعدُ مشيخة الأزهر. وتعتبر الوقائع أولى الصحف المصرية بعد « التنبيه ».

٦ ـ إنشاء دار للطباعة ببولاق. طبع فيها الكثير من الكتب المترجمة فى ذلك العهد.

٧ ـ اتخاذ اللغة العربية أداة للتعبير فى الملك والسياسة والقضاء والتعليم والترجمة والتأليف. وقد حاول محمد على باشا فى بادىء الأمر اتخاذ التركية لغة رسمية، فبانت له استحالة ذلك، فعدل عنها إلى العربية فكان لها بذلك حياة جديدة.

النهضة بعد محمد على: تركز حب النهوض فى نفوس المصريين منذ نشئوا النشأة الجديدة فى أيام محمد على باشا. فلم تكن وفاته سنة ١٢٦٥ هـ — ١٨٤٩ م لتقف حجر عثرة فى سبيل استكمال أسبابه، وحقاً فتر أمر النهضة فى عهد عباس وسعيد، ولكن ما بدا نجم إسماعيل فى عرش مصر حتى هب وهبت معه أمته يسيرون سيراً حثيثاً نحو المجد والرقى حتى يصيّروا مصرهم قطعة من أوربا. وأبرز المصلحين من ملوك مصر بعد إسماعيل ابنه الملك فؤاد الأول — رحمه الله — فقد حذا حذو أبيه وجده فى النهوض بمصر حتى دبت الحياة الحقيقة فى أغلب نواحيها، وأصبحت تفضل فى الناحية الأدبية والعلمية كثيراً من بلاد الشرق بل وبعض البلاد الغربية. ولها الأمل الوطيد والرجاء الأكيد أن تسمو سموها المرتقب وتعيد سيرة مجدها الأولى، فى عهد جلالة الملك الصالح فاروق الأول، حتى تصبح بحق قدوة الشرقيين أجمع.

ونجمل فيما يأتى أهم ما قام به إسماعيل باشا من ضروب الإصلاح مما يعد فى أسباب النهوض العلمى والأدبى، مستعيناً فى ذلك بما سنه له جده من قبل. وبمن وجده من رجال البحوث، فنقول: عنى إسماعيل باشا بنشر العلم ومحو

الأمية فأعاد فتح كثير من المدارس التى أهملت أو أغلقت بعد جده . ونشر التعليم الابتدائى فى البلاد ، وأكثر من مدارسه ومن المدارس الأخرى ، حتى بلغ عددها ٤٨٠٠ مدرسة بها نحـــو ١٤٠ ألف طالب . منها ثلاث مدارس للبنات وواحدة للخادمات ، وأنشأ دار الكتب بمعونة على مبارك باشا ، وأسس دار العلوم ، ومدرسة الحقوق ، ونظم الدراسة والامتحانات بالأزهر الشريف ، وفى عهده أدخل تعديل عظيم على دار الطباعة الأمـــيرية ، كما أنشئت بعض المطابع الأهلية ، وصدرت عدة صحف غير الوقائع المصرية ، واصطبغت النهضة حينئذ بالصبغة الأدبية أكثر مما اصطبغت بالعلمية ، وبدأ نشاط الكتابة والشعر ، وبدرت بادرة التأليف .

ونجمل كذلك فيما يلى أهم ضروب الإصلاح العلمى والأدبى فى عهد جلالة الملك الراحل المغفور له فؤاد الأول فنقول : يعد عصر الملك فؤاد الأول أحفل صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، ولما كان جلالته عالما مال إلى تشجيع العلم والعلماء ، وسرت روحه هذه فى أنحاء البلاد فكثرت المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وتناولتها يد الإصـــلاح والتهذيب حسب مقتضيات الأحوال ، وافتتحت الجامعة المصرية ، وصدر قانون تنظيم الأزهر وبه صار الأزهر أكبر جامعة علمية دينية إسلامية فى العالم ، كما صدر الدستور المصرى فى سنة ١٩٢٣م وبه نص على تعليم كل مصرى ومصرية ، ولهذا كثرت مدارس البنات عـــلى اختلاف أنواعها ، كما افتتحت مـــدارس التعليم الأولى والإلزامى ، والأمل معقود فى المستقبل القريب على جعل التعليم الأولى إجباريا على وجه الدقة . وقد نشطت وزارة المعارف فى عهد الملك الراحل فى إرسال البعوث العلمية إلى أوربا نشاطا تحمد عليه ، كما بدأت فيه أولى البعثات الأزهرية بعد انقطاعها منذ عهد محمد على باشا . وقد تعددت المطابع وكثرت كثرة هائلة ، وقد ترتب على ذلك ظهور الكثير من الصحف المصرية على اختلاف نزعاتها ، وطبع الكتب الأدبية والعلمية القديمة ، فكان لها الأثر فى إنعاش روح التأليف وترقية النثر وتجديد الشعر . كما افتتح مجمع اللغة الملكى وسيكون له أثره فى ترقية اللغة .

ويلاحظ أن النهوض الأدبى الآن يساير العلمى فهما فرسا رهان. كما يلاحظ أن هناك أسباباً أخرى غير ماذكرنا كان لها يد فى هذا النهوض. ولذلك نجمل كل أسباب النهضة الأدبية والعلمية فيما يأتى :—

إجمال أسباب النهضة العلمية والأدبية :

١ ـ اتصال مصر بأوربا ثم بأمريكا :

عاشت مصر زمناً كبيراً منقطعة عن العالم. وفى خلال هذا الزمن أصبحت أوربا معهد المدنية ومنبت الحضارة ومبعث العلم والنور. ولذلك كان لاتصال مصر بها وبأمريكا فيما بعد فى هذا العصر الحديث أثر عظيم فى نهوضها بالاقتداء والتعلم. وقد كان هذ الاتصال بطرق شتى منها :

ا ـ انتشار بعض التجار الأجانب على سواحل مصر والشام. وقد زاد توغلهم فى البلاد فى أيامنا هذه. ومنهم من اتخذ مصر أو الشام وطناً فكثرت سلالتهم فيهما.

ب ـ وفود بعض الدعاة والمبشرين الدينيين من كاثوليك وبروتستانت، أوربيين وأمريكيين إلى مصر والشام أيضاً. واحتيالهم على نشر دعوتهم بطرق شتى منها : تأسيس المستشفيات وإنشاء المدارس والمطابع، وطبع الكتب العربية، ونشر التعليم باللغة العربية. وغير ذلك. تحبيباً للناس فيهم وترويجاً لدعوتهم. وقد كثر الانتفاع بهؤلاء الدعاة وأشباههم من رؤساء الطوائف الدينية الشرقية وخاصة فى بلاد الشام وبين نصاراها. ولكلية اليسوعيين والكلية الأمريكية ببيروت فضل كبير لاينكر فى إعداد طوائف متعددة من السوريين وتثقيفهم، ممن كان لهم من بعدُ أثر جليل فى نشر العربية والاشتغال بعلومها. غير أن هذه المدارس عدلت أخيراً عن التعليم باللغة العربية بعد أن ظلت كذلك نحو خمسين عاماً ! ولهذا بدأت شبيبة سوريا تضعف فى الثقافة العربية. ولكنى علمت أخيراً أن حكومتها تعنى بنشر التعليم وبالثقافة العربية. فلعل ذلك يكون ذا أثر محمود فى هذه البلاد الشقيقة. كما أن لمدارس الدعاة مشاركة محمودة

فى نشر التعليم فى مصر . وإن كان يشوبها الحث على التعلق بالمسيحية . وذلك مما نفر كثيراً من الأسر المصرية المسلمة عن تعليم أبنائها فى مدارسهم ، مفضلين عليها المدارس المصرية من حكومية وأهلية . هـ - حملة نابليون بونابرت على مصر والشام وقد تكلمنا عنها . و - استعانة محمد على باشا بالأساتذة والضباط الأجانب وخاصة الفرنسيون منهم ، على تدريب الجيش المصرى وتعليم الطلبة فى المدارس . ولا تزال الحكومة المصرية تعتمد إلى اليوم على كثير من الأجانب فى شئون مختلفة فى مقدمتها شئون التعليم . إلا أن السياسة القومية اتجهت أخيراً إلى الاستغناء عن خدماتهم بقدر الإمكان ، وإحلال نوابغ المصريين محلهم ، ولا سيما بعد أن ظهر من بينهم أفذاذ لا يقلون خبرة وعلماً عن أمثالهم من الأجانب .

ه - إيفاد البعوث العلمية إلى أوربا منذ عصر محمد على باشا إلى الآن . وقد كانت أكثرية أعضائها من الأزهريين فى بادىء الأمر ، حتى إذا ما افتتحت مدارس العلوم الحديثة والمدارس النظامية العالية ، كالطب والهندسة ودار العلوم والمعلمين العليا والحقوق وغيرها ، اتجهت الأنظار إليها فاختيرت البعثات من بين طلابها . ولكن لما انتظم شأن الأزهر ونهض من جديد ، بدأت إدارته فى أيامنا هذه توفد البعثات الأزهرية العلمية إلى أوربا - وقد حمل رجال البعثات بعد عودتهم إلى وطنهم نصيباً موفوراً من مشاق إنهاضه وترقيته .

و - انكباب الكثيرين من ناشئة مصر والشام على تعلم اللغات الأجنبية . وقد جعل تعلمها إجبارياً فى مدارس الحكومة بمصر والشام . وفى مدارس المبشرين وغيرها . بل كانت جميع الدروس أو بعضها تلقى ولا تزال تلقى فى بعض مدارسنا باللغات الأجنبية ، ككلية الطب المصرية وكلية الحقوق . ولم ينصرف عن تعلمها إلا الأزهر وفروعه مع استثناء بعض كلياته . ولتعلم هذه اللغات أثر صالح فى تثقيف الذهن ، وترتيب الفكر وتقوية الاستنباط ، وتوسيع ميدان النظر ، وتسهيل الاطلاع على الكتب الغربية فى علوم مختلفة ، والاستفادة منها بمقدار أوسع ، وتيسير ترجمتها ، وتقريب الأخذ عنها والاقتداء بها . ولذلك كان تعليمها لقاحا للعقول ، أفادت العربية من ورائه خيراً كثيرا بما أنتجته هذه

العقول والقرائح من ترجمة وتأليف وروائع كتابة بل وجيد شعر . (ز) عناية الأوروبيين بدراسة الشرق وأهله ولغاتهم وعلومهم . وقد رأينا ما كان من ذلك فى حملة نابليون . ثم ظهرت جماعات المستشرقين . وكثير منهم كان مهتما بدراسة اللغة العربية والدين الإسلامى وآدابهما وعلومهما دراسة علمية منظمة دقيقة . وطبع ما يمكن طبعه من كتبهما وإحيائها بالنشر أو الشرح أو التعليق . وقد تأسست لذلك أقسام دراسية خاصة فى جامعات أوربا ، باريس ولندن وبرلين وغيرها . كما انتشرت فيها المطابع العربية ، وألفت الجمعيات العلمية لدراسة أحوال الشرق . وكان لذلك كله أثر جليل فى إنعاش الشرقيين وإحياء العربية . ولعل من أفضل آثار المستشرقين فى هذا الباب ، تأليف دائرة المعارف الإسلامية ، التى أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ، المستشرقون : فنسنك . وهوتسما . وأرنولد . وهفننج . وبروفنسال . وباسيه . وهارتمان . وجب . (ح) كثرة رحلة الغربيين إلى الشرق وخاصة إلى مصر والشام . وكثرة ارتحال المصريين وأهل الشام إلى ربوع أوربا وأمريكا . وقد زادت الرحلة فى هذه الأيام زيادة لا بأس بها . والسوريون فى هذا الباب أنشط من المصريين ، وخاصة أهل لبنان الذين هاجر منهم كثيرون إلى أوربا وولايات أمريكا واتخذوا منها وطنا ثانياً . وهناك نشروا بلغتهم المؤلفات والمقالات والصحف فكانوا دعاة العربية فى مهجرهم . وكان عملهم هذا قدوة حسنة وحافزاً قويا لأهل وطنهم على محاكاتهم .

٢ - تاسيس المدارس :

وقد أشرنا إلى ما أنشىء منها فى عهود محمد على باشا وإسماعيل باشا والملك فؤاد الأول . وتمتاز هذه المدارس الحديثة بنظمها الدقيقة المقتبسة عن مدارس أوربا وطرق الدراسة الفنية فيها . كما تمتاز بأنها أصبحت جزءاً هاما مما تديره الحكومة برئاسة وزارة المعارف التى كانت أولا نظارة المعارف ، ومن قبل كانت ديوان المدارس . ولم تعد تعتمد على الأوقاف الخيرية فحسب . وللمتخرجين فيها الفضل فى يقظة البلاد وبعثها سواء أكانوا أطباء أم محامين أو

قضاة أو معلمين أو مهندسين أو غير هؤلاء من كتاب دواوين ، وصحافيين وشعراء . وقد نظمت امتحاناتها ورتبت لها الشهادات الدراسية ، التي اشترطت في الاستخدام بدواوين الحكومة وفي مزاولة المهن الهامة كالمحاماة والطب . وهذا الاشتراط جاء بأخرة . ولا تزال مهنة التدريس يزاولها بعض من غير أهلها . فلعل الحكومة تعالج ذلك ! هذا وقد غض وجود هذه المدارس من مكانة الأزهر فتأخر بعض التأخر عن قيادة النهضة كما كان شأنه في أول أمرها ، ولكن وضعت له النظم الدقيقة اقتداء بالمدارس النظامية ، وذلك في عهد المغفور له الملك فؤاد الأول . فعاود نهوضه وبدأ يتبوأ مكانا جديداً في تزعم النهضة العلمية والأدبية والدينية .

٣ - اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية :

وقد سبقت أيضا الإشارة إلى ذلك في عهد محمد علي باشا . ومن ذلك الوقت أصبحت لغة الدواوين هي العربية . واتخذت أداة للتفاهم في الملك والسياسة والقضاء والتعليم والتأليف . وقد شاركتها أولا التركية ثم الفرنسية أو الانجليزية . وفي عصرنا الحاضر أصبحت لها السيطرة والنفوذ في كل ما ذكرنا تقريباً إلا بعض الدواوين . كما كانت في بادىء الأمر تعروها الركاكة وضعف التأليف . وتشوبها العامية والدخيلة . ولكن بفضل جهود المعلمين في المدارس ، والقضاة ورجال النيابة والمحامين في دور القضاء ، وبفضل رجال الصحافة والتأليف ، وبفضل قادة الأمة وزعمائها من كتاب وخطباء ، ترقت اللغة ودنت من الفصاحة والملاحة ، حتى بلغت في يومنا هذا مقاما محمودا . حتى لغة العوام ! فقد نالها الكثير من الرقي والتهذيب .

ونذكر من هؤلاء . رفاعة الطهطاوي . وعلي مبارك . وحفني ناصف . وعاطف بركات . وحمزة فتح الله . ومحمد الخضري . وحسن الطويل . ومحمد عبده . وعبد الكريم سلمان . وفتحي زغلول . ومصطفى كامل . ومحمد فريد . وسعد زغلول . والحسيني بك . واللقاني بك . وعلي يوسف . وعبد الله نديم وعبد العزيز جاويش . والمنفلوطي . وعبد الله فكري . والفلكي . وقاسم أمين . وداود بركات . ويعقوب صروف . وغيرهم .

وذلك مما نبه شأن الخطابة العربية والمناظرات العلمية والأدبية . وجدد روح النقد والحجاج فى كل نواحى الحياة المصرية . ولكل ذلك أثره فى تثقيف الأذهان وتنشيط العقول وإطلاق الألسنة بالعبارة المختارة واللفظ الأنيق . ولجمال الدين الأفغانى وتلاميذه ومن بينهم الشيخ محمد عبـــده الفضل الأول فى نشوء هذه النوادى والعمل على إحيائها ونشاطها .

٥ – اقتباس التمثيل المسرحى عن الأوربيين . وقد ظهر أولا فى الشـام . وكانت الروايات دينية وخلقية . ثم سرت عدواه إلى مصر . واشتهر به الشيـخ سلامه حجازى وغيره ـ والتمثيل المسرحى أداة صالحة لبث روح الأدب والعلم والدعوة إلى الخلق الحسن . ونبذ الرذيلة . ولكنه فى حاجة إلى رجال مخلصين يتجهون به هذه الوجهة . ونظراً إلى أن النـاس لم يزالوا حتى اليوم يتخذون منه أداة للهو والتسلية لا للعظة والعبرة ، انزلق كثير من أهله إلى تملق الناس وخداعهم بتقديم مايشتهون فحسب ! فانزلق معهم التمثيل إلى التهريج . ولم يراعوا فى أسلوب التمثيل العربية إلا قليلا . بل منهم من سقط إلى حضيض العامية ودعا إلى التأليف بها . ولذلك ظل هذا الفن الجميل ينهض ويعثر حتى كاد يقضى عليه فى مصر . لولا أن تداركته عناية وزارة المعارف العمومية ، فأنشأت له معهداً خاصا لم يؤت ثمرته المرجوة فأغلقته ، وكونت فرقتها القومية ، التى تعمل على مسرح دار الأوبرا بالقاهرة . والأمل معقود على جهودها للنهوض بهذا الفن نهضة جديدة فاضلة ...

٦ – انتشار الصحافة ودور الطباعة ، وسنتكلم عن كل منهما ببعض التفصيل . وكذلك دور الكتب فى المدن كمكتبة القاهرة والإسكندرية والمنصورة وغيرها ولنا بعد ذلك ملحوظتان :

الأولى : أن النهضة العلمية والأدبية التى بينا أسبابها . كانت فى بادئ أمرها نهضة علمية ، تعنى بالعلوم الحديثة والكونية من طبية وهندسية وعسكرية وفلكية ، وما يتبع ذلك من دراسة الحساب والجغرافيـــا والطبيعة والكيمياء وغيرها . ولذلك سببان (١) الاقتباس عن أوربا ، التى قامت نهضتها بهذه العلوم غالبا . (٢) اتجاه

محمد على باشا إلى نهضة عسكرية يهيىء لها من أسباب العلم ما يقوم بحاجتها — لهذا انصرفت العناية عن علوم الدين واللغة إلا بقية منهما ظلت بالأزهر الشريف . وإلا ما اقتضته ترجمة الكتب باللغة العربية . ولما افتتحت دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، بدأت تظهر العناية باللغة والدين لذاتيهما . وقد كانت العناية بعلوم اللغة أوفر من العناية بعلوم الدين . ولذلك نشطت روح التأليف فى فنونها وخاصة تاريخ الأدب العربى . وفى السنوات القريبة انتظم حال الأزهر واختص بالدراسة الدينية ثم علوم اللغة العربية . والأمل معقود عليه فى المستقبل أن يقوم بنصيبيه من تجديد كتب الدين والزيادة عليها .

الثانية : حالة النهضة فى الشام :

يلاحظ أن بلاد الشام وغيرها من بلاد الشرق العربى تأخرت فى نهوضها عن مصر لاختلاف الظروف . فإن مصر قيضت لها أولا حملة نابليون ثم أسعدت بوجود محمد على باشا الكبير . لذلك تقدمت فيها النهضة وسبقت بها ما عداها من تلك البلاد . بينما ظلت الشام زمناً فى يد الأتراك ، ولكن ما عتمت أن تابعت مصر فى نهوضها وساعدها فى ذلك (١) وفود كثير من التجار الأجانب إليها (٢) نزوح المبشرين الدينيين من كاثوليك وبروتستانت ويسوعيين إلى ديارها ونشرهم المدارس والمطابع والمكاتب . وقد ساعدهم على تثبيت أقدامهم فى الشام كثرة نصاراها بالنسبة لنصارى مصر . (٣) ارتحال بعض أهل الشام إلى أوربا طلبا للثقافة . ولذلك نهضت بلاد الشام . وقفت على آثارها البلاد العربية الأخرى ، واتسعت دائرة التعليم والتثقف ، بعد أن كانت مقصورة على قليل من التعليم الدينى . ومما يذكر أن نهضة الشام كانت أدبية أكثر منها علمية بعكس نهضة مصر أيام محمد على باشا . وسبب ذلك أن محمداً عليا كان يحفز الهمم لتنظيم الجيش ونشر التعليم الذى يساعد على هذا التنظيم من طب وهندسة وغيرهما . فلم تكن ثمة عناية كبيرة بآداب اللغة . ولكن فى البلاد السورية لم تكن نهضة عسكرية ، وأخذت مدارس المبشرين تنشر تعاليمها بلغة البلاد وهى العربية ، فأحيت آدابها وقواعدها ومعاجمها بجانب ما تدرسه من علوم حديثة . ثم اشتغلوا بترجمة التوراة إلى العربية ، فاتجهت الثقافة حينئذ وجهة أدبية . وتجلت على مثقفى

السوريين نزعة الأدب ، ونظم الشعر وتدبيج المقالات ، والتأليف والترجمة فى فنون الأدب ، وخاصة القصص . كما اشتغل بعضهم بالتمثيل والتأليف المسرحى ، وما إلى ذلك . ثم فتحوا المدارس على غرار مدارس الدعاة .

وحقا عثرت نهضة مصر قليلا فى زمن عباس الأول وسعيد ، ولكن عادت أنضر وأكثر انتشارا فى زمن إسماعيل ، ولم تكن العناية بالجيش ونظمه على مثل ما كانت عليه أيام محمد على ، ولذلك بدأت الروح الأدبية تسود وتصبغ النهضة ، وساعد على ذلك وفود عـــدد جم من السوريين إلى مصر ، للتعلم أو الاستيطان . فأذاعوا فى ربوعها ما ألِفُوه من أدب جم بالتأليف أو الاشتغال بالصحافة أو الترجمة أو غيرها . وما زالت مصر جادة فى سبيلها حتى شأت بلاد الشام فى مضمار الأدب والعلم معا ، وما زالت لها مكانتها الساميـــة بين الشرق العربى إلى اليوم .

ومن زعماء النهضة السورية أسرة اليازجى والبستـــانى ، ومنهم ناصيف اليازجى وبطرس البستانى وسليمان البستانى ، وأحمد فارس الشدياق ، ومن جاليتهم بمصر : أسرة تقلا أصحاب الأهـــرام ، وصروف أصحاب المقطم والمقتطف ، وزيدان أصحاب الهلال .

الطبـــاعة

١ - لانحاول هنا تعداد مآثر الطباعة فهى أكثر من أن تعد ، ونجتزىء بأن نقول : إنها خير أداة ظهرت توفر أسباب العـــلم وتعمل على نشره بين كافة الطبقات ، بما أخرجته من كتب أصبح فى مقدور كل امرىء اقتناؤها ولو كان فقيرا . وسهلت سبيل التعليم والاطلاع . كما ترتب على وجودها انتشار المطبوعات على اختلاف أنواعها وخاصة الصحف والمجلات .

٢ - والطباعة إحدى الفنون الجميلة العجيبة والمخترعات الحديثة التى ظهرت أولا فى أوربا سنة ١٤٤٠م على يـــد يوحنا جوتنبرج الألمانى ثم انتشرت فى سائر أوربا .

٣ - وأول معرفة مصر بها ، أيام حمـــلة نابليون سنة ١٧٩٨م ، إذ حمـــل

معه مطبعة ذات حروف فرنجية وعربية ، كانت تطبع بها المنشورات والأوامر بالعربية ، وكذلك صحيفة « التنبيه » ، كما طبع بها كتاب صغير فى طب العيون وكتاب فى هجاء العربية والتركية والفارسية .

٤ - ثم أنشأ محمد على باشا « دار الطباعة الأهلية » ببولاق سنة ١٨٢١ م وكانت تطبع بها : (ا) الأوامر الحكومية (ب) الوقائع المصرية (ح) الكتب العلمية المترجمة إلى العربية إذ ذاك . وهذه الدار أدخلت عليها التحسينات الكثيرة فى عصور مختلفة ، وهى الآن أوسع دور الطباعة العربية فى مصر بل وفى الشرق .

٥ - وقد ظلت « مطبعة بولاق » الوحيدة من نوعها نحو ٤٠ سنة . فلما كان آخر حكم سعيد باشا أنشأت بطريركية الأقباط « المطبعة القبطية الأهلية » سنة ١٨٦٠م . ومن بعدها أخذت المطابع تزداد وتتكاثر حتى أصبحت البلاد اليوم ملأى بها . ونخص بالذكر مطبعة دار الكتب الملكية . ومطبعة شركة مصر .

٦ - وقد دخلت المطابع مدينة القسطنطينية فى منتصف القرن السادس عشر ثم اشتهرت بها مطبعة « الجوائب » فى منتصف القرن التاسع عشر . ودخلت بلاد الشام فى أوائل القرن السابع عشر على يد رهبان لبنان . ثم أدخلها الدعاة الدينيون . واشتهرت بها « مطبعة الآباء اليسوعيين » وهى أهم مطابع سوريا . وقد أسست فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولا تزال عامرة إلى اليوم . ومن بعدها انتشرت المطابع فى سوريا .

٧ - وإن المطابع بصفة عامة جادة فى : (ا) نشر الكتب الأدبية والعلمية والدينية واللغوية القديمة . (ب) وفى تجويد الطبع بانتقاء الورق وتحسين الحروف وتزويد المطبوعات بالصور والزخرف وتلوين ما يمكن منها .

٨ - ومن آثار انتشار المطابع فى مصر ، ظهور كثير من ذخائر اللغة والأدب والعلم والدين ودواوين الشعراء والموسوعات الجامعة وغيرها . مما كان مدفونا فى دور الكتب لا تصل إليه الأيدى . فأحيته المطابع وانتشرت على إثر ذلك الثقافة . فمن الكتب : خزانة الأدب للبغدادى ، ومقدمة ابن خلدون

وتاريخه، وتاريخ ابن خلكان ، والفوات لابن شاكر ، والبيان والتبيين والحيوان والبخلاء للجاحظ ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، والأغانى لأبى الفرج ، ومحيط الفيروزابادى ، ومقامات الحريرى ، وتفسير الرازى ، (ويطبع الآن طبعة أنيقة أخرى)، والجامع للقرطبي ،ودواوين كثير من الشعراء، والعمدة لابن رشيق . ثم كتب الحديث وخاصة شرح الكرمانى لصحيح البخارى، وغير ذلك . هذا إلى اهتمام المطابع بنشر المؤلفات الحديثة والكتب والروايات المترجمة مما تتداوله أيدينا اليوم . ولمطبعة بولاق ومطبعة دار الكتب بالقاهرة ، فضل كبير فى هذه الحركة .

الصحافة

١ - الصحف يقال إنها مهنة قديمة . ولكنها فى حداثتها يد بيضاء من أيادى الطباعة . ووجدت فى أوربا أولا . وهى إحدى آيات هذا الزمان . وقد صارت منبراً حراً للرأى العام فى كل أمة . تتلاقى فى صفحاتها الآراء وتشتجر الأفكار وتتحاج المبادىء والنظريات وتعترك العقول . وهى إحدى وسائل الثقافة ونشر العلم والأدب والفن والسمو بها جميعاً . ومعرض لأهلها يتبارون فيه بعرض نتاج قرائحهم وبنات عقولهم . والتنويه بمجهوداتهم . وأهم أعمالها اليوم تسجيل الحوادث والأخبار داخلية وخارجية . فهى بذلك معين للتاريخ العام والخاص . وسجل لحياة الشعب اليومية - وقد أصبحت الصحافة إحدى الصناعات العتيدة التى يتشرف بها المنتسبون إليها عند أهل الدراية والمعرفة . على أن بعض الناس يغض من شأن الصحافيين فى بلادنا . وهذا دليل جهلهم . فالصحافة اليوم تجاهد جهادا مستمرا فى سبيل الوطن ونشر العلم والأدب . فهى تؤدى للبلاد أشرف الخدمات . والآن تجاهد فى سبيل تكوين نقابة تجمع شمل الصحافيين ، وتنافح عن حقوقهم ، وتهذب أوساطهم . ولعلها بالغة ما تريد قريبا ! ويندس بين أهل الصحافة كثير من المتطفلين والامعات ، وقليلى الحظ من التعليم ! فلعلنا نرى فى المستقبل القريب ببلادنا كليةً خاصة لتخريج الصحافيين واشتراط الشهادات الدراسية للعمل فى الصحافة !

٢ ـ وأول معرفة مصر بالصحافة كانت فى عهد الحملة النابليونية ، أيام كانت تصدر « التنبيه » ، وهى نشرة أخبار كان يحررها الكاتب الشاعر الأديب السيد إسماعيل الخشاب لقاء بعض الدراهم .

٣ ـ ثم أصدر محمد على باشا الكبير الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨م ، فكانت بحق أول الصحف المصرية ، وقد أشرنا إليها آنفاً ، ولا تزال تصدر بالعربية حتى اليوم مقصورة على الأخبار الرسمية للحكومة ، بعد أن كانت تنشر بها المقالات الاجتماعية وغيرها ، وممن تولوا تحريرها حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوى ومحمد عبده يعاونه سعد زغلول ، وغيرهم .

٤ ـ ولم تصدر بعد الوقائع صحيفة أخـــرى حتى سنة ١٨٦٥ م فأصدر المرحوم محمد على البقلى باشا مجلة طبية شهرية سماها « اليعســـوب » ، ثم أصدر المرحوم عبدالله أبو السعود أفندى « وادى النيل » الأولى سنة ١٨٦٦م مرتين فى الأسبوع ، ثم أصدر المرحومان إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال « نزهة الأفكار » سنة ١٨٦٩ م مرة فى الأســـبوع ، ثم ظهرت « روضة المدراس » سنة ١٨٧٠ م وكان يكتب فيها زهرة مصر وعباقرتها إذ ذاك أمثال رفاعة بك ، على مبارك ، اسماعيل الفلكى ، حسين المرصفى ، عبد الله فكرى ، ثم صدرت للأقباط صحيفتان هما « الوطن » سنة ١٨٧٧م « مصر » سنة ١٨٩٥ م ولا تزال موجودة ، وقد تتالى إصدار الصحف المصرية فمنها « الكوكب الشرقى » لسليم حموى سنة ١٨٧٣م ، « الأهرام » سنة ١٨٧٦م لسليم وبشاره تقلا ، و « المحروسة » لأديب إسحق وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ م ، و « المقطم » لفارس نمر ويعـــقوب صروف سنة ١٨٨٨م ، ثم « المؤيد » للشيخ على يوسف سنة ١٨٨٩م وهى أول صحيفة مصرية أسسها مصرى ، وكانت لسانا للأمة وترجمانا للسلمين ، وغذاها كثير من رجال مصر بالمال أو بالكتابة ، وخصوصا فى بدء نشأتها . ثم ظهرت اللواء سنة ١٩٠٠ م لصاحبها مصطفى باشا كامل ، فكانت شواظ نار على المحتلين ، ولسانا للحزب الوطنى أول الأحزاب السياسية فى بلادنا بعد الاحتلال ، ومن الصحف الأخرى : العلم ، « الجريدة » كان يحررها سعادة أحمد لطفى السيد باشا .

والشعب . والأخبار « صاحبها ومحررها المرحوم أمين الرافعي » . والتنكيت والتبكيت « لعبد الله نديم » . الأفكار ، النظام ، الجهاد ، وكوكب الشرق .

وقد تنوعت هذه الصحف بمضى الأيام فصار منها التجارى المحافظ على حياده . ومنها الحزبى . ومنها المصور والفكاهى ، واليومى والأسبوعى والشهرى « المجلات » والصباحي والمسائى .

وكثيراً ما كانت تصادف الصحف عقبات سياسية أو مالية تعوقها عن الاستمرار . على أن بالبلاد الآن عدداً لا بأس به نذكر منه : الأهرام ، المقطم الوفد المصرى ، المصرى ، البلاغ ، وادى النيل ، الدستور ، السياسة ، وكلها يومية . والرسالة ، آخر ساعة ، الراديو ، روزاليوسف ، الكشكول ، المصور ، اللطائف المصورة ، وكلها أسبوعية . والهلال والمقتطف وهما شهريتان .

وكثير من الجمعيات الأدبية والرياضية والنقابات والمصالح ، ومدارس الحكومة يصدر مجلات شهرية عظيمة القيمة فى نشر الأدب والعلم والثقافة ، منها : مجلة الأزهر ، وجمعية الشبان المسلمين ، وقسم التعاون بوزارة المالية ، ونقابة المحامين الأهلية والشرعية ، وجماعة دار العلوم .

٥ ـ وقد اشتغل السوريون بالصحافة أيضاً ، بل كانو أسبق من المصريين جرياً فى ميدانها . وساعدتهم ثقافتهم الأدبية على ذلك . بل ولهم الفضل فى تأسيس هذه الصناعة فى مصر نفسها . فكثير مما ذكرنا من الصحف فى مصر أسسته أيد سورية كالأهرام والمقطم والمقتطف والهلال . ولم ينافسهم المصريون فى هذه الصناعة منافسة حقيقية إلا بعد زمن كبير ، وأول صحيفة ظهرت فى سوريا « حديقة الأخبار » سنة ١٨٥٨ م لصاحبها أحمد فارس الشدياق .

٦ ـ لغة الصحف والمجلات : لاشك أن أصحاب الصحف المصرية جادون فى إدخال التحسينات عليها وتنظيمها وتبويبها ، وجعلها وافية بحاجة القراء . وأهم ما نُعنى به لغتها وأسلوبها ، ولا شك أيضاً أن لغة الصحف ارتقت رقياً تدريجياً وبلغت اليوم حداً يُحمد عليه أهلها ، من إناقة وانسجام وبيان ، ولها بذلك الأثر الصالح فى ترقية أساليب قرائها ، وإفادتهم الكثير من تراكيب اللغة

السليمة بفضل ما تتخيره من كلام أرباب اللسان والفكر والبيان ، ممن تصدوا لتغذيتها بالكتابة أو الخطابة أو الشعر أو الاقتباس . وفى مقدمة الصحف من هذه الناحية الأهرام والمقطم والبلاغ والرسالة ومجلة الأزهر وجماعة دار العلوم والهلال والمقتطف ، وخاصة تلك المقالات الرئيسية التى يكتبها رؤساء التحرير فى الصحف اليومية . ولكن مما يؤسف له أن الحزبية السياسية ومالأة بعض الصحافيين للناس ، وضعف كثير منهم عن سوق التراكيب الجزلة والعبارات البليغة ، وحب الإسراع فى نشر المعانى والأفكار والأخبار ، كل أولئك زج ببعض الصحافيين فى تيار العامية ومحيطها ؛ فتخللت ألفاظها وأساليبها وأمثالها مقالاتهم . وظهر ذلك فى بعض الصحف اليومية والأسبوعية . كما أسف أسلوبهم فى مهوى السباب والتنابذ والنقد الجارح ، ونود لو برئت الصحافة من ذلك .

كما يلاحظ أن الصحف اليومية أخذت نفسها الآن أولا بأن تكون أداة لنشر الأخبار وآلة لرصد الحوادث الهامة فى الداخل والخارج ، وأدى هذا ببعضها إلى ألا تتعمق فى البحوث العلمية والأدبية والعقلية والفنية ، فإذا تعرضت لها فتعرض سطحى وفى عجالات سريعة ، فأصبح الباحث المدقق المتعمق فى بحث ما لا يجد فيها طَلِبته . ويظهر أنها تركت هذه المهمة للكتب والمؤلفات تقوم بها .

المجمع اللغوى

أمنية جاشت بها النفوس المخلصة للغة ، المحبة للسان العربى المبين ، حينما رأت ما دهى العربية من نكوص إلى الوراء ، أو جمود عن مسايرة العلم الحديث وخاصة أن الأمم التى نهضت بأسباب الحضارة وضروب المخترعات أمم أوربا . وأصبحت وسيلة الشعوب الوحيدة إلى النهوض والبعث والتجديد الاقتباس منها والاهتداء بهديها ، والاسترشاد بآرائها والأخذ عنها . فاغترفت مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى من هذا المعين الفياض ، ولم يمهلهم الزمان حتى يقلبوا فى صفحات معاجمهم اللغوية ويبحثوا بين المدفون من كتب العلم والأدب العربى ، حتى يستخرجوا منها الألفاظ والمصطلحات والعبارات الدقيقة ، التى يمكن بها

تأدية المعانى المقتبسة من أمم أوربا ، بالجوار أو التعليم أو الاحتراف أو غير ذلك . فقهرتهم المصطلحات الأوربية ، والأساليب الأجنبيـــة ، وطرق الأداء الفرنجية وغلبتهم على أمرهم ، حتى لقد نشأت ناشئة اليوم معترفة على نفسهـا بالعجز ، مع اتهام اللغة نفسها به ! وعلم الله أنها من ذلك العجز براء ، وقد منحها الله سُبل البقاء والنشاط من اشتقاق ومجاز وتعريب وغيرها . وقد أدت هذه الحالة إلى ازدياد الخوف على العربيـــة أن تنسخها اللغات الأوربية شيئا فشيئا وتحل محلها فى كلام أهلها . فست الحاجة إلى تأسيس المجمع اللغوى ليدرأ عنها أسباب الخوف ، ويفيض لها حياة أخرى جديدة تساير بها نهضة العلوم وتقدم الحضارة فى عصرنا الحاضر . وقد تأسس هذا المجمع بإشارة جلالة المغفور له ملك مصر العظيم فؤاد الأول سنة ١٩٣٢ ، فأصبح إحدى مفاخر مصر ، واختير أعضاؤه من جهابذة اللغة ودهاقنها من مصريين وشرقيين وفرنجة مستشرقين ، فقسموا أنفسهم لجانا عدة وشرعوا يرهفون سيوفهم لنجدة اللغة ، وقد برهنوا فى الأيام القصيرة الماضية على أنهم أهل لحسن الظن بهم ، وقد نشروا الكثير من بحوثهم فى مجلة سنوية عظيمة القيمة ـ وقد نص فى مرسوم إنشائه على مايقوم به فمن ذلك :

١ ـ أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدد فى معاجم أو تفاسير خاصة أو بغـــير ذلك من الطرق ، ماينبغى استعماله أو تجنبه من التراكيب .

٢ ـ أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية وأن ينشر أبحاثا دقيقة فى تاريخ بعض الكلمات وتفسير مدلولاتها .

٣ ـ أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحـــديثة بمصر وغيرها من البـــلاد العربية .

٤ ـ أن يبحث كل ماله شأن فى تقدم اللغة العربية ، مما يُعهـــد إليه فيه بقرار من وزير المعارف .

هذا ويظهر أن النية متجهة إلى تجديد قانونه بحيث يؤلف تأليفا جديدا أفضل مما هو عليه الآن، وبحيث يوجه إلى طريق للعمل أنجع من طريقه المرسوم له.

المدارس

أشرنا عند الكلام على أسباب النهضة، إلى ما تأسس فى البلاد من المدارس المختلفة فى عصور مختلفة، كمدرسة الطب والهندسة والألسن ثم دار العلوم. فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها هنا - فعُد إليها - وحسبنا أن نقول: اليوم أصبحت فى البلاد وزارة للتربية والتعليم، هى وزارة المعارف العمومية ساهرة على نشر التعليم بين الشعب، عاملة على الإكثار من المدارس النظامية على اختلاف درجاتها وأنواعها. وقد أصبح لهذه المدارس فضل أى فضل فى بث الثقافة وإزالة الأمية وتنبيه الوجدان وتقويم اللسان، بهمة ماضية وجهد مشكور، يبذلها مدرسوها الأفاضل، وخاصة مدرسو اللغة العربية فيهم، وبينها اليوم مدارس صناعية وتجارية كثيرة. كما كان بينها مدرستا المعلمين العليا والقضاء الشرعى، وقد أغلقتا أخيراً، وحل محل الأولى معهد التربية وبعض أقسام الجامعة المصرية، وحل محل الثانية كلية الشريعة بالأزهر الشريف.

الأزهر الشريف

وبيان الأطوار التى مرت به من عهد العثمانيين إلى اليوم

نذكر أنه حينما أغار نابليون بحملته على مصر، واصطنع الإسلام وسيلة إلى خداع المصريين، كان لا بد له من التودد إلى علماء الأزهر، وهم جلة علماء الدين فى ذلك العهد. وقد أدخل بعضهم فى الديوان. وفى هذا دلالة على مكانتهم من الشعب. وتجلت هذه المكانة من بعدُ باختيارهم مع جمع من أعيان البلاد محمدا عليا باشا واليا على مصر، وموافقة خليفة العثمانيين على ذلك الاختيار. وقد بدأ محمد على باشا ينهض بالبلاد، والأزهر هو المعهد العلمى الوحيد بها. فاتخذ من نابغى طلبته وعلمائه كثيرا من: (١) أعضاء البعثات العلمية. (٢) طلبة المدارس الحديثة التى افتتحها كالطب والألسن والهندسة وغيرها. (٣) محررى الوقائع

المصرية . فكان الأزهر بذلك المعين الذى استمد منه كثيراً من رجال نهضته .

ثم فتر أمر النهضة من بعده حتى عصر إسماعيل باشا ، فافتتحت مدارس نظامية جديدة ، وظل الأزهر على حاله لجمد دون مسايرة النهضة العلمية والأدبية مسايرة تذكر ، وحلت محله هذه المدارس . وحقا أدخل عليه فى ذلك الوقت نظام الامتحان ، وكان شفويا . وذلك فى أيام رئاسة الشيخ المهدى العباسى سنة ١٢٨٧هـ ، واقتضى هذا النظام : أن يكون الطالب قد درس بعض الكتب الكبيرة كالسعد أو جمع الجوامع ، ثم يقدم طلبا . ويُتحرى عن سيره وخلقه وحقيقة حاله . ثم يختار له « التعيين » وهو عبارة عن درس من كل من العلوم الأحد عشر الآتية : الحديث . التفسير . الأصول . الفقه . التوحيد . المنطق . النحو . الصرف . البيان . المعانى . البديع . ثم تنعقد للطالب لجنة امتحان برئاسة شيخ الأزهر ، وفى منزله ، وبعضوية عدد من كبار العلماء ، يتولون سؤاله فى مواد التعيين ، وهو يجيب . فإذا نجح يمنح شهادة بعالميته إما من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة ، حسب قوة إجابته . ثم تختم الشهادة بخاتم الخديوى ويخلع عليه « فرجية وشريط مقصب يوضع فى العمامة » ، وذلك لباس التشريفات . فإذا خلت وظيفة بين وظائف علماء الأزهر ، حل الطالب الناجح فيها . وكان عدد الذين يتقدمون لهذا الامتحان قليلا جداً قيل لا يزيد على ستة ـ ولكن بمضى الزمان زاد وكثر .

هذا وحقا أيضا فتحت مدرستا دار العلوم والقضاء الشرعى واستمدت كل منهما طلبتها من الأزهر زمنا كبيرا . ولكن ذلك لا يعتبر إصلاحا للأزهر نفسه ، لاستقلال كل من المدرستين عنه .

ولما كان عصر عباس الثانى وظهر فى ميدان الأزهر الشيخ محمد عبده توسل بضروب كثيرة من الحيلة متخطيا ما صادفه من عقبات إلى إصلاح هذا المعهد الدينى الاسلامى العظيم ، فأدخلت إليه نظم وإصلاحات عدة منها : (١) تأسيس المكتبة الأزهرية (٢) إنشاء مجلس الإدارة ـ المجلس الأعلى ـ سنة ١٣١٢هـ . (٣) زيادة الكتبة والموظفين . (٤) تنظيم مرتبات الموظفين وزيادتها .

(٥) تقرير دراسة العلوم الرياضية بفتوى من شيخ الأزهر الشيخ محمد الإنبابى ، ومفتى الديار الشيخ محمد البنا سنة ١٣٠٥هـ . (٦) إنشاء شهادة «الأهلية» بعد دراسة ثمانى سنوات و «العالمية» بعد اثنتى عشرة سنة ، لمن تعلم : (علم الكلام . الفقه الحديث . التفسير . الأخلاق . الأصول . النحو . الصرف . البلاغة . البديع المنطق . مصطلح الحديث . العروض . الحساب . الجبر) ، ثم انقسمت الأهلية إلى قسمين ابتدائى وثانوى . ثم امتد الثانوى إلى خمس سنوات بدل أربع ، ولا يزال كذلك حتى اليوم . (٧) وفى سنة ١٣٢٧ قد نظمت الدراسة بجداول ومواعيد وقررت الامتحانات التحريرية والشفوية والعطلات المدرسية ثم تقرر الإنشاء والأدب العربى وتاريخه وغير ذلك .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول صدر مرسوم بإعادة تنظيم الأزهر سنة ١٩٣١ م . فغيرت المناهج وأصبح الأزهر وفروعه فى أنحاء البلاد أكبر جامعة علمية إسلامية فى العالم كله . وانقسمت فيه مراحل الدراسة إلى (١) ابتدائية فى أربع سنوات . (٢) ثانوية فى خمس سنوات . (٣) عالمية فى أربع سنوات . ولها كليات ثلاث : كلية أصول الدين وكلية الشريعة . وكلية اللغة العربية . (٤) ثم أنشىء نظام جديد للتخصص حل محل التخصص القديم . وتختلف مدده باختلاف المواد ـ وخصصت الشهادات لكل مرحلة . وعُيِّنت لها كذلك الدرجات الفنية التى يوظف فيها حاملوها .

وبعد هذا القانون عدلت المناهج مرة أخرى . وروعى فى هذا التعديل أن يكون الأزهر معهداً خالصا للدراسات الدينية واللغوية . ولذلك حذف أكثر المواد الرياضية ، فى الأقسام الثانوية . وبقى بعض منها يسير فى الأقسام الابتدائية .

ومنذ بدىء فى إدخال النظم الدراسية والإصلاحات الحديثة فى الأزهر ، روعى اتباع الطرق الفنية والنظم الدقيقة فى التعليم بقدر المستطاع ، فأخذت طريقة الدراسة القديمة فيه تتلاشى حتى لم يعد لها اليوم إلا وجود يسير . غير أنها ستجدد مرة أخرى فى الأقسام العامة التى تقرر إنشاؤها .

بذلك كله كثر إقبال الطلاب على التعليم بالأزهر. وخاصة أنه يمتاز فى تعليمه بالمجان عن بقية المدارس النظامية الأخرى فى مصر. فأمه العـــدد الجم من المصريين، كما وفد إليه طلاب من مسلمى الصين وجاوة والهنـد والأفغان والعراق والشام والمغرب والسودان وبعض دول أوربا وغيرها. هذا كله رغم ما سنه القانون من تحديد السن والكشف الطبى وحفظ القرآن كله. مما اضطر إلى تحديد عدد المقبولين، مراعاة للميزانية والأموال المخصصة للأزهر. وبهذه المناسبة نقول إن الأزهر مع فروعه لم يعد يعتمد على مال الأوقاف فحسب. بل أصبح مصلحة حكومية هامة، تهيمن الحكومة من الناحية المالية عليه. وأصبحت مسئولة عن كافة ما يتطلبه إصلاحه من مال ولو لم يكفه دخل أوقافه.

وقد كانت هذه الحالة الجديدة دافعة للأزهر إلى الأمام. فخلع رداء جموده، وأقبل أهله على العلوم والمعارف بشغف جديد. لذلك أخـذ ينتظم مرة أخرى فى سلك الحياة الصحيحة، ويستعيد مكانته وزعامته للأمـة وللشرق، وخاصة فى ناحية التعليم الدينى. كما بدأ يتصل بأوربا بوساطة بعثاته العلمية إليها. ومما هو جدير بالذكر أن الأزهر رغم ما أصابه فى الأزمنـة الماضية لم يتخل أهله مرة عن المغامرة فى الجهاد الوطنى القومى. بل لقد كان الأزهر فى سنة ١٩١٩ مبعث الثائرين ومذكى نار الوطنية ومجتمعاً عاماً للمجاهدين. كما كان لكثير من أفذاذه يد عاملة فى هذا الجهاد. ساعدهم على ذلك ما ربوا عليه من حرية التفكير وقت التعليم. وما عودوه من الصبر فى الجدال — وما من أديب أو مؤلف أو صحافى أو خطيب فى عصرنا وقبيله إلا له صلة بالأزهر قريبة أو بعيدة.

ولقد عنيت الأسرة المحمدية العلوية منذ عصر محمـد على بترميمه وتجديد بنائه والزيادة فى أروقته. وتعهده سمو الخديوى عباس الثانى فأمر بإجراء بعض الترميم والتجديد والنظام الإدارى والدراسى كما أشرنا من قبل. وإدخال الإضاءة بغاز الاستصباح بدل الزيت. وفى عهـــده تعددت أبوابه وأورقته، وخصص له طبيب ومساعد له وصيدلية، لتطبيب أهـــله. كما أسست معاهد دينية فى الأقاليم وخاصة معهد الإسكندرية أول المعاهد النظامية. وأبطل التعليم بالجلوس على الحصر أرضاً منذ زمن.

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول ، جددت مبانى المعاهد فى طنطا والزقازيق ، وبنى معهد أسيوط الفخم . وبنيت بعض المساكن ودور الدراسة فى القاهرة للمعهد الثانوى والكليات . وجهزت المعاهد بكل الأدوات التى يُحتاج إليها فى التعليم · وخاصة معامل الطبيعة والكيمياء والأجهزة والمصورات الجغرافية وغيرها .

وقد كان من حسن الطالع فى عهد مليكنا المحبوب فاروق الأول ، أن أمر — حفظه الله — بفرش الأزهر بالسجاجيد المصرية الفاخرة ، كما أنشىء معهد شبين الكوم فى هذا العام سنة ٣٧–٣٨ . وهناك ثلاث معاهد أخرى على وشك الافتتاح فى بني سويف وسوهاج وقنا كما ينتظر افتتاح غيرها . وقد تفضل جلالة الملك فقرب إليه أهل الأزهر وشملهم بعطفه الكريم . وفى مقدمتهم شيخهم الوقور الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى ، الذى لشخصيته الفذة ورأيه الصائب وشجاعته النفسية أكبر الفضل فى توجيه نظر الأمة والحكومة معاً إلى ضرورة العناية بالأزهر ، وإبقائه مفخرة لمصر وللشرق وللإسلام . ولذلك جدت الحكومة فى تيسير سبيل العمل لخريجيه حتى يساهموا مساهمة حقيقية فى خدمة البلاد .

وممن تولوا مشيخة الأزهر منذ عهد محمد على باشا : أصحاب الفضيلة العلماء الأمجاد ومنهم الأديب والمؤلف : الشنوانى ، محمد العروسى ، الدمهوجى ، حسن العطار ، القويسنى ، الصائم ، الباجورى ، مصطفى العروسى (وهو أول من فكر فى إدخال الامتحانات بالأزهر فثار عليه الطلبة فاستقال) والمهدى (وهو الذى أدخل الامتحان السابق ذكره) والإنبابى وحسونة النواوى (ثم استقال) . عبد الرحمن النواوى ، سليم البشرى (ثم استقال) ، محمد البيلاوى ، الشربينى ، ثم أعيد الشيخ النواوى ثم استقال ، وأعيد البشرى ثم استقال . وفى سنة ١٣٣٥هـ تولى المشيخة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى ، ثم عين فيها سنة ١٣٤٧هـ الأستاذ الأكبر فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى ثم استقال سنة ١٣٤٨هـ ، فعين فيها فضيلة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ، وفى عهده نشبت مشادة بينه

وبين الطلاب وبعض العلماء، أدت إلى ثورة قاسية امتدت زمناً وانتهت باستقالته سنة ١٣٥٤هـ. فأعيد إلى مشيخة الأزهر ثانيا، فضيلة الأستاذ الأكبر الحالى الشيخ محمد مصطفى المراغى، وقد أشرنا من قبل إلى ما لشخصيته البارزة فى الأوساط العالية، وإلى ما لآرائه وسداد نظره من فضل فى رفعة شأن الأزهر وتحقيق مآرب الأزهريين، وتوجيههم إلى خير الدين والبلاد.

دار العلوم ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م

المعهد العتيد، حصن العربية، وباعث آدابها، ومحيي علومها، ومقوم لسان الجيل الجديد. أسسها المرحوم على مبارك باشا بأمر خديوى مصر إسماعيل باشا وألحقت بدار الكتب وروعى أن يختار طلبتها نحو خمسين من متقدمى الطلبة فى الأزهر، بين سن ٢٠و٣٠ سنة، وترتيب جنيه مصرى لكل منهم شهريا. كما روعى فى دراستهم أن يزودوا بالعلوم العربية والشرعية والحديثة، ليجمعوا بذلك بين قديم العلم وحديثه، وليكونوا بعدئذ معلمين للغة والدين فى مدارس الحكومة. وقد شهدت هذه الدار جملة تقلبات ونظم فمنها :-

١ - فى البناء: كانت أولا ملحقة بدار الكتب الخديوية ثم استقلت عنها وزاد عدد طلبتها، ثم اختير لها مكان فى درب الجماميز ومكان جهة الصليبة قرب سبيل أم عباس، ثم أعد لها بناء خاص بشارع المنيرة عند تقابله بشارع المبتديان، واتسع هذا البناء بتوالى الأيام حتى صار ضخما، وهو موضعها الآن.

٢ - فى المكافآت: يُعلَّم الطلبة بالمجان، وكان كل طالب يعطى جنيها فى الشهر، ثم حبس هذا المبلغ، وتقرر تقديم طعام الظهيرة للطلبة جميعا، وحينما أنشىء القسم التجهيزى سنة ١٩٢٠م تقررت مكافأة المتقدمين، فيعطى بعضهم جنيهين، وبعضهم جنيها كل شهر، ترغيبا للطلبة فى الانتظام فى سلك هذا القسم، وتشجيعا لهم على العمل والجد. ولما زاد عدد الطلبة وشوهد إقبالهم الشديد على القسم التجهيزى، حبست هذه المكافأة عنهم. وتوزع الكتب والأدوات الكتابية إلى اليوم بالمجان.

٣ - الزى : كان الطلبة يلبسون العمامة حتى سنة ١٩٢٦م ، وفيها اتجهت أذهان الطلبة عامة فى مصر إلى توحيد الأزياء سعيا فى توحيد القلوب وإزالة الفوارق الطائفية ، وعقدوا لذلك المؤتمرات . لذلك سارع طلبة دار العلوم إلى ارتداء الزى الأوربى . فلاقوا عنتاً شديداً وقسوة هائلة من أولى الأمر حينئذ ، ولكنهم تغلبوا على ذلك كله ونفذوا فكرتهم . ولا يزالون حتى اليوم يرتدون هذا الزى .

٤ - فى نظم الدراسة : كانت تدرس بها العلوم العربية والشرعية والحديثة . وفى سنة ١٨٧٥ طبع منهج الدراسة فيها ، ويحتوى على تدريس العلوم الآتية (التفسير . الفقه . الأدب . النحو . الصرف . علوم البلاغة . العروض . التاريخ . الجغرافيا . الحساب . الهندسة . الكيمياء . الطبيعة . الخط .) ، ثم تقررت دراسة الإنشاء . ثم نظم تدريس التربية العلمية وتاريخها ، والتربية العملية . كما جهزت المدرسة بمعمل للطبيعة والكيمياء ضخم ، وكذلك زودت بأجهزة ومصورات للجغرافيا والأشياء . وأسست بها مكتبة لا بأس بها . واختلفت مدد الدراسة فيها ، فكانت مرة ثلاثاً ثم خمساً ثم أربعاً . حتى إذا كانت سنة ١٩٢٠م ، وضع لها نظام جديد يقتضى إنشاء قسم ثانوى مدته أربع سنوات (زيدت بعد ذلك إلى خمس) . وقسم عال مدته أربع سنوات أخرى . وكان منهج الثانوى هو بعينه منهج المدارس الثانوية بوزارة المعارف ، خالياً من اللغة الأجنبية والترجمة . وحل محلها بعض التوسع فى العلوم العربية ، ودراسة نظام الحكومات وحياة الحيوان والنبات . وروعى فى القسم العالى أن يكون تخصصاً فى علوم العربية والدين والتربية علمية وعملية . وأن يكون نظامه أقرب إلى نظام الجامعات ، مع دراسة بعض الكتب الأزهرية كالأشمونى والسعد . وتقررت دراسة التربية العلمية وتاريخها فى السنة الأولى والثانية ، ثم التربية علمية وعملية فى السنة الثالثة والرابعة . وتقررت دراسة فقه اللغة العربية . وأول دراسة لهذا العلم كانت فى هذه الدار . وظلت اللغة الإنجليزية تدرس دراسة إجبارية زمناً ثم جعلت اختيارية ثم عادت إجبارية فى القسم التجهيزى . ثم أغلق هذا القسم نهائياً اكتفاء بالأقسام الثانوية للأزهر والمعاهد الدينية . واقتصرت دار العلوم على قسمها العالى فقط .

ودرجت وزارة المعـــارف منذ زمن كبير على إيفاد فريق من نابغيها إلى أوربا ، للتزود من العلوم والثقافة . وكان يختـــار للتدريس فى هذه الدار أفذاذ العلماء من الأزهر ، ثم شاركهم خريجو المدارس الأخرى ورجال البعثات .

٥ ـ فضلها :ـ اعترف بفضلها قادة الأمة وكبار ساستها وزعمائها ، فى مقدمتهم المرحوم الشيخ محمد عبده . وقد انبث خريجوها فى مدارس الحكومة والمدارس الأهليـة ، وبين المنتديات والمجالس وإدارات الصحف والمجلات ، يعلّمون ويكتبون وينظمون الشعر ويخطبون وعدتهم فى ذلك كله لغة يحملون أمانتها ويؤدون رسالتها . لذلك عم فضلهم أهل الجيل الحاضر ، وما من أديب أو كاتب أو خطيب أو مؤلف فى أيامنا ، إلا وهو غرس يمينهم ، ونتاج جهودهم وثمرة نشاطهم ودأبهم ، وشاهد عدل على فضلهم ، ولم يدع أبناؤها ـ طلبـــة وخريجين ـ فرصة للاشتراك فى إنهاض البلاد إلا انتهزوها ، فكانوا يداً واحدة مع المجاهدين ، بل كان منهم بعض القادة والزعماء ، ومن جهابذتها : عاطف باشا بركات (نفى فى سيشل مع ســـعد زغلول باشا) ، وحفنى ناصف القاضى والشاعر ، وعبد العزيز جاويش العالم والخطيب والصحافى والزعيم الوطنى ، ومحمد الخضرى المؤرخ الاسلامى ، ومحمد عبد المطلب الشاعر البدوى ، وأحمد الاسكندرى ـ رحمه الله ـ وهو أكبر أدباء جيلنا وأعرفهم باللغة وواضع المصطلحات العلمية . وغير هؤلاء كثير . وبين ظهرانينا عدد من أعلامهم ممن ألفوا فى الأدب والتاريخ وفقه اللغة والتربية وتاريخها وعلم النفس ، وفى النحو والصرف والبلاغة .

والآن : تهب على هذه الدار رياح عاصفة لاندرى بعدها ما الله فاعل بها ! . فبين رجال وزارة المعارف والجامعة المصرية والجامعة الأزهرية مشادة ، ولكل منهم وجهة نظر فيما يتعلق بأمر هذه المدرسة . وقد ألفت وزارة المعارف أخيراً لجنة إصلاح لها . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

الجامعـــة المصرية

مؤسسة العلم الحديثة ، والممسكة بيمينها مشعل النور والحرية ، والباثة فى نفوس النشء روح التفكير الحر النزيه ، والداعية إلى حب العلم لذاته ، والمثيرة

غريزة الاطلاع وحب البحث - ويرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة ١٩٠٦ م . كما يرجع فضل التفكير فيها إلى طائفة من قادة الأمة وسراتها . وفى مقدمتهم المرحومان مصطفى كامل باشا وسعد زغلول باشا - وقد اكتتبت الأمة لمشروع الجامعة بكثير من مالها ، وأول المكتتبين مصطفى كامل الغمراوى بك ، وخير يد تقدمت إلى معونتها يد الأميرة فاطمة هانم اسماعيل بما وهبت لها من مال وحلى وأوقاف . وافتتحت الجامعة سنة ١٩٠٨ م . يديرها مجلس إدارة من علية القوم على رأسهم المغفور له الملك فؤاد الأول أيام كان أميرا . معتمدين فى ذلك على أوقافها ، وظلت الجامعة « الأهلية » تكبو مرة وتنهض أخرى . وانتظم فى سلكها كثير من طلاب الأزهر ودار العلوم والمعلمين العليا وموظفى الحكومة والراغبين فى التزود من العلم من مصريين وغرباء . تلقى عليهم فيها المحاضرات فى شتى المعارف والعلوم واللغات ، من كبار أهل العلم فى البلاد أمثال المرحوم حفني ناصف ومحمد الخضرى ، ومن الأحياء : الدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمى والدكتور أحمد ضيف والدكتور على العنانى وغيرهم . ومن الأجانب الكونت دى جلارزا الحكيم . -

وظلت شهاداتها قليلة الجدوى غير معترف بها . حتى قيض الله لها المرحوم فؤادا الأول ملكا على مصر ، فأقال عثارها ، وأمر سنة ١٩٢٥ م فتحولت إدارتها إلى وزارة المعارف تدير أوقافها وتضطلع بما ينقصها من مال . وأعدت لها برامج الدراسة مشابهة بها جامعات أوربا . وجلبت إليها علية العلماء من مصريين وأجانب ، وبنت لها بتوالى الأيام المبانى الفخمة الضخمة . وعهدت بإدارتها مرارا إلى سعادة أحمد لطفى السيد باشا عالم مصر وحكيمها .

والمفروض أن الجامعة المصرية مستقلة كل الاستقلال بشئونها . ويرجع أمر هذه الشئون إلى مجلس إدارتها وهيئات التدريس فى كلياتها لا غير . فهى التى تضع البرامج وتغيرها عند الاقتضاء ، وتسن طرق التدريس وتنظمها ، وتنتخب عميدى الكليات ووكلاءها . ويصدق وزير المعارف على انتخابها . وتقترح الاستعانة ببعض الأساتذة مصريين أو أجانب . وتجاب إلى اقتراحها .

وتهيمن على التصرف فى ميزانيتها . كل ذلك لكى تكون الدراسة بها بمنأى عن الأهواء وتقلبات السياسة . ولكى تكون خالصة لوجه العلم . ولكى توضع سياسة التعليم فيها على أسس ثابته وخطة راسخة مرسومة . ولكن للأسف شهدنا بعض الوزارات تتدخل فى هذا الاستقلال . ونحن نرجو مخلصين أن يراعى استقلالها دائماً .

ويعتبر أساتذة الجامعة المصرية اليوم ، من مصريين وأجانب فى مقدمة صناديد العلم ورافعى لوائه بين ربوعها ، بل وفى العالم . وقد ضمت الجامعة أغلب المدارس العالية التى كانت معروفة فى مصر إلى عهدها . فأصبحت مكونة من عدة كليات ، لكل مما يأتى كلية لها عميدها وهيئة التدريس فيها . وهى : الآداب . الحقوق . العلوم . الطب . الهندسة . التجارة . الزراعة . وفى كل كلية عدة فروع حسب المواد . وجملة أقسام للتخصص . والمنتظر فى المستقبل أن يزيد عدد كلياتها .

وقد أصبحت جامعتنا المصرية فى عداد الجامعات الموثوق بها . واعترف كثير من الجامعات الأخرى بشهاداتها . وقد أمها شباب مصر سراعا عطاشا إلى وردها ، حيث وجدوا فيها طلبتهم التى كانوا يرتحلون فى سبيلها إلى أوربا . وفى الاثنتي عشرة سنة الماضية التى عاشتها الجامعة فى حياتها الجديدة ، برهنت على أنها أهل للثقة التى وضعتها البلاد فيها . فقد اضطلعت بالمرجو منها خير اضطلاع. وشاركت مشاركة واضحة فى إحياء العلوم والآداب ، وأخرجت إلى الأمة اليوم زهرة شبابها ، ممن غرست فيهم عزة النفس والإخلاص للعلم ، وحب الوطن .

الخطابة

دينية ، سياسية ، علمية

كانت الخطابة على اختلاف أنواعها فى حالة يرثى لها منذ زمن بعيد ، سواء أكانت فى مصر أم الشام أو غيرهما من بلدان الشرق العربى ، وقد زادت حالتها سوءا فى عهد العثمانيين لعدم الداعية إليها ، ولكثرة الأدواء التى انتابت اللسان العربى وأهله فظل أمر الخطابة مقصوراً على خطب الجمع والأعياد وما إليها من

خطب دينية . بل لقـــد دب الضعف فى هذا النوع أيضا وقلت القدرة على إحسانه ، ومن هنا نشأت دواوين للخطب الدينية تنتقى منها الخطبة المناسبـــة للجمعة أو العيد الذى تلقى فيه . وظلت كذلك حتى عهد محمد على باشا ومَنْ بعده ، فجدت لها عوامل أثرت فيها ، ونحن نجملها فيما يأتى :ـ

الخطابة الدينيـــة

كانت مقصورة على المساجد تتلى على منابرها من خطباء دب فى نفوسهم الضعف . فأذاعوا الخوف والهلع فى قلوب الناس من القبر والآخرة ، وزهدوهم فى الدنيا ، ولم يتناولوا شئونها بالشرح والإرشاد إليها ، والتشجيع على مزاولتها ! وقد كان منهم من يبكى أو يتباكى ! ومنهم من يقرأ ولا يعى ما يقرؤه ! والناس من حوله كالمجود لا يفهمون تلك العبارات المسجوعة والأساليب الغريبـــة ! ولا يفيقون إلا إذا ذكر لفظ الجلالة فيقولون : « لا إله إلا الله » ، أو ذكر اسم النبى الكريم فيقولون : « عليه الصلاة والسلام » بلهجة خشوع وتوقر !

وظلت الحالة كذلك حتى عصر إسماعيل باشا ، وفـــيه هبط مصر العالم الحكيم والمصلح الدينى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى ، فالتف حوله طائفة من متيقظى طلبة الأزهر وغيرهم ، منهم محمد عبده ، وسعد زغلول ، وأنشئت النوادى يخطب فيها هذا الداعية . فنشطت الخطابة بفضله وفضل تلاميذه ، ونهضت الخطابة الدينية وأصبح أسلوبها طلقا خاليا من قيود البديع والسجع إلا بمقدار . حاويا الكثير من الأفكار والمبادىء التى ترمى إلى الإصلاح الدينى ، كما أنها لم تعد مقصورة على المساجـــد تلقى فوق منابرها .

ومع أن الحكومة المصرية عنَّ لها أن تخرج هذا الداعية « جمال الدين الأفغانى » من مصر ، بعد أن أقام بها ردحا من الزمن ـ لم يمح خروجـــه الأثر الصالح الذى تركه بها وبتلاميذه . ولكن شبت الثورة العرابيـــة فى عهد توفيق باشا واشتغل الناس بأمرها وتتابعت من بعـــدها الحركات السياسية حتى عصرنا الحالى ، ففتر أمر الخطابة الدينيه وعادت إلى ما كانت عليه من قبل ، إلا ما كان يرد منها على لسان المرحومين الشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل باشا .

نهوضها وعوامله : وظل هذا الفتور (١) حتى إذا ما برزت فئة صالحة من شبيبة خريجي دار العلوم من أوائلهم عبد العزيز جاويش . (٢) وحتى إذا ما انتعشت حال التعليم بالأزهر . (٣) وأنشئت أقسام الوعظ والإرشاد في كلياته . (٤) وأسست بمعونة إدارة الأزهر وظائف للوعاظ والمرشدين في أنحاء البلاد من عواصم وقرى . (٥) وخرجت إلى ميدان الحياة شبيبة أزهرية ناضجة تهذبت تهذيبا حديثا ، وشاركت - وهي تطلب العلم - في الحركات القومية . (٦) وحتى إذا ما عاود علماء الدين نشاطهم فنظروا إلى الدين وضرورة إصلاح أمور الناس به وإعادتهم إلى حظيرته . (٧) وحتى إذا ما رأس الأزهر الأستاذ الأكبر فضيلة شيخه الحالي ، وهو من هو في الخطابة الدينية ، من ذلاقة لسان ، وقوة بيان ، وصراحة منطق ، وشجاعة نفس ، واعتزاز بالدين . نقول منذ ذلك كله نشطت الخطابة الدينية من عقالها واسترسل أسلوبها ، وتناولت من الأغراض : شئون الحياة ، والترغيب في العمل الصالح فيها ، والتنبيه إلى أسباب ضعف المسلمين ، والإرشاد إلى الطرق التي بها تعود عزتهم وترجع قوتهم ، مع توضيح تعاليم الدين وتبيان روح الإسلام .

وقد بدت هذه الروح الطيبة في الدروس الدينية التي يلقيها علماء الدين في القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن القطر في المساجد والمحافل ، وخاصة في شهر رمضان ، وفي مقدمتهم فضيلة الأستاذ الأكبر ، وقد ألقى فضيلته عدة خطب دينية فياضة ممتعة في تفسير آي القرآن الكريم ، في شهر رمضان الماضي بين يدي مليك البلاد وجمع حاشد من كبار رجالها في المساجد . وكان لتشجيع جلالته ورجال دولته ولإقبال الأمة على هذه الخطب ، أكبر الأثر في النهوض بها وتنشيط أهلها - وقد بدت هذه الروح الطيبة أيضا في خطب الجمع والأعياد فانتهج كثير من خطباء المساجد هذا المنهج الحميد ، وشهدنا منهم من يعتمد على قوة العارضة وحضور البديهة والقدرة على الارتجال . ولذلك قلت كتابة الخطبة المنبرية قبل إلقائها ، وقلت قراءتها من القراطيس ، وزالت من أسلوبها : الأسجاع الممقوتة ، وسهلت عبارتها ، فبدأ السامعون يشاركون الخطيب فيما

يقول ، وكثر الاستشهاد فيها بآيات القرآن وبالحديث حسب المناسبات . ولعل لوجود المذياع أثرا فى هذا النشاط ، فإن بعض هذه الخطب يذاع به ، وفى كل يوم جمعة تذاع به خطبة منبرية من أحد المساجد ، تسمعها الأسر فى بيوتها ، كما نظمت محطة الإذاعة بعض الدروس الدينية فى التفسير أو الحديث أو شرح شعيرة من شعائر الإسلام ، وكل ذلك يعتبر من قبيل الخطابة الدينية .

كذلك أنشئت عدة جمعيات دينية نهضت الخطابة فى نواديها ، كجمعية مكارم الأخلاق بالقاهرة ، وجمعيات الشبان المسلمين ـ ومع اعترافنا بأن الخطابة الدينية بلغت اليوم حداً محموداً ، لا يزال أملنا كبيراً فى رقيها أكثر من قبل ، وخاصة لأننا مقبلون على عصر إصلاح دينى عظيم ! ومع هذا : لا يزال بعض خطباء المساجد يسيرون على النهج القديم ، ويقرءون فى دواوين عتيقة . ومنهم من يتظرف فيخطب بالعامية . ومنهم من ينتحب أو يتغنى وهو يخطب . . ! فلعلهم يفطنون إلى الدنيا . وإلى ما هم فيه من خطأ . . .

نموذج للخطابة الدينية : من خطبة لصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ، خطبها يوم الجمعة ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٥٦هـ فوق منبر الأزهر بين يدى جلالة مليك البلاد وبحضور كثير من رجال الدولة ، قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه الكريم : (أما بعد : فيقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور . ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ويقول الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانو يعملون » . على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل . كريماً لا يقبل الضيم . وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه . وشيدوا صرح مجده . وطوفوا به فى الآفاق . نافذ السلطان رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات ، وضلوا السبل . حسبوا الأمر مغانم تقسم وأسلاباً توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات . فيها دعة وسكون ، وترف ومجون . وطال عليهم الأمد فى ذلك

فقست قلوبهم . وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهى فساءت حالهم . وصبروا على الذل واطمأنوا إليه) . إلى آخر ما قال .

الخطـــابة السياســـية

لم تعرف مصر ولا سوريا هذا النوع من الخطـابة من قبل ، وهى الخطـابة التى توقظ الوجدان وتنبه الناس إلى حقوق الوطن ، وتستحوز على رضـاهم . ولما كان عصر إسماعيل باشا ، بدأ نجم الخطابة السياسية يظهر فى أفق البلاد ، وما زال يعلو فى سمائها شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أروع أنواع الخطابة ، وأكثرها تأثيراً فى حياة البلاد وتوجيهها إلى مستقبلها . وحتى أصبحت سـلاح كثير من من قادتها وزعمائها . وهاهى ذى أسباب نهوضها منذ عصر إسماعيل إلى اليوم :-

١ - إنشـاء مجلس شورى النواب فى عصر اسماعيل سنة ١٨٦٦ م « وهو إحياء للمجلس المخصوص الذى ألفه محمد على باشا فى أواخر عهده » . وقد بدرت فى هذا المجلس بادرة الخطابة السياسية ، ولـكنها كانت ضعيفة ركيكة الأسلوب ، لم يكن لها من الأمر شىء ، وخصوصاً أن جلسات المجلس كانت سرية . . .

٢ - وفود السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١ م . والتفـاف كثير من الطلبة والنبهاء والشبان حوله . وتأسيس النوادى للخطابة ، يتعاقب عليها هو وتلاميذه . وكان يخطب فى الإصلاح الدينى والخلق والاجتماعى . ثم تطرق إلى الإصلاح السياسى والدعوة إلى اجتماع الشرق ونهوضه . وأخذ يبث فى نفوس تلاميذه روح الإقدام وعشق الحرية وحب الوطن وبغض المستبد . فنهضت بذلك الخطابة السياسية . وبعد نفيه بقيت روحها فى تلاميذه ومن تأثر به أمثال : محمد عبده وســعد زغلول .

٣ - قيام الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م التى أدت إلى ظهور روح الخطابة الكامنة فى نفوس كثير من بنى الوطن من بينهم تلامذة الأفغانى ، وزعماء هـذه الثورة ، ومنهم عبد الله نديم ومحمد عبده ، وأحمد عرابى ، ومحمود سامى البارودى .

٤ - ظهور مصطفى كامل باشا (توفى فى سن الرابعة والثلاثين سنة ١٩٠٨م) وكان منذ حداثته قوى العارضة ، زكى الفؤاد ، شجاع النفس ، شديد الإيمان

بالإسلام والوطن ، نزل إلى ميدان الخطابة فكافح عن البلاد ونافح ، بفائض من البيان ، وساطع من البرهان ، وكان خطيباً مفوها بطبيعته ، يجذب الأنظار وخلب القلوب ، فالتف حوله شباب البلاد وتشبهوا به فى الخطابة . فكان وحده أستاذاً لمدرسة خطابية واسعة الأطراف تخرج فيها كثير من زهرة الشباب . وكان أول زعيم وطنى ملك أفئدة الناس وألهب حماستهم بخطابته . ولم تنطفىء هذه الجذوة من بعده ، بل ظلت آثارها الصالحة حتى عادت أكثر اضطراما مما كانت وذلك فى سنة ١٩١٩ م . ومن أصدقائه خليفته محمد فريد ، عبد العزيز جاويش ، وكان قد أنشىء مجلس شورى القوانين ، والجمعية التشريعية ، فساعدا على نمو الخطابة السياسية .

٥ - ثورة المصريين السياسية سنة ١٩١٩م ، بقيادة الزعيم الأكبر سعد زغلول باشا ، وقد كان لسانها وترجمانها ، ومذكى نيرانها ، بمنطق فصيح ، وعبارة حماسية ، وحجة قوية ، وجمل مواتية متتابعة ، حتى لقد قال هو عن نفسه ما معناه : إن المعانى والعبارات تنثال على خاطره تباعا سراعا ، حينما ، يقف مرتجلا فوق المنبر ، وكانت الخطابة أسهل عليه من الكتابة . وكثيراً ما سمعناه يخطب الساعات المتوالية بلا توقف أو تلعثم أو خطأ فى اللغة ، بعبارة فصيحة واضحة قوية ، وهو الشيخ المسن ! فيملأ النفوس حماسة ، والقلوب وطنية . وله الفضل فى شبوب حب الوطن ، وروح التضحية ، وإيقاظ الشعور فى مصر ، وكان بسبب ذلك كله أستاذاً جديداً فى مدرسة الخطابة ، خرّج لمصر اليوم أفضل خطبائها . ولشدة أسره فى النفوس ، اتبعه بعض خطباء الشباب فى أمرين :

(ا) عدم الوقوف بالسكون فى نهاية كل مقطع ، بل بحركة الحرف الأخير !

(ب) ترقيق القاف ! وقد كان - رحمه الله - لا يحسن النطق بها . فاحتذوا حذوه فى ذلك ، من باب التظرف والتشبه . . .

٦ - انتعاش الحياة السياسية فى مصر وسوريا وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وخاصة بعد منح الدساتير وإنشاء المجالس النيابية وتقرير الانتخاب لها ،

ولذلك أثره فى شحذ الهمة والسمو بالخطابة السياسية ، التى يقع على عاتقها جزء كبير من عبء الجهاد ، والوصول إلى الفوز ، سواء بنوال كرسى النيابة أو بفوز الفكرة وانتصار الرأى داخل المجالس . وبذلك أصبح عدد كبير من المرشحين لها المتقدمين للانتخاب ، وعدد كبير من نوابنا وشيوخنا ، خطباء سياسيين مقاول .

٧ - إنشاء الأحزاب والنوادى السياسية ، وهو أمر معروف لنا بآثاره الحاضرة .

هذا وقد بلغت الخطابة السياسية مبلغاً تغبط عليه ، من عبارة سهلة وأسلوب مرسل ومعانى رائعة ، وهى فى مجموعها سجل للنهضة الوطنية وآمال المصريين . ويعيش بين أظهرنا من الخطباء السياسيين عدد كبير من زعماء الأحزاب السياسية وكبار أعضائها ، وجمع غفير من الشباب والطلاب .

وقد أصبحت البراعة فى الخطابة السياسية من أهم أسباب الرقى وبلوغ المناصب الكبيرة ، وخاصة فى أيامنا التى تموج بالفتن ، وفى بلادنا التى تضطرب بأكثريتها من العوام والدهماء ...

ولا بد من الإشارة إلى أن الخطابة كانت تتخللها العامية ، بل كان من الخطباء من يخطب بالعربية آنا وبالعامية أحيانا ، كالسيد عبد الله نديم ؛ ولكن هذا العيب تلاشى شيئاً فشيئاً بسبب انتشار التعليم ، وبفضل عباقرة الخطباء من زعماء ونواب : كمصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، وإسماعيل أباظة ، ومصطفى القاياتى ، ومحمد أبو شادى ، وعبد العزيز جاويش ، وعبد اللطيف الصوفانى ، وعبد الخالق ثروت .

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن بعض الخطباء يكتب الخطبة أولا ثم يحفظها ويلقيها ، أو يقرؤها من قرطاس ! وحبذا لو زاول الارتجال ليكون كلامه أوقع وخطابه أروع ... وإلى أن بعض الخطباء فى داخل مجلس النواب وأحياناً خارجه يخطبون بلهجة قراهم العامية . فينحو عليها كتبة المجلس ورجال الصحف بالتهذيب والتفصح ، حتى يسبكوا خطابتهم فى قالب عربى صميم ...

لحبذا لو راعى الخطباء اللهجة العربية الصحيحة .

نموذج من الخطابة السياسية (١) من خطبة لمصطفى باشا كامل خطبها فى مدينة الإسكندرية سنة ١٨٩٧ م قال :

« ياذوى النفوس الأبية . وياذوى الضمائر الحية ، اطلبوا الشرف ولو مع الفقر ، اخدموا الوطن ولو أسقطت على رءوسكم الصواعق . كونوا مع مصر إن سعيدة فسعداء ، وإن تعيسه فتعساء . وقولوا لعدوها فى وجهه : أنت عدو لنا ، ولصديقها : أنت صديق لنا . لا تحبوا من يرميها بنبال الموت ، بل امنعوه عنها إن قدرتم ، ثم ردوها فى صدر راميها إن استطعتم . وإن لم تستطيعوا فكونوا معها ، لا مع المعتدين » .

(٢) من خطبة لسعد زغلول باشا ألقاها فى فندق «ماجستيك» سنة ١٩٢١م قال :

« أريد فى وسط هذه المظاهر الهاتفة أن أوجه شكرى وثنائى إلى الذين اشتركوا فى تأسيس مجدنا وتوفير سعادتنا ، وإنعاش آمالنا . أتوجه والخشوع يملأ جوانحى إلى تلك الأرواح الطاهرة ، أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا بالحق والحق منكر ، ففاضت أرواحهم وأفئدتهم تردد ذلك النداء . فاضت وقد شرفونا بإقدامهم ، وألزموا الكل باحترام مصر واسمها ، وبيضوا وجوهنا . والآن فليناموا هادئين ، فقد انبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم ، وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء ؛ بيض الله برحمته أجداثهم ، وأسكنهم جنات العلى ، وأرضى عن أعمالنا أرواحهم بتحقيق آمالنا . » .

الخطابة العلمية

هى التى تعنى بمسائل العلوم والآداب والفنون ، وضروب تدبير المال وما شابه ذلك . فتتناولها بالشرح والتعليق الدقيق فى حفل عام . ونظراً إلى صعوبة موضوعها والاعتماد فيها على الحقائق والمعلومات دون سواها ، لا الاعتماد على مخاطبة الوجدانات والعواطف كما هو الشأن فى الخطابة الدينية والسياسية ، يضطر الخطيب فى أكثر مواقفه أن يراجع ذاكرته قبل أن يخطب . وقد يحضر بعض المعلومات أو جميعها . وقد يكتب خطبته فى

أوراق ليتلوها منها . ولهذا تعتبر الخطابة العلمية فى كثير من مواقفها محاضرات أو مناظرات . وهـذا لا يمنعنا القول إن بعض ذوى الدراية والدراية من أهل العلم يستطيع أن يرتجل الخطاب العلمى الجليل الشأن والأثر عفو الساعة ، ببديهة حاضرة وذاكرة قوية ولسان مطواع . وذلك فضل الله ... - والخطابة العلمية عفى الزمان أثرها ولم يسعدها بالظهور فى عصرنا الحديث إلا فى أيام إسماعيل باشا . إلا اذا استثنينا بعض الدروس العلمية بمدرسة الطب والهندسة وسواهما فى عهد محمد على باشا مما كان ينقله التراجمة عن الأساتذة الأجانب !

وفى أيام إسماعيل باشا نشطت الحركة العلميـة والأدبية وكثرت المدارس فانتشر التعليم ووفد على مصر السيد جمال الدين الأفغانى — كما سبقت الإشارة إليه — وأنهض الخطابة بأنواعها وربى ناشئة مقتدرة عليها ، ثم افتتحت النوادى العلمية والأدبية . وأسست الجمعيات فى تلك الأيام وبعـــدها كالجمعية الخيرية سنة ١٨٧٨ للتعليم . ثم جمعيـــة الاعتدال سنة ١٨٨٦م للخطـابة الاجتماعية ، وغيرهما . وكان من الخطباء عبد الله نديم . ومحمد عبده .

وفى أيامنا هذه اتسع نطاق الخطابة العلميـــة وأصبحت إحدى وسائل النهوض العلمى والأدبى والاجتماعى . وبدت فيها روح البحث والتجـــديد وحب الابتكار والرغبة فى الوصول إلى رأى جديد ، فى عبارة سهلة وديباجـة جزلة . وألفاظ مختارة .

وأهم الأسباب التىساعدت على نهوض الخطابة العلمية فى أيامنا ما يأتى :—

١ - إنشاء المدارس وانتشار الثقافة والتعلـــيم ، وابتداع الطرق الحديثـة فى التدريس . مما اضطر المعلمـــين إلى الاعتماد على الذاكرة وحسن المنطق والبيان ، لا على قراءة الكتب وتبادل شرحها مع الطلبـــة ... واتباع نظام التدريس بالمحاضرات فى الكليات .

٢ - تعويد الطلبة الخطابة فى موضوعات نافعة ، سواء أفى حجرة الدراسة أم في حفلات مدرسية .

٣ - تقرير الامتحانات الشفوية . واشتراط النجاح فيها للفوز بالشهادات الدراســية .

٤ - مناقشة الرسائل العلمية المقدمة من طلبة التخصص بالجامعة المصرية مناقشة علنيــة .

٥ - تأليف الجماعات العلمية والتمثيلية والخطابيــة من طلاب المدارس . — وقد ذاع أخــيراً بينهم نظام الأسر — ثم دعوتهم إلى إلقاء محاضرات أو مناظرات علمية . مع تشجيع روح المنافسة بينهم فى هذه الناحية بشتى الوسائل وإدخال فن التمثيل اختياريا فى بعض المدارس .

٦ - انتشار الجماعات العلمية (خارج المدارس) والنوادى الأدبية والرابطات الاجتماعية ، ومنها نوادى جمعية الشبان المسلمين . نادى جماعة دار العــلوم . نادى خريجى المعلمين العليــا . اتحاد طلبة الجامعــة . نوادى الموظفين . الرابطة الشرقيــة . نادى التجارة . والجمعية الزراعيــة والتعاونيـة والطبية ، وغيرها . حيث تلقى فيها البحوث فى شتى الموضوعات .

٧ - تنظيم القضاء واشتراط النيــابة والمحاماة عند نظر القضايا وعلنية الجلسات . فكانت خطب رؤساء النيابة ووكلائها ودفاع المحامين ، من خير مظاهر الخطابة العلمية ، والبحوث القانونية . ومن هــؤلاء الحسينى واللقانى وسعد زغلول ، وغيرهم ممن تخرجوا حديثاً فى مدرسة الحقوق .

٨ - إعداد ميزانيــة الدولة وعرضها على مجلس النواب والشيوخ لمناقشتها . وفى كل عام تعرض فيه الميزانية تظفر بجملة خطب علمية فنــية دقيقة ، يلقيها وزراء الدولة ، ويرد عليهم فيها بعض النواب المختصــين ببحث بعض فروع الميزانية . وخاصة من يسمونهم (مقررى اللجان) .

٩ - تطوع بعض أفذاذ العلماء بإلقاء المحاضرات أو المناظرات الأدبية أو العلمية أو الاجتماعية أو الفلسفية أو غيرها . فى القاعات الكبيرة المعدة لها أو المسارح . وذلك كقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية . وكمدرج الجمعية

الجغرافية ، وكسرح حديقة الأزبكيـة ، وكقاعة المحاضرات بالجامعة المصرية . وذلك يعتبر مظهراً حيا للخطـابة العلمية وقدوة حسنة للناشـئة يقتفي أثرها . وخاصة أن بعضها يذاع من محطة الإذاعـة فيسمعه من الناس عدد أكبر .

١٠ ـ عقد المؤتمرات العلمية ، وإقامة حفلات التكريم أو التأبين ، وإنشاء المجمع اللغوى .

ومن الخطباء فى هـذا الباب : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعمر لطفى ، وقاسم أمين ، عبد العزيز جاويش ، وإسماعيل أباظة ، وكثـير من وزراء وعلماء زماننا الأحياء .

ومما يجدر ذكره أن الخطابة العلمية اليوم ـ فى جملتها ـ تعتبر ذات أسلوب راق جيد متين الديباجـة حسن التنسيق مرتب الفكرة متخير الألفاظ ، وإن كانت تتخللها أحيانا المصطلحات الأجنبـية ، وتشوبها بعض الأساليب الفرنجيـة مما تأباه اللغـة .

نموذج للخطابة العلمية : ١ ـ من خطبـة للإمام الشيخ محمد عبده فى الاحتفال السنوى للجمعية الخيرية سنة ١٩٠٢ م ، قال فى التعليم :

« إن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة ؛ لأنها شرط للاستخدام فى الحكومة ، والسبب فى رغبة الناس فى خدمة الحكومة ، هو أنهم لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة ، وضعف همتهم عن سلوكها ، يود كل واحـد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه وإن كان وشلا آسنا » .

٢ ـ من خطبة لإبراهيم رشاد بك مدير قسم التعاون بوزارة المالية ، خطبها مساء ١٦ فبراير سنة ١٩٣٧ م بقاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكيـة وموضوعها : « واجبنا التعاونى بعد المعاهدة » قال : « الآن وقد تهيأت الظروف الملائمة للحركة التعاونية من نظام ديمقراطى مستقر ، وتضامن وثيق بين الأمة والحكومة ، واستتباب وطيد بعد المعاهدة والاستقلال . فما الذى نحن فاعلوه نحو التعاون

وتعضيده ونشره ؟ إن العهد الحاضر من شأنه أن يحملنا تبعة أعمالنا ، ولا يدع لنا بابا للفرار من مسئولياتها ، فاذا ضعف التعاون بعد الآن أو جمد فى مكانه ولم يتقدم ، فإن اللوم يوجه إلى الأمة والحكومة معا ، وبلفظ آخر يقع الذنب على المصرى وحده ، وهذه الحقيقة الواضحة جديرة بأن تشحذ همة البلاد جميعها شعبا وحكومة ، وأن تحثها على بذل أقصى الجهود لتمكين النظام التعاونى حتى ينتج آثاره الإصلاحية فى الريف والحضر على السواء » .

الكتابة الإنشائية

وتدرجها من الضعف إلى القوة

انصرم عهد العثمانيين ، وبدأت تتقشع سحب ظلمته ، وتنجاب غياهب دجنته ، والكتابة الإنشائية معتلة الأسلوب مختلة العبارة ، يجرى اللحن فى أفواه الكتاب مجرى الغريزة ، ولجاج الأغراض الكتابية ضيقة النطاق أمام نواظرهم ، لضعف الثقافة ، وسيادة الجهل ، وقلة المستجيب ، وفداحة الظلم ، حتى أصبح الكاتب المجيد هو الذى يخط عبارات متعثرة يوهم بها أنه يحاكى الأقدمين . .

ولكن الكتابة ماعتمت أن درجت بها الأيام فى مدارج الرقى قليلا قليلا ، وجذبت عوامل النهوض بضبعها من طريق الموت إلى طريق الحياة ، وتهيأ لها من أسباب القوة ماأنحى على ضعفها فأزاله ، ولوى على عثارها فأقاله . فأخذت الغضارة تدب فى عودها ، والنضارة تبدو على جسدها ، حتى بدت اليوم فى ثوب قشيب كالدوحة الفينانة ، وارفا ظلها ، ممتدة أغصانها ، مفترة أزهارها ، طيبة ثمارها .

وإليك موجزا عن أدوار تدرجها مقفاة بالنماذج :

١ - أيام الحملة الفرنسية : فترة خمود وجمود ، ووقفة بين موت وحياة ، وصلت فيها الكتابة إلى نهاية ماانتابها من ضعف وضيق وهزال ، غرضا ومعنى وأسلوبا ، ولعل خير ما يستشهد به هنا ماكان يذيعه نابليون على المصريين

من المنشورات المكتوبة بالعربية يحررها فئة من المستشرقين والمترجمين الذين وفدوا مع الحملة ، وكذلك ما كان ينشر فى « التنبيه » من أخبار ، يحررها السيد إسماعيل الخشاب كما أشرنا من قبل ، وكذلك بعض الرسائل الإخوانية .

نمـــوذج : ورد فى بعض منشورات نابليون ما يأتى :ـ

« الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ؛ وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال السلطان العثمانى ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية » !

٢ ـ أيام محمد على باشا : (ا) اتخذت الكتابة العربية أداة للتفاهم فى الدواوين بدل التركية . (ب) وترجمت إليها بعض الكتب ، لضرورة التعليم إليها ، وقام بالترجمة رجال البعوث الأوربية بعد عودتهم إلى وطنهم . (حـ) وحررت بها الوقائع المصرية ، وقام بتحريرها الشيخ حسن العطار بمعونة زميله الشيخ شهاب الدين إسماعيل المكى . بذلك كله اتسعت أغراض الكتابة ، زيادة عن الرسائل الإخوانية ، وتأليف بعض الكتب . وبذلك كله أثرت معانيها وخاصة بالاطلاع على علوم الغربيين ، وبمزاولة الترجمة عنهم ، والاقتداء بهم . أما أسلوبها فظل ركيكا بعيداً عن الصبغة الأدبية والنزعات البليغة ، مع التقيد ببعض أنواع البديع وبالسجع . وبقيت كتب العلوم ـ ما ترجم منها وما ألف ـ غارقة فى محيط العامية . وخير الأمثلة لذلك ما ترجمه رفاعة بك الطهطاوى ، وما ألفه عبد الرحمن الجبرتى مفتى الحنفية فى عهد محمد على باشا ، وصاحب كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وسبب ضعف الأسلوب أن محمداً علياً باشا كانت نهضته عسكرية فاصطبغت بصبغة علمية لم تكن تعنى باللغة لذاتها ، بل لأنها أداة لنقل المعنى فحسب . فأيما عبارة يفهم منها مضمونها

تكفى فى سبيل التعبير . وقد اتخذ محمد على باشا بعض الطائفة القبطية كتابا له ، إذ كانت لديهم أثارة من العربية . واشتهر من بينهم « المعلم غالى » . فظلت آداب اللغة العربية وأسلوبها الكتابى يرزحان تحت عبء الضعف . ومع ذلك كله قد أفادت العربيـــة فى تلك الفترة عددا من الألفاظ الجديدة الموضوعة بإحدى طرق الوضع العربى أو المبعوثة من مرقدها بين معاجم اللغة وكتب علومها القديمة .

نمـــاذج : ا ـ من الكتابة الديوانية : ما أرسله محمد على باشا إلى أعضاء البعثة المصرية بفرنسا ، ومنه : « قدوة الأماثل الكرام ، الأفنـــدية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم ! تنهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوبة فيها مدة تحصيلكم . وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنـا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون . فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر غمنا غماً كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار عمله » . إلى آخره ...

ب ـ من الرسائل الإخوانية : ما كتبه الشيخ حسن العطـــار . فمن إحدى رســـائله :

« سلام عاطر الأردان . تحمله الصبا سارية على الرند والبان . إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذى هو عندى بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذى حلىَّ بها معصمه وجيده . الذى موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كنز المعارف عقد درر الفوائد » . إلى آخر ما كتب .

حـ ـ من الكتـابة العلميـة : ما كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتاب تاريخه عن دخول الفرنسيين إلى الجـــامع الأزهر : « إن الفرنسيين دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشـــاة كالوعول . وتفرقوا بصحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحـــارات ، وكسروا القناديل والسهارات . وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة .

ونهبوا ماوجدوه من المتاع، والأوانى والقصاع. والودائع والمخبآت، بالدواليب والخزانات. ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها. وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه. وكل من صادفوه عروه، ومن ثيابه أخرجوه».

٣ - أسباب قوتها منذ أيام إسماعيل باشا إلى الآن: «ا» انتشرت المدارس شيئاً فشيئاً ثم تعددت أنواعها وكثرت طلابها وأصبح التعليم أحد أركان السياسة العامة للدولة المصرية. «ب» وأخذت اللغة العربية تحتل هذه الدور تدريجياً، متغلبة على ماعداها من اللغات الأجنبية التى تدرس بها العلوم. وقد أصبحت العربية اليوم لغة التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية، وبعض الدروس بالمدارس الخصوصية وكليات الجامعة المصرية، ولغة التعليم بالأزهر. ولذلك كله أثر فى رقى ملكة الإنشاء العربى. «ح» كما صارت دروس الإنشاء منذ زمن بعيد من بين موارد الدراسة. بل من أهمها. «ى» ولا ننسى فى هذا المقام مدرسة دار العلوم فلخريجيها فضل كبير فى تهذيب العبارة العربية وتزويدها ببليغ التراكيب، ونفى الدخيل الزائف من ألفاظ وأساليب. «ه» ولاتساع حركة الترجمة ثم التأليف. «و» وللنشاط الأدبى منذ عهد إسماعيل أثر فى السمو بالكتابة؛ وإن كانت الأدبية منها قد لازمها السجع إلى قبيل أيامنا هذه. «ز» وقد عاون الكتابَ انتشار الطباعة، وطبع بعض كتب العلم والأدب القديمة ذات الأساليب المختارة، مثل: كليلة ودمنة لابن المقفع، ومقدمة ابن خلدون، ثم خزانة الأدب للبغدادى، ثم كتب الجاحظ. فاطلع عليها الأدباء والمنشئون، وترسموا خطاها. «ع» ولقد رأس تحرير الوقائع وقام بالكتابة فيها بعض أئمة الإنشاء فى ذلك الوقت كمحمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان. وأنشىء بها قسم أدبى كان معرضاً لثمار قرائح الأدباء. وهيمن قلم تحريرها زمناً كبيراً على لغة الصحافة، بل ولغة الدواوين، ولقد تعقبهما الإمام محمد عبده أيام عمله بالوقائع حتى اضطر أهلها إلى العناية بتجويد عباراتهم. وحبذا لو تعود مثل تلك الرقابة! «ط» ثم انتشرت الصحف بأنواعها. فاتسعت آفاق الكتابة فيها وتعددت أغراضها. بهذا

ارتقى النثر وتهذبت عبارته ، وبعدت عن قيود البديع والسجع ، وتنوعت أغراضه وكثرت معانيه وتجددت وشرفت . وانصرفت العناية إلى الابتكار فيها دون العناية ببهرج الكلام . وقد أصبحت الأساليب النثرية متعددة بتعدد أغراضها ومراميها وإليك عجالة عن كل نوع منها :—

النثر الأدبى

هو الذى يعنى بحسن التصوير والملاءمة بين الكلمات حتى يكون لها أثر فعال فى النفوس والعواطف . ولنتكلم هنا عن الأغراض التى طرقها متتبعين تدرج الأسلوب فى كل منها :—

١ ـ كتابة الدواوين : وهى الكتابة الحكومية « الرسمية » من رسائل ومنشورات وبحوث وغيرها مما يقتضيه العمل الحكومى . وقد روعى فيها أول هذا العصر ـ بعض الإطناب وبعض البديع والسجع مع قلة الاكتراث بالعامى من الكلمات أو السقيم من العبارات ـ ولما كان عصر إسماعيل وظهرت طائفة من الأدباء المثقفين ، أخذت الحكومة تعهد إلى بعضهم بالإشراف على كتابة الدواوين . فارتقت أساليبها بعض الرقى ، ومنها ما عادت إلى مثل ما كانت عليه زمن المماليك ، بل ربما كانت خيراً منها ، وأكثر حسنا وجودة وجزالة ، وزايلها البديع والسجع شيئاً فشيئا وكانت هناك عناية بالألقاب ، فظهرت عربيةً مترّكة أو تركية خالصة . ومنها : أفندى . بك . باشا عزتلو . سعادتلو . عطوفتلو وهكذا . ومن الكتاب عبد الله باشا فكرى (توفى سنة ١٣٠٧هـ — ١٨٨٩م) وكان يكتب بعض الرسائل الخديوية ، ووضع بعض المصطلحات الديوانية . ثم الإمام محمد عبده (توفى سنة ١٣٢٣هـ — سنة ١٩٠٥ م) حين إشرافه على الوقائع المصرية ، ومراقبة كتابة موظفى الدواوين . ثم الشيخ حمزة فتح الله (توفى سنة ١٣٣٦هـ — ١٩١٨ م) وقت قيامه بمنصب المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف — ولكن طرأ أن تغلغلت اليد الانجليزية فى مصالح الحكومة ودواوينها وأصبح كثير من رؤسائها من الإنجليز أو غيرهم من الأجانب . ثم انتابت مصر ثورات وقلاقل ،

فكان لذلك أثر سيء في كتابة الدواوين . وقد زاد الطين بلة انتشار هذه الدواوين لازدياد حاجة البلاد إليها ، فسُلك في كتابها كثير من الناشئة التي لم تنل من التعليم إلا حظا يسيراً . فكان لجهلهم باللغة العربية أو لعدم غيرتهم عليها أو لتظرفهم بالظهور بمعرفة اللغة الأجنبية أو لتراخيهم عن تحري وجه الصواب فيما يكتبون ، نقول : كان لذلك أثر سيء أيضا . فلقد أصبحت كتابة الدواوين في أيامنا أنواعا مختلفة باختلاف هذه الدواوين . فلكل منها اصطلاحاته وأساليبه ! . . . (١) فمنها ما يكتب باللغة الأجنبية وخاصة الانجليزية أو الفرنسية كما في المحاكم المختلطة وبعض المجالس البلدية والدواوين التي يسيطر عليها الأجانب أو لها صلة بهم . (٢) ومنها ما يكتب بالعامية المتفصحة كما في أقسام الشرطة وإدارات « القرعة العسكرية » ، وكثير من المصالح الحكومية الأخرى . (٣) ومنها ما يكتب بعبارة عربية جيدة سليمة من الهجنة ، كالرسائل والمنشورات والأوامر التي تصدر عن ديوان صاحب الجلالة الملك ، ومكاتب الوزراء ، وكالبلاغات الرسمية التي تصدرها مصلحة النشر والثقافة والصحافة ، وكالمكاتبات القضائية في المحاكم الأهلية التي يكتبها القضاة أو رجال النيابة ، وكمحاضر جلسات النواب والشيوخ - ومما يجدر ذكره أن كثيراً من المكاتبات الديوانية أصبح قصير العبارة تقتصر على ألفاظ دقيقة محكمة السبك موجزة تعبر عن المعنى المقصود فحسب . فلا جنوح إلى أخيلة ، ولا رغبة في اختراع تصورات . ولا إطناب ولا ترادف ، ولا أدعية ولا ألقاب إلا لضرورة - وإن كانت بها بعض ألقاب مرعية مشهورة مثل : صاحب الرفعة والدولة والسعادة والفضيلة ، ونحن نخشى أنها بذلك تزايل سمتها الأدبي حتى ليسهل أن نلحقها بالكتابة العلمية أو نفردها باسم يفصلها عن الكتابة الأدبية وليكن مثلا « النثر الرسمي » أو « الحكومي » لكتابة ديوان جلالة الملك وما يصدر عن الوزراء ومكاتبهم وما شابهها . وليكن « الحسابي أو التجاري » لغيرها من الدواوين . أو غير ذلك من الأسماء التي تحدد كنهها . وهذا لا يمنعنا القول إن بعضها مسهب كثير الشروح والترادف ، وخاصة المذكرات التي تقدم بها

القوانين ، وإن كتابة الدواوين أفضل مما كانت عليـــه قبلا . على أننا لنأمل أملا واسعا فى كتاب الدواوين اليوم - وهم أفضل ثقافة من سابقيهم - أن يراعوا اللغة العربية جهد المستطيع .

٢ - الرسائل الإخوانية : بقيت منها صبابة إلى أول عصر النهضة الحديثة ثم قوى أمرها واشتد ساعدها فى أيام إسماعيل باشا وأخذ الأدباء منذ عصره يتشبهون فى كتابة رسائلهم بنظرائهم من كتاب الرسائل فى العصور القديمة . فاتشحت رسائلهم بكثير من الرونق وتجلت فى أفانين من ضروب البيان ، وترقرق فيها ماء الحياة . مع بقاء التقيد بالسجع ويسير من البديع . وفى مقـــدمة كتاب الرسائل : عبد الله فكرى ، الأفغانى ، محمـــد عبده ، إبراهيم اليازجى ، عبد العزيز جاويش ، أحمد مفتاح : وفى أيامنا هـــذه فترت همة الأدباء عن التراسل بهذه المكاتبات الأدبية الأنيقة الشائقة . ولهذا الفتور فى نظرنا أسباب منها : (١) أن رابطة العلم والأدب بينهم أصبحت أهم من رابطة الصداقة والود ، وهما اللذان كانا يذكيان القول ويلهبان القريحة ويشجعان اللســان فى مثل تلك الرسائل قديما . (٢) كما أصبح الأدباء المنشئون يعتمدون فى تحصيل أرزاقهم على عمل يدهم وصنـــع يمينهم لا على ثمرة أقلامهم فحسب ، وقـــد يسلكون فى مناصب بينهـــا وبين صناعة الكتابة بون شاسع ، وذلك بعد أن كانوا قديما يعيشـــون فى كنف أهل المال والجـــاه مما لفت خاطرهم إلى تحسين الرســـائل حين الكتابة إلى من يعيشـــون فى كنفهم . (٣) انصرافهم إلى عمل أدبى أجدى من هذه الرسائل ، وهو التأليف فى الأدب مثـــلا وتجلية عصوره وإظهار نفائســـه — لذلك لم تعد الرســائل إحدى مظاهر الأدب الرائعة فى أيامنا ، وإذا كان ثمة بعض منها فهو ملىء بالبحوث العلمية والمسـائل الأدبية ، وبالخواطر النفسية والنظرات العـارضة التى تسنح لأحد المتراسلين ، وهو يتصفح صحيفة الكون ويستطلع رقعة الحيـاة . . فهى بذلك أقرب إلى أن تكون مقالات أو مناظرات أو مساجلات ؛ أما ماعدا ذلك من الرسائل فلا ينصرف لها الأديب إذ ذاك إلا لضرورة نفسية ملحة كتعزية أو تهنئة أو طلب

سلوى أو بث شكاة أو أداء شكر . وعلى كل فأسلوب الرسائل اليوم قد عاد إلى مثل ما كان عليه فى صدر الدولة العباسية من ترسل وحسن اختيار للفظ والعبارة .

أما مايتراسل به عامة الشعب من مكاتبات تهيمن على إيصالهـــا مصلحة البريد ، فأكثرها فج غير ناضج تعبث به يد العامية ، وياحبذا لو تنبه كل امرىء إلى تجويد رسائله وتحسينها وتزويدها بسوانح البيان العربى الجميل . . .

٣ ـ المقـــامات : ظهرت فى أوائل هذا العصر على يد ناصيف اليازجى مثل : « مقامته الخزرجيـة » ، وأحمد فارس الشدياق ، فى كتابه « الساق على الساق » ، « وهو معجم لغوى طريف اتبع فى كتابته طريق المقامات ، وغيرهما ناهجين فيها نهج الحريرى من سجع وفقار قصيرة ، وكلمات لغوية . ثم فتر أمرها بعد هؤلاء إلا لماما على يد محمد بك المويلحى صاحب كتاب «حديث عيسى بن هشام» ، والسيد عبد الله نديم . وانصرف الكتاب من بعد إلى ماهو أهم من المقامات كالتأليف الأدبى . . إلا أنه قد ظهرت فى أيامنا هـــذه بعض المقالات السياسية الشبيهة بالمقامات فى نسجها ، وذلك من باب التجديد فى الأسلوب السياسى ، ومن باب التظرف والتفكه أيضا . ولكنها فى الحق هينة الأسلوب متواضعة العبارة متعثرة ، لاتناسب ذوق عصرنا . . .

٤ ـ النقد الأدبى واللغوى : إنما قوى واشتد ساعده بظهور الصحف . فقد كان بعض محرريها يتناول بعض كبراء البلاد بالنقد ومن ثم انتقل النقد إلى أبطـال الأدب القدامى والجدد يُنثر كلامهم ويتبعه رأى المحرر ، وقد كان لكثير من خريجى الأزهر ودار العلوم ولغيرهم من محبى الأدب جولات صادقة فى ميدان النقد الأدبى ، ومنهم حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » وحمزة فتح الله صاحب كتاب « المواهب الفتحية » ، وإبراهيم اليـــازجى . وانصرفت العـــناية أولا أيضا إلى النقد اللغوى والنحوى والصرفى ، ثم عنى بالنقـــد البلاغى . وقد أصبح النقد فى أيامنـــا إحدى دعائم الأدب العربى التى لا غنى عنهـا فى دراسته ، وبعـــد أن كان من النقاد من

يمدح أو يقدح فحسب أصبح كثيرون منهم اليوم ينقدون نقداً تحليليا دقيقا تستبين منه المحاسن أو المساوىء مشيرة إلى نفسها ، وأصبح الأثر الأدبى - مقالة أو رسالة أو قصيدة أو كتابا - بين يدى الناقد كالجسد بين يدى الطبيب يفحصه ويسلط عليه أشعة علمه فتبدو أدواؤه . وقد ساعد على نمو روح النقد طبع كتبه القديمة : كالعمدة لابن رشيق وكالصناعتين ، وتقرير دراسة الأدب وتاريخه فى معاهد التعليم ، واشتغال كثيرين بالترجمة والاطلاع على الأدب الفرنجى .

وأسلوب النقاد مرسل سهل التركيب دقيق التعبير يعنى أولا بتوضيح المعنى وقد حرر من قيود البديع والتزام السجع إلا ماسنح عرضا ، فلا غرابة إذن أن كان هذا النهج الجميل قانونا لهم يزِنون به الآثار الأدبية ، فلهم فضل توجيه الأدباء شعراء ومنشئين إلى العناية بالمعنى ، وإلى الفكرة المنظمة ، وإلى الرأى الواضح ، وإلى الخيال الجديد والتصوير المبتكر ، ثم بعد هذا يعتني باللفظ باعتباره أداة لأداء كل ذلك : فيربأ به عن المعاضلة والتعقيد والغريب الجاف من الكلمات المهجورة إلا لضرورة ، كما يُنأى به عن أساليب العوام وما ابتذل بدورانه على ألسنتهم ، كما يُحرر من المقدمات الطويلة الدعية التى لاصلة لها بالموضوع - ولا تظن أن كتابة النقاد مقصورة على النقد فحسب ، بل هى مزيج من الكتابة الوصفية والإنشائية أى « النقد والابتكار » ، وبين ظهرانينا كثير من صناديد النقاد الأدباء .

٥ - فن القصة : ومنها التاريخى والروائى الغرامى والفاجع والهزلى ، ومنها المسرحى ، فهى أنواع . وتعتبر القصة العصرية فناً حديثاً فى الأدب العربى يمتاز به عصرنا ، وخاصة لما امتازت به القصة من وصف تحليلى دقيق ، وشرح طريف للهواجس النفسية والانفعالات الوجدانية ، وبيان للأدواء الاجتماعية ، وغير ذلك . هذا مع ما امتازت به من حسن السبك واجتماع الأطراف ، وقد أضفى عليها هذه المميزات :

(١) اتصال أدبائنا بالأدب الأوربى واطلاعهم على القصص الغربية

وترجمة كثير منها ، وتقليدها بالتأليف على مثالهـا .

(ب) وقد شجعهم على ذلك انتشار الصحف وإفرادها بابا من أبوابها خاصاً للقصة .

(حـ) ثم إقبال الناشئة بشغف على هذا النوع من الأدب ، طلباً للتسلى وقضاء وقت الفراغ ، وللتعليم .

(د) وكذلك انتشـــار فن التمثيل فى بلادنا وعناية بعض الأدباء بنقـــد رواياته المسرحية .

هذا ويحاول كثير من منشئ القصة مصريتها باظهار الروح المصرية فيها ، لتكون مرآة لحياة الشعب ، كما ارتقى أسلوب القصة وجزلت عبارتها وحلت تراكيبها وسلست ألفاظها ، حتى أصبحت حبيبة إلى النفس مشوقة للقـراءة ، ومن كتابها مَنْ أوفى من ذلك على حد الكمال ومنهم المرحوم المنفلوطى فى العبرات ومجـــدولين وغيرها والمغفور له محمد السباعى الذى ترجم كثيراً من قصص تولستوى وكان ينشرها فى البلاغ الأسبوعى ، ومنهم محمود تيمور صاحب القصص المصرية العريقة فى مصريتها ، وكثير من نبهاء الأحياء .

وللأسف لايزال يندس بين كتاب القصة كثير من أدعياء الأدب فيسيئون بجهلهم إلى اللغة العربية . كما أن بعضهم ألف ولايزال يؤلف قصـــصا بالعامية ، وخاصة ما يتعلق منها بالمسرح - والمأمول فى جمهور المتعلمين وفى غيرة الشعب عامة أن يقضى على مثل هذه القصص إبقاء على لغة البلاد وعملا على إحيائها . . .

٦ - المقالات الوصفية : وهى أنواع فنها : وصف شخص أو مكان أو رحلة أو حالة اجتماعية أو حادث واقعى أو حيوان أو غير ذلك ، وصفا طريفا شائقا يتردد بين حسن التخيل وبراعة التصوير وجمال التنسيق . ولا يزال لهـذا الفن سطوته على أدباء العصر الحاضر ، وكان منهم المنفلوطى فى « نظراته » ومنهم محرر « فى المرآة » فى السياسة الأسبوعية فى عهدها الأول ، وأمين باشا فكرى فى « إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا » ، وتوفيق البكرى فى « صهاريج اللؤلؤ » ، وشوقى فى « أسواق الذهب » ، ومصطفى نجيب فى « أحلام الأحلام » ، وداود بركات فى « فيما رأت عيناى » ، ومحمد لبيب البتانونى فى « الرحلة الحجازية » وغيرهم .

وقد عنى بعد أفاضل المدرسين فوضعوا كتبا ضمنوها عـــدة موضوعات فى هذا الباب تصلح نماذج يتثقف بها النشء ويقتدى بها.

ومن هذه المقالات نوع افتراضى مبنى على الخيال المحض، به كثير من عوامل التشويق وروعة التخيل وذلك مثل: «رحلة إلى القمر»، «مصر بعد مائة عام»! وهكذا، إلا أننا لم نبلغ بعدُ مبلغ أبى العلاء المعرى فى هذا الباب كما فى كتابه «رسالة الغفران»، ولعلنا بالغوه فى المستقبل...

وأسلوب هذه المقالات آخـــذ بضروب من التأنق وحسن الاختيار فى العبارة واللفظ بماله أسر فى النفس، وكان بعض كتابها يلتزم السجع وبعض البديع، ولكن الزمن عفى هذا الالتزام.

٧ ـ وصف عصـــور الأدب العربى:

وقد ساعد على ذلك تقرير دراسة الأدب وتاريخه فى معاهـــد التعليم. ولخريجى الأزهر ودار العلوم فضل السبق فى هذا المضمار أيضاً. ومنهم حسين المرصفى وحمزة فتح الله وحسن توفيق وعاطف بركات وحفنى ناصف وأحمد الإسكندرى فى كتاب «العصر العباسى» و«الوســيط»، وقد ألفه بمشاركة مصطفى بك العنانى ــ أطال الله حياته ــ وله كتب أخـــرى غير هـذين. وغيرهم كثير من الأحياء. وللأدباء سوريا مشاركة محمودة فى هـــذا السبق ونخص بالذكر منهم جورجى زيدان الذى اتخـــذ من مصر وطناً له ولأسرته وأسس دار الهلال، وله كتاب تاريخ «آداب اللغة العربية»، ويعد من أهم المراجع.

وقدقوى أمر هذا الوصف كما رأيت حتى استوى تأليفاً منسقاً متين البناء حسن التبويب ممزوجا بالنقد والتحليل قياسا على ما عند الفرنجة منه، وأصبح بذلك حدثا جديداً فى اللغة لم تعهده من قبل. ثم شارك رجال الأزهر ودار العـــلوم كثير من ناشئة المدارس الأخرى وخريج الجامعة فى عهدها، وأصـــبح منهم رجال يحتلون مكانا فى الصدر فى هذا الباب.

نمـــاذج: راعينا فى إيراد هذه النماذج أن تكون متنوعة، وأن يتراءى فيها انتقـــال الكتابة من ضعفها إلى قوتها. وأن يتحقق فيها

ماذهبنا إليه من رأى وتقسيم .

من الكتابة الديوانية :

١ - أوردنا فى صدر هذا الكلام رسالة لمحمد على باشا فعد إليها .

٢ - من رسالة كتبها إسماعيل باشا راغب كاتب ديوان سعيد باشا إلى مطران الحبشة يؤكد فيها صداقة مصر والحبشة . وينبىء بقرب زيارة الوالى للحدود السودانية الحبشية قال فى صدرها : « من المحب الصادق ، والودود المصادق ، إسماعيل راغب باشا كاتب ديوان سعادة الوالى الأفخم ، والخديوى الأكرم . كافل الديار المصرية ، وما تابعها من الأقاليم السودانية ، إلى حضرة أمير الملة العيسوية ، وحبر النحلة الإنجيلية ، حضرة المطران تادرس مطران الحبشة . زاد الله إقباله وسدد أقواله وأفعاله . » إلى آخر الرسالة .

٣ - وجه إسماعيل باشا خديوى مصر إلى على مبارك باشا أمرا بافتتاح دار العلوم جاء فيه : « عرض علينا أنها كم رقم ٢٤ ج ١٢٨٩ نمرة ٢٣ مدارس الذى به استحسنتم انتخاب قدر خمسين من نجباء الطلبة من سن العشرين إلى الثلاثين يؤخذون بالامتحان ممن يرغبون ذلك لإجعالهم معلمين فى اللغة العربية والتركيه بالمدارس الأهلية . » إلى آخره .

٤ - جاء فى صحيفة « البلاغ » مساء الاثنين ٢ مايو سنة ١٩٣٨ ما يأتى بعنوان : « فى عيد الجلوس الملكى - رغبة ملكية سامية بعدم إقامة الزينات »

أبلغنا ديوان جلالة الملك ما يأتى :

« اقتضت إرادة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم أن تذاع رغبته السامية فى توفير جهود الأمة يوم عيد جلوسه السعيد . فلا تقام حفلات ولا زينات . وإن ثقة جلالته الغالية من تعلق شعبه المحبوب بشخصه وبعرشه ، وبما يكنه نزلاء مصر الأكرمون من أصدق عواطف المودة نحو ذاته وبلاده ، لتحدوه إلى الاعتقاد أنهم سينزلون على هذه الرغبة الكريمة من الاكتفاء بمشاركته بقلوبهم وأمانيهم . ويشكر الله على ما أولاه من نعمة ، وأسدى إليه من جميل . وهو غنى بهذا الحب الصادق عن كل شىء سواه .. وأنه ليشعر بالسعادة الكاملة حين

يتوجه إلى الله العلى القدير ، أن يسبغ فضله على مصر وأهلها ، وأن يوفقه إلى أداء رسالته لخير هذا الوطن وعظمته ، تلك الرسالة التى وقف عليها نفسه وقلبه وجهده وتفكيره » .

٥ ـ جاء فى خطاب مرسل من « أمين مخازن بالسكة الحديدية فى إحدى الجهات إلى وكيل مخازن فى جهة أخرى بعنوان : « إفادة مستعجلة » ، « زيت خفيف معدنى » ، ما يأتى :

« نؤكد لحضرتكم مرة أخرى بأنه لا يوجد بطرفنا علب فوارغ عبوة الزيت المذكور أعلاه . أما إفادتنا بنفس النمرة فى . . . سنة ١٩٣٧ لمخزن . . . فهى عن وجود علبة عبوة الزيت الخفيف للمشاحم كالدم ٩٩/١/٦ رجاء المعلومية وشكرا » .

٦ ـ ورد فى محضر تحقيق بأحد أقسام الشرطة فى دعوى سرقة ، فى أحد شهور سنة ١٩٣٨ ، ما يأتى :

« حضر للقسم (فلان) وبلغ بسرقة (كذا) من الغرفة سكنه ويتهم شقيقه (فلانا) وعليه شرعنا فى ضبط الواقعة كالآتي : اسمه . . . عمره . . . صناعته . . . بلده . . . :

فى يوم . . . الساعة . . . حضرت أنا وأخى (فلان) من الشغل وأنا كان معى (كذا) فى جيبى محوشهم من شغلى . فوضعتهم تحت المرتبة ونظرنى أخى لما وضعتهم . ثم تناولنا العشاء ، ثم ذهبت أنا لأودة أخرى لخلع ملابسى ، ثم عدت للأودة اللى وضعت فيها الفلوس ، فلم أجد أخى ، فبحثت عنه فى المطبخ فلم أجده . فاشتبهت أنه لازم يكون سرق الفلوس ، فبحثت محل الفلوس فلم أجدهم ، فتأكدت بأنه سرقها وهرب ، ورحت المحطة وجدت القطار قام ، ولا أعرف إن كان سافر أو لا » .

من الرسائل الإخوانية :

١ ـ أوردنا فى صدر هذا الكلام رسالة إخوانية للشيخ حسن العطار فاقرأها .

٢ ـ كتب الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهو فى بيروت جوابا عن كتاب لصديق :

« لك فى قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك ، وفى مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك ، وفى صدورنا من الإجلال مايرفعه بهاؤك . ما بيننا من المودة لا تحده مدة ، ولا تخلَق له جِدّة ؛ نعيذه من حاجة للتجديد ، واستدعاء للمزيد. فلا المواصلةُ تربيه ، ولا المماطلة توهيه . نعم ، إن ما نحفظ لك فى الأنفس هو تجلى فضلك ، ومثالَ علائك ونبلك . وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقي فى تفانى الأشباح » إلى آخر ما كتب .

٣ ـ كتب الأستاذ توفيق الحكيم إلى صديقه الدكتور منصور فهمي بك رسالة بعنوان « خطبة انتخابية ـ نموذجية ـ » وذلك من باب المساجلة أو المناظرة . قال : ـ

« ترى يا صديقى ! ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة ، لو حدثتنا النفس المعلونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية إلى الجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ، ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟ ـ أما أنا فإنى كنت أقول هكذا :

سادتى الناخبين : باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً عطفكم ! إنى أحب الديمقراطية ! ومن ذا لا يحب الديمقراطية ؟ تسألونني ما معنى هذه الكلمة التى تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط : إن الديمقراطية هى أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهريا قدره أربعون جنيهاً لرهط آخر من الثراة العتاة ـ لعل هذا المنطق يدهشكم ! ولكن هذه هى الحقيقة ! » إلى آخر هذه الرسالة .

من المقامات وأشباهها :

١ ـ كتب الشيخ ناصيف اليازجى (المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ) من « المقامة الخزرجية » :

« قال سُهيلُ بن عباد : دخلت بلاد العرب ، فى التماس بعض الأرب . فقصدت نادى الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض المنهج . فلما صرت فى بُهرة النادى ، أخذ بمجامع فؤادى . فجلست بين القوم ساعة ، وأنا أحدق إلى الجماعة . وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر فى

ذلك المقام. وهو يقول: من أراد أن يعرف جهينة، أو شاعر مزينة، فليحضر ليسمع ويرى، فإن كل الصيد فى جوف الفرا، إلى آخرها.

٢ - كتب أحمد فارس الشدياق (المتوفى سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م) فى كتابه «الساق على الساق، فى ما هو الفارياق» فى الفصل الرابع تحت عنوان «فى شرور وطنبور». قال:

«قد كان أبو الفارياق آخذا فى أمور ضيقة المصادر، غير مأمونة العواقب والمصاير. لما فيها من إلقاء البغضة بين الرءوس. وشغب أهل البلاد ما بين رئيس ومرءوس! فقد كان ذا ضلع مع حزب من مشايخ الدروز مشهور بالنجدة والبسالة والكرم. غير أنهم كانوا صفر الأيدى والأكياس، والصندوق والصوان والهِميان والبيوت. ولا يخفى أن الدنيا لما كان شكلها كرويا كانت لا تميل إلى أحد إلا إذا استمالها بالمدّور مثلها وهو الدينار! فلا يكاد يتم فيها أمر بدونه. فالسيف والقلم قائمان فى خدمته، والعلم والحسن حاشدان إلى طاعته». إلى آخر هذا الفصل.

من المقالات الوصفية:

١ - كتب المرحوم أحمد بك شوقى فى «وصف الصوم» من كتابه «أسواق الذهب». قال:

«حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع. لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة. يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة. يكسر الكبر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر. حتى إذا جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لذع».

٢ - كتب سعادة أحمد محمد حسنين باشا فى كتابه «فى صحراء ليبيا» الذى وصف فيه رحلته إليها. قال يصف الصحراء:

«الصحراء ساحرة جذابة. إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر. ولكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها، ولا سبب خلابتها. بل كل ما تعرفه أنها تناديك، فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك. وتدعوك، فلا تلبث أن تشد

الرحال إليها صاغرا ... يسوقك الحنين، وتدفعك الذكرى».

٣ـ كتب المرحـــوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ـ فى رواية مجدولين ـ يصف حالة غريق. قال:

«وما زلنا كذلك حتى بلغنا شاطىء النهر. فراعنا أن هنالك جمعاً عظيما من النـاس يتدفع فوق الشاطىء الآخر تدفع الموج المتراكب، ويشير إلى المـــاء بأصابعه، وينادى: الغريق الغريق، والنجدة النجدة. فالتفتنا حيث أشاروا، فإذا رجل بين معترك الأمواج، يصارع الموت والموت يصرعه. ويغالب القضاء والقضاء يغلبه. يطفو تارة فيمد يده إلى الناس فلا يجد يدا تمتد إليه. ويرسب أخـــرى حتى تنبسط فوقه صفحة النهر فنحسبه من الهالكين».

من النقـــد:

كتب المرحوم الشيخ محمد الخضرى فى إحدى محاضراته ناقـــداً كتاب «فى الشعر الجاهلى» قال:

«وهنا أعود قليلا إلى مسألة المقارنات. فقد ذكرت أن الأستاذ قد سلم فى الكتاب الثالث بشىء من الشعر الجاهلى. وهو قصيدتان لعلقمة الفحل، وقد كنا أردنا إرجاء حديثهمـــا إلى المحـــاضرة الثانية. ولكنا نعرض لهما الآن قليلا لنقول إن القصيدة الثانية التى سلم صحتها بدون تحفظ، لا تفترق كثيراً عن شعر هؤلاء المعاصرين وغيرهم من شعراء الجاهليين وممن هم بعـــد الإسلام».

من القصـــة. سنذكر فى ترجمة المنفلوطى جزءا من قصة فنكتفى بهاهنا.

من أدب اللغة: حسبنا نموذجا على التأليف فيه كتبه الكثيرة المتداولة بين أيدى طـــلابه.

النثر العـــلمى:

١ ـ يُعنى بوصف حقائق العلوم ومعلوماتها، وتفصيل نظرياتها وصفا دقيقا لا يعبث به تخيل موهوم، ولا يوهنه تصوير مخترع، ولا تنتابه المبالغات.

٢ ـ وقد كان أول هذا العصر يكاد يكون مقصوراً على التاريخ وطرف من

التراجم ويسير من علوم الدين ، كما كان لاجا فى العامية ككتاب الجبرتى : « عجائب الآثار » ، أو مقصوراً على شروح لفظية .

٣ - ثم ترقى شيئا فشيئا باتساع حركة الترجمة والاشتغال بالعلم زمن محمد على باشا ثم إسماعيل باشا ، فتناول الكتابة فى القانون والملك والسياسة وفنون الحرب والطب والهندسة والتقويم وغير ذلك . وظل أسـلوبه يتخلل بعضه العامية أيضا ، ومن الكتاب : رفاعة بك الطهطاوى مترجم « القانون الفرنسى » وعلى مبارك باشا واضع « الخطط التوفيقية » .

٤ - ثم تناول قليلا من شئون الدين وفنون اللغة زيادة عن تناوله العلوم الكونية ، وذلك بعد انتشار المدارس وإصلاح الأزهر ورواج دعوة الإصلاح الدينى والاجتماعى منذ أيام الأفغانى ومحمد عبده إلى اليوم ، فتهذبت أساليبه وأخذت تتخللها الحجج والبراهين مع الترتيب المنطقى . كما فى رسالة التوحيد للإمام محمد عبده .

٥ - وفى أيامنا اتسعت أغراض النثر العلمى ، واتجهت أفئدة العلماء إلى تجويد الترجمة ، والابتكار فى التأليف ، مؤثرين فى تعبيرهم الأسلوب الرائع والتراكيب البليغة والعبارات الجزلة الواضحة البريئة من التعقيد أو الإبهام ، حتى تصل المعانى إلى الأذهان طيعة سريعة بلا عنف أو إرهاق . هذا مع تحرى الدقة فى الترتيب ، واصطناع الجمال فى التبويب ، مما يحبب الاطلاع ويسهل الفهم . غير أن النثر العلمى مع فصاحة عبارته وأخذه من العربية بأوفى نصيب ، لا تزال المصطلحات وطرق الأداء العلمية الفرنجية تشوبه وتغزوه عاما فعاما ؛ وقد نشأ هذا من اغترافنا العلم عن الأوربيين ، والأمل معقود على همة علمائنا وغيرتهم على اللغة ، وعلى جهود المجمع اللغوى فى تنقية النثر العلمى مما يعيبه . . .

ولقد تناول الآن ضروبا من العلوم شتى : كعلوم الاجتماع والاقتصـاد والرياضيات ، والطب والتاريخ والتقويم والصناعات وإحياء آداب اللغة وبعث كتب الدين وغير ذلك .

ونلاحظ على النثر العلمى اليوم ما يأتى :

(١) أن بعض المؤلفين يمزجه بالنثر الأدبى ، فيتألف منهما أسلوب رائع جذاب له أثره الجليل فى نفوس قارئيه ، فيشوقهم إلى الاطلاع ويحبب إليهم

العلم ، وأكثر ما يكون هذا فى كتب أدب اللغة وتاريخه وكتب التاريخ والتقويم وبعض المؤلفات القانونية والبحوث الفقهية السياسية . وخاصة إذا كان العالم المؤلف أديباً كحسين المرصفى وحفنى ناصف ، وأمين فكرى ، وأحمد زكى . كما أن النثر العلمى قد غلب بعض مؤلفى الأدب ونقده فكادت تخلو كتابتهم من الروح الأدبية . وكادت تخلص للبحث العلمى الدقيق فحسب . ومن هؤلاء جورجى زيدان فى كتابه : « تاريخ آداب اللغة العربية » .

٢ - أنه بعد أن كانت لحقته يوما حرقة البديع والسجع ، عاد إليه طبعه من الترسل والطلاقة .

٣ - أن منه نوعا يسمى : « النثر الاجتماعى » : ويعنى بالنظر فى شئون الأمة من ناحية حياتها وأسباب انحطاطها وعوامل رقيها ، وعاداتها وتقاليدها وأدوائها ، وآلامها وآمالها ، والصلات التى بين أفرادها . فيصف الكاتب الاجتماعى كل ذلك وصفاً دقيقاً مبيناً ما فيه من فساد ثم يحاول إصلاحه . ويضع العلاج الناجع ، ويرسم الطريقة المثلى التى بها تتوجه قلوب أهل وطنه إلى حياة أخرى ، أكثر سعادة ورفعة مما هم فيه . وهو بهذا محتاج إلى التأثير فيهم حتى يكتسب عطفهم ويعيروه سمعهم ويجمع على رأيه رأيهم . لذلك نراه فى حاجة إلى اصطناع الأساليب الخطابية فى نثره . فيذكِّر الناس ما كان لهم من مجد قديم وحق ضائع ، وما هم فيه من فساد منتشر وعبث سائد وشر متحكم ، فيثير بذلك كامن حميتهم ومحتدم نخوتهم ، ويغرس الاعتزاز بالنفس ، ويحبب التجديد النافع ويبغض القديم البالى مما لا غناء فيه ولا جدوى .

وقد أثار هذا النوعَ من النثر وفود السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر واجتماع شبيبة صالحة حوله ، وبثه فى نفوسهم روح الإصلاح الاجتماعى . فاتخذ بعضهم الكتابة فى الصحف ، والمحاضرات بين النوادى والمجتمعات ، وسيلة إلى مآربه ، ثم تأليف الكتب فى تلك الموضوعات . فنشأ من ذلك كله « النثر الاجتماعى » . ومما له أثر صالح فى إنشائه أيضاً : الاشتغالُ بترجمة العلوم وخاصة علوم الاجتماع ، واطلاعُ كتابنا على حضارة الأوربيين وترف حياتهم ، فبهرتهم وخلبت ألبابهم ، وتغلغلُ يد الاستعمار الخبيث فى الحياة

الشرقية ، فهب الكتاب ينقذون أمتهم من هذه الوهدة بوساطة الإصلاح الاجتماعى ومعالجة حياة الفرد وحياة الأسرة — والنثر الاجتماعى بحالته تلك يعد حدثاً جديداً فى الأدب العربى وفنون النثر فى زماننا. وأكثر ما كان يتناوله الكتاب الاجتماعيون : مسألة الأسرة ، وعلاقات أفرادها ، والرابطة الزوجية ، وتحرير المرأة ، وتعليم البنت ، والسفور والحجاب ، ونشر حركة التعاون ، وإنشاء الشركات ، وإسعاد حال الفلاح ، وتنظيم الإنتاج ، وتوسيع دائرة التعليم ، ومعالجة العطلة ، وإنهاض اللغة ، وغير ذلك . ومن الكتاب فى هذا الباب : قاسم أمين وملك ناصف « باحثة البادية » وفتحى زغلول وعبد الله نديم ومحمد عبده وسعد زغلول ، وعمر لطفى وعبد العزيز جاويش وداود بركات وعلى يوسف ، وغيرهم .

٤ - إن كثيراً من المؤلفين اليوم ممن لا يطمئنون على نصيبهم من العربية يعرضون مؤلفاتهم بعد نجازها وقبيل طبعها ، على بعض ذوى الخبرة من علماء اللغة حتى يصقلوا أسلوبهم ويهذبوا عبارتهم وينفوا منها الزائف الدخيل ، حتى تبدو بعد ذلك كالعروس المجلوة . . . وهذا أمر محمود يدل على مبلغ غيرتهم على العربية . ولكنه من ناحية أخرى يضلل المؤرخ الذى يتعرض لوصف أسلوبهم ، فينسب إليهم من الحسنات ما ليس لهم ، إذا لم يشيروا إلى ذلك فى مؤلفاتهم . ويا حبذا لو أكملوا هذا النقص بكفايتهم اللغوية . . .

نماذج من الكتابة العلمية : ١ - أوردنا نموذجا من كتابة الجبرتى فى صدر الكلام عن النثر فعد إليه .

٢ - كتب رفاعة بك الطهطاوى « المتوفى سنة ١٢٩٠هـ » فى كتابه « تعريب القانون الفرنساوى المدنى » فى الباب الخامس تحت عنوان بند ٨٨ ما يأتى :

« سجلات الأنساب المدنية من ولادة وزواج ووفاة ، إذا كانت متعلقة بالأشخاص العسكرية أو المستخدمين فى الآلايات العسكرية الموجودين خارج حدود المملكة يصير تحريرها على الوجه المذكور فى الضوابط السابقة ، ما عدا ما استثنى فى هذه البنود الآتية : راجع بند ٣٤ وما بعده مدنى » .

٣ - كتب الإمام الشيخ محمد عبده « المتوفى سنة ١٣٢٣هـ » من فصل

فى « رسالة التوحيد » بعنوان : « القرآن » جاء فيه : « كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية مافيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة . نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجود العبرة فيها . حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم . وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم . وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم . » إلى آخره .

٤ - كتب قاسم بك أمين « المتوفى سنة ١٣٢٦هـ » فى كتابه « تحرير المرأة » ما يأتى :-

« إن طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد ، معادية للاستعباد ، ميالة إلى سوق القوى الانسانية فى طريق واحد وغاية واحدة . فهذا الطائف الرحمانى الذى طاف على نفوس البشر ، فنبه منها ما كان غافلا ، لابد أن ينال منه النساء نصيبهن . فمن الواجب علينا أن نمد إليهن يد المساعدة ، ونعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا الله فى الضعيفين : المرأة ، واليتيم » .

النثر الصحافى

الصحف - كما قلنا - معرض لكل ذى رأى نافع للبلاد يعرض فيها رأيه ويعلن الناس بما عنده ، لذلك ينشر فيها العالم والأديب والناثر والشاعر ، والاجتماعى والسياسى ، لهذا تقرأ على صفحاتها أساليب شتى . وتستعين بعض الصحف على تصحيح ماينشر بذوى الخبرة من أهل اللغة ، وكثيرا مايكون فيها لهؤلاء « الجنود المجهولين » أفضل الأثر فى تقويم ماينشر فيها .

ولكن ليس كل ماينشر فى الصحف يعتبر من باب « النثر الصحافى » ، وحقا يوجد بين كبار الصحافيين من يتصدى للكتابة فى موضوع علمى أو أدبى أو اجتماعى أو غير ذلك ، وفى رأينا : أن كتابتهم تلك تلتحق بالنثر العلمي أو الأدبى أو الاجتماعى ، وهكذا ، كل حسب نزعته . وخاصة كتابة المجلات الأسبوعية والشهرية المعنية بالعلم والأدب ، وإنما يطلق النثر الصحافى على أخص

ما تُنشأ لأجله الصحف، وأعنى به نوعين هما: الكتابة السياسية، والكتابة الإخبارية، ولنتكلم عن كل منهما:

الكتابة السياسية: هى ما يكتب انتصاراً لحزب معين، ونشرا وتحبيذاً لمبادىء ذلك الحزب. ونظرا إلى أن الكاتب السياسى يسعى دائما إلى كسب قلوب الناس وعواطفهم ليضموا صوتهم إلى صوته... يستخدم ضروبا شتى من الإغراء، فى أساليب حماسية وجمل طنانة رنانة تسهل قراءتها وفهمها، حتى ولو تليت على العوام... لذلك تصبح هذه الكتابة ضربا من الخطابة السياسية أو أقرب أنواع الكتابة شبها بها...

وفى الحق: أن بين كتابنا السياسيين اليوم من هو قوى الحجة عف اللسان سليم العبارة صحيح المنطق، ولكن بجواره يوجد الكاتب الموهم والمبالغ المفترى. ويتدلى أسلوب بعضهم إلى هوة من سفساف القول وفارغ الكلام في غير حُنكة ولا دقة لاجًّا فى موج من التنابذ والمهاترة، ويسوق فى خلال ذلك جماعات من ألفاظ وأمثال عامية دون اكتراث ولا تورع. بل وبعضهم لاصلة له بالعربية... ويكثر أمثال هؤلاء فى أيام الأزمات السياسية... ولو أن الجميع نهجوا فى نقاشهم نهج العفة والصدق والحجة الدامغة والخلق الحميد واللغة السليمة لأفادت منهم الفضيلة واللغة والبلاد الغنمَ الكبير...

٢ - الكتابة الإخبارية: وهى ما تكتبه الصحف لتحمل إلى الناس أخبار العالم كله وأهم حوادثه اليومية سواء منها الداخلى والخارجى. ويلتحق بهذا القسم الإعلانات التجارية - وقد أصبح هذا القسم من أهم ما تُعنى به الصحف وتنشأ لأجله، وخصوصاً الصحف اليومية. وعبارته سهلة لينة بعيدة عن التكليف والتزويق والتنميق، تؤدى معانيها فى سرعة ويسر بمجرد قراءتها، ولا تخلو من لوثة العامية. إلا أنه قد تتخللها الروح الأدبية، وبعض التزويق والخيال والمبالغة، إذا كان فيما تحمله من الأخبار طرافة أو غرابة تدعوان إلى ذلك. هذا ويعتبر النثر الصحافى ضرباً جديداً من ضروب البيان العربى لم تعهده لغتنا من قبل عصرنا بحالته الحاضرة، وقد نشا بنشوء الصحافة العربية. كما قد لوثه السجع زمناً ثم فارقه، فاسترسل. وقد اتخذ كتاب الصحف فى بادىء

أمرهم من مقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة وغيرها من كتب الأدب المطبوعة حديثاً والمعروفة بأسلوبها السهل الممتنع، إماماً ونمطاً. حتى إذا ما استقام أسلوبهم بدأ كثير منهم ينحو فيه نحواً من التجديد وإظهار شخصيته فيه. وقد تعرضنا للغة الصحف بعض الوصف عند الكلام على الصحافة. فراجعه ثمة. ومن كبار الذين اشتغلوا بالصحافة: حسن العطار ومحمد عبده وعبد الكريم سليمان. فى «الوقائع» وأحمد فارس فى «الجوائب» وإبراهيم المويلحى فى «نزهة الأفكار» وعلى يوسف فى «المؤيد» ومصطفى كامل فى «اللواء» وسعادة أحمد لطفى السيد باشا فى «الجريدة» وأمين الرافعى فى «الأخبار» وداود بركات فى «الأهرام»، ويعيش فى أيامنا كثير من أبطال الصحافة الذين شرفوها بنبوغهم ودلفوا منها إلى كرسى الوزارة أو النيابة.

نمـــاذج للنثر الصحافى: ١ - ورد فى أول عدد «للوقائع المصرية» كتب بالعربية فى عهد محمد على باشا الكبير سنة ١٢٤٤ ما يأتى :-

«الحمد لله بارىء الأمم، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم. أما بعد فان تحرير الأمور الواقعة من اجتماع جنس بنى آدم المتدبجين فى صحيفة هذا العالم، ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم، التى حصلت من احتياج بعضهم بعضاً هى نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والإيقان وإظهار الغيرة العمومية». إلى آخره

٢ - ورد فى أول عدد من «المؤيد» سنة ١٣٠٧ هـ لصاحبه الشيخ على يوسف ما يأتى :- «علمنا الدهر بمطالعة الأخبار، ووعظنا بغرائب الآثار، وذربنا بالإنذار والاعتبار. وجلا عن قلوبنا ظلمات الجهل، فبان لنا أن أعمال السلف مدرسة الخلف، تتلقى فيها أن خدمة الأوطان من أوجب الواجبات وألزم الفرائض، من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأدبى والشقاء الدائم. فقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية ذلك الغرض، عن طهارة طوية وإخلاص نية. وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى». إلى آخره

٣ - جاء فى أهرام ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٨ م مايلى بعنوان «مسألة أسعار القمح والخبز»: «لا يزال دولة وزير المالية يرقب أثر الإجراءات التى اتخذت فى الأيام الأخيرة لوضع حد لارتفاع أسعار القمح والخبز، ولمقاومة العوامل

المصطنعة التي سببت هذا الارتفاع فى الوقت الذى تدل فيـــه الإحصاءات الرسميـــة على أن فى مصر من القمح المخزون ما يكفى حاجة الاستهلاك المحلى إلى أن يظهر المحصول الجديد ». إلى آخره.

ملحـــوظة: اكتفينا بما مر من النماذج للنثر الصحافى، وأما الكتابة السياسية والإخبارية فأمرها اليوم شائع بيننا معروف، فلاحاجة بنا إلى نموذج لها.

كلمة ختامية فى النثر: اليوم قد تطور النثر تطوراً محموداً وتهذبت أساليبه واتسعت أغراضه وتجددت معـانيه وانتظمت أبوابه وتعددت أنواعه، بفضل ذيوع وسائل النهوض ويقظة الأمة وإقبال بنيها على التعليم، وأصبح لدينـا من الكتاب أنواع: فنهم المترسل البليغ وذو السهولة الممتنعة وصاحب الديباجة الجزلة المشرقة، التى تكتنز فيها المعانى اكتنازاً، وذو العبارة المدرسـية المطنبة، ومنهم المستطرد المتفكه. وغير هؤلاء. —

ونلفت النظر أيضاً إلى أن بعض المؤرخين يذهب فى تقسيم أنواع النـــثر مذهباً آخر غير ماذهبنا إليه. ولكل وجهة هو موليها...

التعريف ببعض كتاب العصر الحاضر

١ — محمـــد عبـــده(١) ١٢٦٦هـ — ١٣٢٣هـ

هو الإمام الحجة الثبت، والمجتهد المصلح الكبير، والكاتب المنشىء البليغ، والخطيب المصقع الضليع، فخر مصر والأزهر والإسلام.

اسمـــه ومولده: محمد بن عبده بن حسن بن خير الله، ولد فى محلة نصر ١٢٦٦هـ، ١٨٤٩م إحدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة. ونشأ بها وقيل: إنه ولد فى تلك السنة فى إحدى قرى الغربية حيث كان أبوه قد هاجر فراراً من ظلم لحقه بمحلة نصر، ثم عاد به إليها وسنه أربع سنوات.

(١) تفصيل ترجمته في: «مشاهير الشرق» راجع جورجي زيدان جزء ٤، و «تاريخ الامام» لرشيد رضا، و «كنز الجوهر» لسليمان رصد، و «صفـوة العصر» لزكى فهمى. والسياسة الأسبوعية عدد ٥٥ سنة ١٩٢٧، ومقدمة تقرير في المحاكم.

حياته : حياة مجيدة حافلة بدلائل النبوغ وعلامات الذكاء والقدرة على الاضطلاع بمهام الأمور، والرغبة الجبارة فى الإصلاح، ومن العبث العابث أن نحاول هنا فى هذه العجالة وصف تلك الحياة بما هى حقيقة به من وصف.. فلنجتزىء إذن بأن نقول :

١ - حفظ القرآن الكريم فى قريته ثم أشخص إلى الجامع الأحمدى فى سن الثالثة عشرة، فعاش بجواره ثلاث سنوات لم يستطع أن يتذوق فيها حلاوة العلم لصعوبة الطرق الدراسية المرعية فى ذلك الوقت، فعاد إلى قريته وزُوِّج وسنه حوالى ست عشرة سنة.

٢ - ثم أكرهه والده على العودة إلى الجامع الأحمدى. فعرج فى طريقه على قرية «كنيسة أورين» وبها خال أبيه الشيخ درويش خضر، وهو رجل متصوف. فأقام لديه زمنا، يقرأ له فى بعض كتب الصوفية فتعثر فى قراءتها ثم سهل عليه أمرها وشغف بها. فكان لإقامته تلك أثر كبير فى تكوين عقليته وتحبيب العلم والحكمة إليه، ساعده على الانتظام بالجامع الأحمدي مدة.

٣ - ثم شخص إلى الأزهر فدرس العلوم العربية والشرعية والعقلية على كبار علمائه، وبينهم الشيخ «حسن الطويل» مع الاشتغال بالتصوف، ولكن نفسه لم تقنع بذلك وظلت تتطلب دراسة أعلى وأفضل.

٤ - فأتيحت له تلك الدراسة بوفود السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ. فتقرب إليه ولازمه ودرس عليه كتبا فى الكلام والتصوف والأصول والمنطق والحكمة والفلك، فشفت تلك الدراسة نفسه، ووجد فيها ضالته وأحبه الأفغانى لمخايل ذكائه وعبقريته، وشهد له أنه لمصر أقوى من أسطول وأعز من جيش...

٥ - ثم تصدر للتدريس بالأزهر وأجاد فى شرح بعض الكتب الصعبة «كالعقائد النسفية»، فحقد عليه بعض الطلبة والعلماء ووشوا به إلى الشيخ عليش، مدعين أنه «يقرر مذهب المعتزلة»، فأحضره وسأله عن ذلك، فأجاب: «إننى إذا تركت تقليد الأشعرى فلا أقلد المعتزلة، وإنما أتبع قوة الدليل!»، فدهش الشيخ

لجراءته ! وسأله : هل تفهم العقائد النسـفية ؟ فتدرسها فأجاب : أنه يستطيع ، وعرض نفسه للسؤال فى الحال ، ثم انصرف . وقد كانت شجاعته تلك وسعة عقله وقوة مداركه وطلاقة لسانه ، سببا فى موجدة الكثيرين عليه ، وفى سنة ١٢٩٤هـ فى عهد الشيخ المهدى العباسى نال العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان عنيف ، نصره فيه الشيخ المهدى . ومن ذلك الحين اشتغل بالتدريس فى دار العلوم ، فكان يدرس المطالعة فى مقدمة ابن خلدون ، والإنشاء والأدب العربى والتاريخ الإسلامى ، ثم درس فى مدرسة الألسن . ثم فُصلَ على إثر نفى الأفغانى .

٦ - ثم استعان به رياض باشا فى تحرير « الوقائع المصرية » ، وعينه رئيسا لقلم المطبوعات ، فعاونه فى ذلك : عبدالكريم سلمان وسعد زغلول والسيد وفا . فأصلح عبارة الوقائع ، وأنشأ بها قسما أدبيا خصبا ، وهيمن على لغة الصحف وكان قاسيا شديد المراقبة على لغة موظفى الدواوين ! حتى اضطر كثير منهم إلى التعلم مرة أخرى ليتقن اللغة العربية ! فأنشئت لهم مدارس ليلية تطوع الأستاذ الإمام للتدريس فيها .

٧ - ثم اتهم بمساعدة العرابيين ، فسجن ثم نفى إلى سوريا ، وهناك اشتغل بالتدريس فى مدارسها وبوضع « رسالة التوحيد » وشرح « نهج البلاغة » و « مقامات بديع الزمان الهمذانى » ، فى خـلال ذلك زار أوربا ، ويمم باريس حيث التقى بأستاذه السيد جمال الدين - وكان قد أُخرج من مصر - فأنشأ معاً صحيفـة « العروة الوثقى » . فعاشت نحو ثمانية أشهر ، وهناك أتقن الفرنسية .

٨ - ثم عفى عنه فعاد إلى مصر . ومن ثم أسند إليه منصب فى القضاء الأهلى ، وأخذ يترقى فى سلكه حتى كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف الأهلية ، ثم عين مفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧هـ ، وعضواً بمجلس شورى القوانين ، وقبيل هذا عضوا بمجلس إدارة الأزهر ، وحينئذ تفرغ : للدراسة بالأزهر ، وللتفكير فى إصلاحه ولإصدار الفتاوى الشرعية القيمة النافعة . وكان يدرس بالأزهر : البلاغة فى كتبِ الجرجانى ، والتفسير : مراعيا فيه إظهار ما فى أحكام القرآن من قوة وقدرة على مسـايرة أى نوع من أنواع الحياة الإنسانية ، موفقا بين نصوصه

وبين العلم الحديث، وكذلك قرأ رسالة التوحيد. وكان فى تلك المدة موضع إجلال أولى الأمر، وما زال حتى قبض إلى رحمة الله سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م

علمه وأخلاقه وبعض أعماله: كان عالماً جليلا فهم الدنيا فهما قوياً وتشبع بالروح الإسلامى الحقيقى، مع نظر ثاقب وبصيرة نافذة وقوة يقين وإخلاص نية. كل ذلك مع ذلاقة لسان وبلاغة منطق وسعة عقل ومتانة حجة ورجاحة برهان وحرية تفكير وعزوف عن التقليد الأعمى. وقد وهب الله له نفسا وثابة أبية، وقلبا محسنا كريما ويدا مسرفة فى البر بالناس، ونزاهة وعفة واعتزازا بالكرامة، ضرب بها المثل - رأى رحمه الله - ما عليه قومه وأهل وطنه ودينه من جمود وتأخر وزيف، فأخذ يبذل فى هدايتهم ما وفقه الله إليه من بذل، وكان مجوداً فى كل ما تمسه يمينه. فكان مدرساً فذا ومحرراً منطقياً لم تعهد العربية من قبل له نظيرا، وخطيبا وقاضياً عادلا، ومفتياً دقيقاً، ومصلحاً مجتهدا. مال إلى إصلاح الأزهر المعمور، ولم يعبأ بالأشواك الملقاة فى طريقه. فاقترح جملة اقتراحات نفذ منها البعض. فأنشىء له مجلس إدارة كان هو أحد أعضائه، ومكتبة، ووسع نظام الامتحان، ونظمت الدراسة. وعدلت بعض المناهج، وأدخلت العلوم الحديثة، ثم تقررت دراسة الإنشاء والأدب، وهكذا. ولقد رغب أيضاً فى بعث علوم الدين وفنون اللغة وإصلاح التعليم، فألف فيها وخطب وكتب وشرح، ورأس جمعية إحياء العلوم العربية. فطبعت بهمتها كتب كثيرة. ثم أخذ نفسه بالتوفيق بين آى القرآن الكريم وضروب العلم الحديث. ورد على كل من يكيد للدين ويرميه بالشبهات كرده على هانوتو. ومن أعماله الجليلة إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٣١٠ هـ

نثره: نهج فى أول حياته الكتابية نهج عصره من التزام السجع وتكلف البديع، مع عبارة طلية جيدة المعنى متينة المبنى، وأكثر ما كان ذلك فى رسائله الإخوانية وبعض مقالاته. ثم عدل عن هذا الأسلوب، وترسل كترسل الجاحظ، حينما تصدى للكتابة الصحافية، وللخطابة الدينية والعلمية. كما كان يستشهد بآى القرآن والحديث وبسائغ أقوال القدامى، حين تصدى للتأليف فى علوم

الدين وتفسير القرآن الكريم ، وشرح الكتب الأدبية . وقد انتفع أيما انتفاع بإطالته القراءة والنظر فى نهج البلاغة حين شرحه . فنضح عليه الكتاب من فيض بيانه وسيب بلاغته ، وأعاره من نوره قبساً ، فقويت عباراته ، وجزلت تراكيبه . وكما ترى له الأسلوب الأدبى الرائع يبدو فيه حسن التصوير والنزعة الخطابية ، ترى له الأسلوب العلمى الدقيق يفيض عذوبة وسلاسة وسهولة ، كما يمتلىء بحسن المنطق وترتيب المعنى وإشراق الحجة .

شعـــره : له شعر متوسط الجودة يقوله فى أغراض نفسية خاصة به .

مؤلفـــاته : تعتبر مؤلفاته عظيمة القيمة . ولكنها قليـــلة العدد بالنسبة لرجل جليل كالإمام عرف بالجد والدءوب . ولكن علينا أن نراعى أن له عددا لا يحصى من المقالات جمعها المرحوم « السيد رشيد رضا » فى مجلدات بعنوان : « تاريخ الأستاذ الإمام » ، وأنه أسند إليه مناصب هامة لها عليه حق رعايتها ، وحسبك أن تعلم أن حياته وأعماله كانت ولا تزال غذاء دسما لنهضة العـــلوم والآداب وإصلاح الحياة الدينية ـ ومن هذه المؤلفات : (١) رسالة التوحيـــد (٢) تفسير جزء عم وتبارك وصورة البقرة وآل عمـــران والنساء (٣) شرح البصائر النصرية لابن سهلان فى المنطق (٤) الإسلام والنصرانية (٥) الرد على هانوتو (٦) نظام التربية فى مصر (٧) تعريب « الرد على الدهريين » للأفغـانى (٨) تقرير ضاف فى إصلاح المحاكم الشرعية . هذا عدا شرح نهج البـــلاغة ومقامات البديع الهمذانى . وبعض هذه المؤلفات طبع فى كتاب تاريخه .

نموذج لكتابته : ١ ـ أوردنا نماذج من كتابته وخطابته عند الكلام عن الكتابة والخطابة فاحفظها . ٢ ـ كتب إلى أحد أصدقائه فقال :

« تناولت كتابك ولم يذكر منى ناسيا ، ولم ينبه لذكرك لاهيا . فإنى من يوم عرفتك لم يغب عنى مثالك ، ولا تزال تتمثل لى خلالك . ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لى لفتنتَ بها ، ولحق لك أن تتيه على الناس أجمعين ؛ ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها ، لتزينها بالتواضع ، وتجملها بالوداعة ، ولتسعى إلى مالم يبلغه ساع ، فتكون قدوة لإخوانك فى علو الهمة ، وبذل ما يعز

على النفس فى نفع الأمة . زادك الله من نعمه ، واوسع لك من فضله وكرمه ، ومتعنى بصدق ولائك ، وجعلك لى عونا على الحق الذى أدعو إليه ، ولا أحيا إلا به وله ، والسلام . » .

٣ – كتب الأستاذ الإمام مقالا ضافيا فى « الرد على هانوتو » الذى كان قد كتب مقالا ضد الإسلام والمسلمين . فنقتبس من مقال الإمام ما يلى . قال :

« ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ، وما هى المدنيـة التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس ، وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربيـة لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئـك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالا بإجمال ! والتفصيل لا يجهله قومه ! وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به . – إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ! واليوم ! يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعـد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم ، فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .... » .

٢ – عبد الكريم سلمان « توفى سنة ١٩١٨م »

هو عبد الكريم بن حسين بن سلمان أغا . نشأ ببلدة « جنبواى » بمركز إتياى البارود بمديرية البحيرة ، وقد حفظ القرآن الكريم ثم تعلم بالأزهر . فبرّز فى العلوم الشرعية والعربيـة . وجمعت بينه وبين الأستاذ الإمام روابط الصداقة والود والتلمذة للسيد جمال الدين الأفغانى . فمال إلى الأدب ، وبرع فى الكتابة ، وظهرت له بعض المقالات الطلية فى الصحف . فاختير لمساعدة

صديقه الإمام فى تحـــرير الوقائع المصرية . ثم صار رئيسـا لتحريرها بعدنفى الامام ، فكان يفيض على قسمها الأدبى من سائغ بيانه . — ثم نقل إلى المحكمة العليا الشرعية فعين بها عضواً ، ثم رئيساً لتفتيش المحاكم الشرعيـــة ، وعضواً بمجلس إدارة الأزهر ، مع صديقه الأستاذ الامام بعد عودته إلى مصر . فكان له عضداً قوياً فى إصلاحاته ، وقد استقال من وظيفته سنة ١٩١٢ م . كما عرف بصفاء القلب والثبات على الحق ، مع علو جاه ورفعة مكانة . وقد توفى سنة ١٩١٨م .

أســـلوبه : كانت عبارته جزلة ، وتراكيبه فخلة . كثير الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والأحاديث وعبارات السابقين . ومع ذلك كلـــه كان به ميل إلى البديع والكتابة المسجوعة . وله مقالات كثيرة ورسائل إخوانية .

نموذج من كتابته : كتب إلى صديق له مهديا إليه كتابا ، فقال :

الإنسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كماله ، وزاد إقباله :

كتابى إلى الأستاذ ، والهدايا تزيد فى التواد ، وتوسع فى قوة الارتبـاط ، إن كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم . والشيخ منى بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيـــه . ولا داعية لى إليه سوى الصـــلة به . ولا أريد منه غير الوداد . « قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » — وقد اخترت لك من كتب الأدب العربى القديم كتابا حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك معترفا بأنه نموذج فضلك ، ومعنى أدبك . يعترف لك مهديه بأنه لاحظ المناسبات ، ونظر إلى الرغبات . وقبل أن تشتغل بالبحث فيـه عن اسمه والأوصـاف ، أعلمـــك بأنه كتاب : المنســوب والمضـاف ! فهنيئـا له بالشيخ يقـــدره حق قدره ، وهنيئـا للشـــيخ به يزيده فى أمره . وإن قبول الأستاذ لهـــديتى مكفول بحسن أخـــلاقه ، وطهارة أعراقه . وبعلمه بأن النفع بها وهى عنده أتم وأوفى . فله الحمـــد على ما قبل ، والشكر على ما أولى » .

٣ — علي يوسف (١) ١٢٨٠هـ - ١٣٣١هـ

هو الكاتب المفحم والصحافى القدير، السيد على يوسف بن السيد أحمد يوسف . ولد فى قرية « بَلَصفورة » من قرى مديرية جرجا بالصعيد من أسرة كريمة ، وتوفى أبوه وهو فى السنة الأولى من عمره . ثم لما حفظ القرآن الكريم وبدأ يتلقن القراءة والكتابة ، رأت أمه أن تنتقل به إلى أخواله فى قرية « بنى عدى » بمركز منفلوط بمديرية أسيوط ، وهناك لقى بعض العلماء . فساعدته صلته بهم على تحصيل بعض علوم اللغة والدين . — ثم أشخص إلى الأزهر ليتم هذه العلوم به . فدرسها مع بعض العلوم العقلية . ثم جنح به ميل إلى الأدب ، فبرع فى الكتابة ، واستطاع نظم الشعر . وقد أغراه ذلك بمكاتبة الصحف ونشر بعض إنشائه فيها . — ثم بدا له أن يخوض غمار الأدب والكتابة ، وأن ينزل إلى ميدان الصحافة . فطبع بعض أشعاره فى ديوان « نسمة السحر » . ثم ساعد الصحافى أحمد فارس فى كتابة صحيفة « جريدة القاهرة الحرة » ، ثم أسس هو وزميله الشيخ أحمد ماضى مجلة « الآداب » ، ثم أسسا صحيفة المؤيد فى سنة ١٨٨٩ م وهى أول صحيفة سياسية يومية أنشأها مصرى . ثم وقع خلف بين الصديقين أدى إلى انفصالهما واستقلال الشيخ على يوسف بتحرير « المؤيد » إزاء مبلغ من المال دفعه إلى زميله . وقد أمده بهذا المبلغ سعد زغلول ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبحت صحيفة « المؤيد » أوسع معرض لثمار عقول النابغين من المصريين فى مختلف الشئون من أدب وسياسة وعلم واجتماع ودين . وكان يكتب فيها فى عهدها الأول سعد زغلول ، وإبراهيم اللقانى ، وقاسم أمين ، ومحمد عبده ، وتوفيق البكرى ، وعبد الكريم سلمان ، وغيرهم . ثم وقع فى دنيا السياسة ما أبعد عنه كثيرا من هؤلاء . وظل هو قوام التحرير فى صحيفته . فما زال أمره يشتهر ، وخبره ينتشر ، ونجمه يعلو ويزدهر ، حتى نال الحظوة لدى سمو الخديوى عباس باشا . فبلغ من وراء ذلك

(١) ترجمته فى الهلال ص ١٤٨ سنة ١٩٢٢ ، راجع جورجى زيدان جزء ٤ ص ٢٨٠ و « النظرات » جزء ٣ للمنفلوطى ، وفى المفصل جزء ٢ . والسياسة الأسبوعية عدد ٩٦ ، ٩٨ سنة ١٩٢٨ م .

الغاية التى لم يظفر بها صحافى . رغم ما دب فى قلوب كثير من الناس من حسد له وحقد عليه ، وتطوعهم بالوشاية ضده وحوك حبال الوقيعة به . سواء أكان ذلك بحق أم بباطل . ولكن الشيخ كان واسع الحلم ، رحب الصدر صبورا جسورا ، يفوز بالحق فى النهاية ، ويظفر بالنصر عند الغاية . وكم بدت منه دماثة خلق ، وأمانة يد ، ونزاهة نفس ، وحسن منطق ، وقوة حجة وظل محببا إلى كثير من الناس لدفاعه عن الأمـة ولغتها ودينها . وقد أصهر إلى السادات الوفائية ، وكانت لزواجه ذاك قصة شغلت الناس والرأى العام زمنا طويلا . ولا نزال نحن أبناء الجيل الحاضر نستمع إلى أخبارها يقصها علينا أبناء جيله المنصرم . . . وقد انتهى من تلك القضية بالفوز . بل وأسندت إليه رئاسة الطريقة الوفائية بعد موت صهره ! ثم توفى سنة ١٣٣١ هـ .

أسلوبه الكتابى : كان يعمد أحياناً إلى السجعات المقبولة ، ولكن طبيعة الكتابة الصحافية دفعته إلى الاسترسال ، وأطلقت قلمه بالعبارة المجلوة ، والجملة الطلية ، والتركيب الرائع . وقد لا نجد فيه من المعانى العالية ، أو الخيالات السامية مايستدر إعجاب المنقب الخبير ، وخاصة فى سياساته . ولكن كان لأسلوبه من القوة التى تروع القلوب مثل ما للطبل المدوى ساعة تتلهف الآذان إلى تدويته . ولذلك كانت قدرته الكتابية إنما تظهر فى حسن تخيره لأنسب الفرص ليزجى فيها بيانه ويطلق بنانه . فإذا النفوس على استعداد لقبولها قبولا حسنا . ثم لا يبقى بعد ذلك منها إلا مثلٍ ما يبقى بعد الدقة القوية من رجع وصدى ! وكثيراً ما تخللت كتابته الروح الخطابية والنزعة الوجدانية . ولذلك كان لصحيفته منزلة مومومقة ، حتى لقد كان الناس يتحرقون شوقا إلى وقت صدورها .. ولا نبالغ إذا قلنا : إنه مؤسس النثر الصحافى المصرى . . .

ويجدر بنا أن نعرف لهذا الرجل أنه لم يستخدم قلمه إلا فيما يرى فيه مصلحة بلاده ، فكافح أعداءها ، ونافح عن حقوقها ، ودعا إلى إصلاح مرافقها ؛ ونادى بضرورة اتخاذ العربية أداة للتعليم بعد أن أحل الاحتلال لغته الانجليزية محلها وقد قال : « إن تعلم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها . أما تعليمها بلغةٍ أخرى فهو إنما ينقل أفرادا منها إلى العلم » . وقد شارك فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية . داعيا إلى ذلك بمقالات ضافية .

نموذج من كتابته : كتب مقالة بعنوان : (لا تعصب فى مصر) فقال منها :

« التعصب بالمعنى المعروف فى الغرب عن أهل الشرق ، وبعبارة أخرى عند المسيحيين عن المسلمين ، هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الأولين ، انبثاثا يحمل على الاعتداء عليهم حينا بعدحين . — التعصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التى ينهى عنها الدين الإسلامى ، والقوانين الاجتماعية . وفى نظر الأوربيين ، هو التوحش الذى يفتك بنفوس الأبرياء كلما ثار ثائره . أو هو أشبه بالغول الكاسر الذى يندفع بعماية فيفترس كل ما فى طريقه من نفوس البشر . التعصب على هذا مجموع أرواح شريرة لانظام لها فى ثورانها وعدوانها ، نعوذ بالله من أن ترزأ أمة بهذا البلاء العظيم . قالوا : إن المصريين متعصبون تعصبا دينيا !! . ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم فى الدين كراهة عمياء ، يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية ، كلما سنحت لهم فرصة الافتراس ، أو استفزهم صائح . — فى البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة ، يتجاور أهلوها فى المنازل ، ويتشاركون فى المرافق ، ويتنافسون فى الأعمال . فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة !! ولو كانت فى فطرة المسلمين ، أو فطرة الفريقين للاشت الأكثرية الأقلية فى عصور مضت . . » .

٤ — عبد العزيز جاويش (١) « توفى يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ م »

الوطنى الغيور ، والخطيب الذرب ، والصحافى الماهر ، والكاتب القدير والعالم الفاضل ، والمربى الجليل ، والمجاهد الشجاع الصابر ، والمسلم المنافح عن دينه .

ولد بالإسكندرية من أسرة مغربية الأصل ، وأبوه «خليل جاويش » كان تاجراً معروفاً فى هذه المدينة . وكان ورعا متمسكا بأهداب دينه ، فدفع ابنه إلى أن يحفظ القرآن الكريم . ثم ألحقه بجامع ابرهيم باشا المعروف بالإسكندرية

(١) تجد ترجمته فى كراسة أصدرها الحزب الوطنى بمناسبة ترشيح الأستاذ بالجرك سماها : « الصحف الخالدة » . وقصة رجوعه إلى مصر متنكرا فى مجلة « الدنيا » الصادرة فى ٦ إبريل سنة ١٩٣٨ م . وقد استقيت بعض ما أوردته فى هذا المقال عن الفاضل الدكتور منصور فهمى القاضى كاتم سر جمعية الشبان بالإسكندرية فله الشكر .

بجامع (الشيخ) والذى لا يزال بها حتى اليوم ، وكان أحد المساجد التى تدرس بها علوم الدين واللغة . فأصاب (عبد العزيز) منهما أثارة أعدته لأن ينتظم فى صفوف الطلاب بالأزهر الشريف . فالتحق به ، واتصل بكبار علمائه ، ومازال ، حتى عُرف بين أنداده بالذكاء والجد والجرأة والاعتداد بالنفس ، فتقدم إلى مدرسة دار العلوم حيث ظهر نجمه متألقا بين طلبتها . ونضحت عليه تلك الدار طلاقة اللسان وبلاغة البيان وقوة الايمان ، حتى صار لطلابها إماما بارعا وقدوة حسنة . — ولما حاز منها إجازة التدريس ، وظف مدرسا بمدرسة الناصرية . ثم اختير عضواً فى إحدى بعثات وزارة المعارف إلى إنجلترة للتخصص فى التربية والآداب . فأجاد اللغة الإنجليزية واقتبس من علوم الغربيين ما وسع مداركه ، وأنضج ثقافته . ورأى من حالتهم الاجتماعية ، وروحهم الوطنية ما غرس فى نفسه حب النهوض ببلاده وإصلاحها . وشاهد عن كثب ما يدبره الغرب القوى للشرق البائس الضعيف من ضروب المكيدة ! فحفزه كل هذا إلى أن يتصدى للدفاع عن بلاده . — وحين عودته من البعثة عين مفتشاً بوزارة المعارف . ثم غادرها إلى جامعة « أكسفورد(١) » بإنجلترة مدرساً للغة العربية فيها . — ثم عاد ثانية . فنيط به التفتيش بوزارة المعارف مرة أخرى . — وكان قد اتصل برجال الحزب الوطنى . وما حانت سنة ١٩٠٨ م حتى استقال من عمله الحكومى ، وآثر عليه العمل الحر . وانضم علانية إلى الحزب الوطنى حيث أصبح رئيساً لتحرير « اللواء » بعد موت مصطفى كامل باشا . وهنا وهب قلمه للدفاع عن البلاد . وظل زمناً طويلا ينشر فى « اللواء » مقالاته تباعا . ولقد اشتهر من بينها بعض المقالات الدينية والاجتماعية التى لايزال صداها يطن فى الآذان . . فكان بذلك داعياً سياسياً ، ومصلحاً اجتماعياً ، وواعظاً دينياً . لايعرف فى الحق هوادة ، ولا فى المبدأ ذبذبة ، ولا فى الوطنية رياء ، ولا فى الدين ضعفاً . صريحاً كل الصراحة ، يكره النفاق والمواربة . وقد جنت عليه صراحته تلك ! فأحاطته بكثير من الأعداء . حتى لقد انتهزوا الفرصة ، وحاكوا

(١) ذكر بعض الكتب أنها « كمبردج » وهو خطأ . راجع عنوان كتابه « الإسلام دين الفطرة » ، ومقاله في « اللواء » عدد ٧ / ١٢ / ١٩٠٨ م .

له تهمة حكم فيها القضاء بحبسه ثلاثة أشهر هو والمرحوم محمد بك فريد، لأنهما كتبا «تقديماً» لكتاب «وطنيتي» من شعر الشيخ على الغاياتى. - وبعد سراحه من سجنه نزح عن البلاد إلى القسطنطينية. آملا أن يجد فيها راحة وحرية. ولكن دُسَّت عليه بعض المنشورات فقبض عليه بسببها وسيق إلى مصر، حيث اعتقل أربعين يوماً بغير تحقيق. ثم برئ. فعاد مرة أخرى إلى القسطنطينية مرغماً سنة ١٩١٣ م وهبت رياح الحرب الكبرى، فاعتاص عليه الرجوع إلى بلاده وأهله! وطفق يتجول فى أقطار أوربا وخاصة ألمانيا. وبذلك أتقن اللغتين التركية والألمانية. ولم ينس يوماً أن يجاهد فى سبيل مصر والدين. ومع أنه قد اتفقت عليه آلام الغربة والفاقة، كاد ينساه قومه. - عفا الله عنهم -. أولئك القوم الذين قلدوه يوماً «وسام الشعب»! تكريماً له عند خروجه من السجن. وقد قيض الله له فى تركيا بعد زمن من يرفع منزلته ويعلى مكانته. واستخدمه مصطفى كمال زعيم تركيا، مديرا للجامعة الإسلامية فى أنقرة. حتى أراده على إصدار فتوى ضد الخلافة فامتنع. وبذلك شعر أنه أصبح يعيش فى جو هو عنه غريب. فتاق إلى العودة لبلاده. وناسب ذلك أن كانت الأمة قد ظفرت بدستورها، وأعدت العدة لخوض غمار الانتخابات الأولى لمجلس النواب. فعمل الشيخ وعملت معه جماعة من أحبائه على مجيئه إلى مصر فهبط إلى الإسكندرية فجاءة هبوط المتخفى بعد غياب اثنى عشر عاما. ولهذا التخفى والهبوط قصة طريفة ومؤلمة معاً! - فتسامع الناس برجوعه، وطلعت بأخباره ومقالاته صحيفة «الأخبار» - ولكن كثيراً من النفوس لم تهش له أو تبش! فظل يسحب أذيال بؤسه زمناً، صابراً صبر الكريم، مستمراً على تنكره. وكانت الحكومة جادة فى البحث عنه معنيّة بالقبض عليه. وما هى إلا أن حفزته شجاعته حتى ألقى بنفسه بين يديها فراعها!؛ ولكنها أمرت بإطلاقه فصدعت بأمر ولى الأمر. فتقدم مرشحاً عن الحزب الوطنى فى دائرة الجمرك. ولكنه لم ينجح! فعاود الكتابة الصحافية. ولكن المغفور له جلالة الملك فؤاد رأى أن تنتفع وزارة المعارف بمواهبه، فعين مراقباً للتعليم الأولى. فشمر عن ساعد الجد فى نشر هذا النوع من التعليم لإنقاذ البلاد من جهلها وأميتها. فانتشرت

بهمته مدارس المعلمين الأولية والمدارس التحضيرية والإلزامية. ووضع لكل منها البرامج الكفيلة بنجاحها، غير مكترث بما يحوكه حوله منافسوه من عقبات. . . وقد كانت لشخصيته الفذة قوة ذللت أمامه كل شيء. - وكان لا يفتأ - كما هي عادته - بين آنة وأخرى يتسنم منبراً أو يكتب مقالا، أو يؤسس جماعة، أو يبعث فكرة. وكل ذلك في سبيل الوطن والأمة والدين. - وظل بمنصبه الأخير حتى وافاه الأجل في صباح يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٣٤٧هـ - ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩م(١). ودفن بجانب المرحوم أمين الرافعي في مقبرة مصطفى كامل باشا.

بعض أعماله : إذا أردت أن تعرف بعض أعمال هذا الرجل، فسائل عنه مناصبه التي تولاها. ففي كل منها أثر منه حميد. سواء أكان في التعليم أم الصحافة. وله فيهما - كما له في المسائل الوطنية والدينية والاجتماعية - مقالات طويلة ممتعة، وخطب فياضة شائقة، وأفكار سديدة موفقة. وللأسف لم تجمع هذه الآثار الأدبية الثمينة كلها في صعيد واحد، ولعل نجله الكريم يتدارك ذلك. وقد كان - رحمه الله - (١) في مقدمة الصحافيين، ومؤسسي الجمعيات والمدارس الخيرية، فزيادة عن قيامه بأعباء رئاسة «اللواء» أصدر مجلته الشهرية «الهداية» للبحوث الدينية. وأسس «جمعية المواساة الإسلامية» بالإسكندرية كما أنشأ المدرسة «الإعدادية الثانوية» أولى المدارس الأهلية، و «مدارس الشعب» لتعليم العمال في الليل، كما أرسل الحزب الوطني بناء على اقتراحه أول بعثة أزهرية وطنية إلى فرنسا حوالى سنة ١٩١١م. (٢) ولما نزح إلى تركيا واصل إصدار «الهداية»، وجهد في شراء مطبعة خاصة بها، وعانى في طبعها ما عانى حتى لقد كان يعمل بيده في صف حروفها ! ليصدرها حافلة بالبحوث الاجتماعية والدينية والأدبية. وأصدر صحيفة يومية تركية عربية سماها «الهلال العثماني» ومجلتي «العالم الإسلامي» - وهي غير مجلة مصطفى كامل باشا - و «الحق يعلو». وأنشأ «جمعية مواساة إسلامية» على غرار جمعية الإسكندرية. ومع ذلك كله تصدى لإلقاء دروس في التفسير بجامع الفتح بالقسطنطينية. (٣) ولما عاد أخيراً إلى مصر عمل على تأسيس

---

(١) ذكر بعض الكتب أن وفاته سنة ١٩٢٨م، وهو خطأ، راجع صحف يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٢٩م.

« جمعية المواساة الإسلامية » بالقاهرة. وسعى فى إنشاء « جمعية الشبان المسلمين » التى اشتد اليوم ساعدها وتعددت فروعها. كما رأس « جمعية مكارم الأخلاق الاسلامية » الحالية منذ أول نشأتها. وكان على وشك أن يعيد « الهداية » إلى عالم الظهور، فمنعه الموت ما يريد!

ولقد رأيته وسمعته يخطب على المنابر العامة مراراً. كما أحفظ له ذلك الموقف التاريخى الرائع الذى وقفه فى مدرج مدرسة « المعلمين العليا » حوالى سنة ١٩٢٦ م بين جمع حاشد من وزراء مصر وعظمائها، وشبيبتها الناضجة. وكانوا قد اجتمعوا لسماع محاضرة يلقيها أحد علماء سوريا الأفاضل فى « فضل المستشرقين »! فما انتهى المحاضر من خطابته حتى هب الشيخ فقفز إلى المنبر بخفة. فارهفت له الأسماع، واستشرفت النواظر ووجبت القلوب... فشكر المحاضر أولا، ثم ارتجل فى نفس الموضوع خطبة أخرى بلباقة وحماسة وحسن بيان، نقض بها كلام المحاضر من أساسه! بالدليل والبرهان... وحمل على المستشرقين حملة وطنية شعواء. لأنهم أصابع الاستعمار وسرجه... وهذا قل من كثر من مواقفه.

بعض مؤلفاته: لا شك أن من شغلته ظروف بلاده السياسية، وحببت إليه المغامرات الوطنية، وعني بالجول والصول فى ميدان الصحافة — كهذا الرجل — جدير بأن يكون ذا محصول يسير هين فى باب التأليف. ولكن لو جمعت مقالاته وخطبه ومحاضراته لكان منها مجلدات ضخمة...

ومع ذلك فللشيخ مؤلفات نجمل منها ما يأتى: (١) كتاب فى التربية العلمية والعملية اسمه: «غنية المؤدبين». (٢) كتاب فى الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه، اسمه « الإسلام دين الفطرة ». (٣) كتاب فى تفسير بعض آى القرآن الكريم كان يصدره تباعا فى « الهداية »، ثم جمعه فى كتاب ضخم وهو فى تركيا، وسماه «أسرار القرآن» وهو أثمن كتبه، وقد قدمه ببحث فى كيفية نزول القرآن، ومعنى نزوله على سبعة أحرف وغير ذلك من الموضوعات المناسبة للتفسير. ونحا فى شرح الآيات شرحا سليما من التأويلات المتعثرة، بعيداً عن الجمود والبدعة معاً. (٤) وله محاضرتان مطبوعتان: إحداهما فى « آثار الخمر: فى نظر أرقى

الأمم المسيحية بأمريقا وغيرها ». والثانيـة فى « أثر القرآن فى تحرير الفـكر البشـرى ».

أسلوبه الكتابى: كان أحيانا يميل إلى السجع ويجنح إلى البديع ، ولكن أكثرعباراته قوية شديدة الأسر ، من وادى الخطابة الحماسية الأخاذة . مع إحكام نسج ، وسهولة ممتنعة ومعانى مكتنزة ، وأفكار مهذبة مرتبة ، وبراهين قاطعة ، وأسلوب صحيح فصيح ، قد تخالطه أحيانا كلمة عامية أو تركيب محرف ، مما لا يسلم منه كاتب ، إلا من عصمه الله .

وقد كان — رحمه الله — يغشى المجالس والمحافل ، ويتسنم المنابر فى النوادى والجمعيات . فإذا خطب اهتزت لقوله النفوس ، واجتمعت على رأيه القلوب ، وكانت خطاباته أو مقالاته فى سبيل إعلان الدين وبيان ما فيه من سماحة وحكمة ، وفى سبيل إعزاز مصر ورفعة الشرق ، والدعوة إلى بغض الاستبداد والاستعمار .

نماذج من كتابته : ١ — كتب فى صحيفة « اللـواء » لأول مرة تولى فيها رئاسة تحريرها مقالا ضافياً ، جعله « عهداً » عليـه يسعى للعمل به . فنقتطف منـه ما يأتى :

« بعونك اللهم ، قد استدبرت حياة زادُها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس .فى أسواقها النافقة تُشترى نفيسات النفوس، بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس .— ويمنك اللهم ، أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعـد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب ، الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه . أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر ، منبريا فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر . موقنا بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين ، من الظفر والفتح المبين »

٢ ـ خطب مرة خطبة طويلة فى « المرأة المصرية المسلمة » . وقد نشرت في « اللواء » بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٩٠٨ م ـ فإليك بعضا منها ، قال :

« إن المرأة – أيها السادة – لم تخلق لتكون متاعا فى يد الرجل يتناوله متى أراد، وينتبذه كيفما شاء، إنما المرأة – أيها السادة – سلوان الرجل، ومعوانه على الدهر. تسكن إليه إذا ما سكن إليها، وتخدمه إذا ما أقبل عليها. إذا مرض سهرت الليالى، وقطعت الأيام خادمة له مبلغ جهدها، غير مشتكية من ألم ولا متضجرة من نصب، تدعو له بكل جوارحها، وتلتمس له العافية من جميع سبلها. حياتها الطيبة أن يبقى، وصفوها أن يسلم. تفديه بمهجتها، وتسترضيه بكل ما ملكت يدها. فإذا مات كانت أول من يشققن عليه الجيوب، ويلطمن الوجوه، ويرفعن أصواتهن بالبكاء والعويل. – فإذا كانت هذه الحالة هى حالة المرأة.. فما الذى يجب على زوجها لها! » ثم أخذ يبين ما يجب على الرجل نحو المرأة شرعا.

٣ – كتب مقالا بعنوان « مدرسو اللغة العربية المصريون فى بلاد الانكليز » رد به على إحدى الصحف الإنجليزية التى حملت عليه لأنه كان شديد الخصومة للإنجليز، ولم يراع أنه كان مدرسا للعربية فى بلادهم، داعية إلى الاستعان بأمثاله مرة أخرى! وقد نشر فى « اللواء » بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٩٠٨ م فمنه:

« نصح إلىّ المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد، أن أقتدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادونى تمسكا بدينى، رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم فزادونى حرصا على لغتى. أبصرتهم يتفانون فى الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف فى أموالهم ورقابهم، فأخذت أحاكيهم فى هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه. رأيتهم يحبون الصراحة، ولا يخشون معتبة، ولا يتهيبون متعبة، مادام الحق لهم، فأخذت أحاكيهم فى تلك الفضائل التى نصح بها إلىّ عمادهم بنظارة المعارف العمومية! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادى، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع، فكان حقا على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب فى مدح من نجح فى تقليدهم ومحاكاتهم فى فضائلهم، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين! ».

٥ – السيد مصطفى لطفى المنفلوطى[١] ١٨٧٦م - ١٩٢٤م

قدوة الطلاب ومحبوب الشباب وطليعة الكتاب . ولد فى منفلوط سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦ م من أسرة شريفة . قيل ينتهى نسب أبيه محمد إلى حسين ابن على رضى الله عنهما . وكان قاضياً شرعياً . وأما أمه فتركية . وقد حفظ القرآن الكريم ، وبدأ يكتب ويقرأ . ثم التحق بالأزهر فأخذ بنصيب من علوم الدين واللغة . ولكنه أحس فى نفسه ميلا إلى الآداب والاجتماعيات . فغذى هذا الميل بالانكباب على مطالعة دواوين شعراء العرب وكتب الأخلاق والأدب . حتى هضم الكثير منها واستساغها ، وأجادها حفظا وفهما . فكان لذلك أثره فى ترقيق عاطفته ، وتهذيب وجدانه . وكأنه نظر إلى من حوله من الناس فرأى ما يخبون فيه من آلام ، وما يفيضون فيه من جهل . فما له أمرهم وشفه ما شفهم . فراض قلمه على أن يعبر عما بهم ، ويترجم عن مصابهم . وأن يسوق لهم من العبرة والعظة ما فيه إصلاحهم ، ومن الحكمة والنصح ما فيه إسعادهم . فاستقام له من وراء ذلك أسلوب كتابى خاص ، وطائفة من الشعر . وكان يبعث ببعض ما يكتبه إلى الصحف وخاصة «المؤيد» ، ثم اتصل بالأستاذ الامام فأعجب به وأصبح من خاصة تلاميذه . ثم اتهم بذم سمو الخديوى عباس باشا فحُكم عليه بالسجن ، ثم أطلق سراحه وعفى عنه — وبعد وفاة أستاذه وصديقه الإمام محمد عبده عاد إلى بلده واستقر به زمناً ظل فيه يكاتب الصحف فى موضوعات شتى منها ، الخلقية والنفسية والاجتماعية ، وخاصة ما كان منها بعنوان « النظرات » . ثم بدا لسعد زغلول باشا حين تربعه فى دست وزارة المعارف أن يستعين بقلم المنفلوطى فى وظيفة يعينه بها ، فاستخدمه محرراً عربياً فى وزارته ، ثم انتقل معه إلى وزارة الحقانية ، ثم فصل من منصبه . فظل يتردد بين بلده والقاهرة ، قليل التودد إلى الناس حتى لا يتهم بملق أو حب زلفى . وأغراه بذلك رزانته ووقاره وجلال طلعته وعفته وعزة نفسه ، صابراً مع ذلك على عنت الليالى وجور الأيام وفجائع الدهر لا إيمانه

(١) راجع المفصل جزء ٢

بالله ورضاه بما ينزل به القدر . مات له طفلان فى أسبوع فصبر على البلوى صبر الكريم . ثم توفيت زوجته وكانت أحب ما فى الدنيا إليه . فلقى المصاب لقاء الحليم .

وقد استدعاه سعد مرة أخيرة وأسند إليه وظيفة كتابية فى مجلس النواب أول نشأته . ولكنه ما عتم أن أهاب به داعى الموت فأجاب . وكان ذلك سنة ١٩٢٤ م .

أسلوبه الكتابى : منذ راض على الكتابة يراعته ، أصبحت هذه اليراعة أطوع له من الحسام فى يد المقدام ، فأينما يوجهها تقطع وتفصل ، وأصبح بيانه ترجمان نفسه ومرآة حسه ، ولذلك تشعر وأنت تقرؤه أنه يكتب حقا ويسطر صدقا ، وكأنما اتصلت روحه بروحك ، واختلط خاطره بخاطرك ، ومازج بين إحساسه وإحساسك ، واطلع بفراسته على مكنون ضميرك ، فقرأ فيه ما استتر ، واطلع على ما استكن ، ثم أوحى بذلك كله إلى تلك اليراعة الطيعة ، فرتلت مايوحى به إليها سطورا ! فترى فى عبراته عبراتك ، وفى « نظراته » نظراتك ، وتقرأ فيما كتبه من روايات وقصص آلامك وآمالك وأحاسيس نفسك ، بأسلوب تحليلى دقيق ، وليس حسبه فى تصوير القول وتخييل الحديث أن يعتمد على ذهنه الخصيب ، وعقله المصيب ، فقط ، بل هو يقبس من نفسه بمقباس ! فيرسل القول إرسالا دون تكلف ، ويسمو فى عباراته سهولة وجزالة ، وسلاسة وروعة خيال . لذلك أصبح كلامه أدنى ضروب النثر إلى الشعر ـ وكانت له نفس أدبية وذوق سليم مطبوع ، قدير على صقل أسلوبه وتهذيبه كما يهذب الموسيقى الفنان أدوار غنائه ، ولذلك قلّ أن تجد فى عبارته لفظا مقهوراً ، أو تركيبا مغلوبا على أمره ، أو جملة نابية ، أو سجعة غير منسجمة ، أو قولة مأثورة فى غير مناسبتها . مع حسن ابتداء وروعة مطلع ، تتتابع بعده المعانى فى عباراتها تتابعا طبيعيا يشوق القارىء إلى قراءتها كلها ، وينتهى منها غير شاعر بملل أو نصب ، ويود لو أطال الكاتب وأسهب ، وزاد وأطنب ، حتى يُشبع نفسه وروحه من هذا الغذاء الأدبى الدسم الرقيق .

لهذا كله : أصبح أسلوب المنفلوطى ينم عنه ويشير إليـــه ، وأصبحت له فيه « شخصية » لم يرزقها كثير من الكتاب فيما كتبوه ، وقد شهد له بذلك سعد زغلول باشا إذ قال له : « إنى لأرى لك فى كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيرا فى أقلام الكاتبين » .

والمنفلوطى من كتاب النقد والاجتماع والقصـــة والأدب ، برع فى تدبيج الفصول الوصفية والمقالات الاجتماعية والقصص والروايات ، وله فضل كبير فى إدخال فن القصة النثرية إلى الأدب العربى أجود ماتكون أسلوبا وأجمـــل ما تبدو معانى ، فقضى بذلك على تلك النغمة المرذولة التى تنعى على العربيـــة خلوها من القصة وعجزها عن أدائها .

وقد استعان ببعض أصدقائه ممن لهم تخرج فى لغة أجنبية على الاطلاع على روائع الأدب والقصة الغربيـين ، كما استطاع بوساطتهم نقل بعضها إلى اللسان العربى المبين نقلا أضفى عليها جدة ، وأسبغ فوقها روحا عربيـــة خالصة ، ثم قدمها إلى الأدب وقرائه تحفة فنية رائعة تلقاها الناس فى شغف وتلهف عظيمين ، حتى ليحسبها بعض الناس أنها بنت يده ونتاج عـــقله ووليدة قلمه ، خالصة له لا يشاركه فيهـــا مشارك ، - وأصبحت قصارى متعاطى الأدب والمقبلين على الارتواء منه أن يترسموا خُطا المنفلوطى ، وينهجوا نهجه ، ويُصقلوا بصقاله ، وخير ماجاد به قلمه وصف الحوادث الفاجعة . . .

ومن كتبه : « العبرات » : وهى مجموعة فصول وقصص قصيرة رائعـــة النسج سامية المعنى . ومنها : « النظرات » ، وهى ثلاثة أجزاء بهـا فصول فى النقد والأخلاق والاجتماع والوصف والأدب والتاريخ . - ومن رواياته : « مجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » ، ومنهـا : « الفضيلة أو بول وفرجينى » ، « فى سبيل التاج » ، « سيرانو دى برجراك » ، « الانتقام » . وله مختارات شعرية سماها « مختارات المنفلوطى » . ومعظم كتبه أداة صالحة لتربية الوجدان . .

شـــعره : له شعر متوسط الجودة طرق به أغراضاً نفسية ووصفية كذم الدهر ، والشكوى ، وكالقصص ، وقد عبث بكثير منه يد الضياع .

نموذج من كتابته : ١ – كتب فى إحدى رواياته المترجمة يصف «الشاعر» فقال : « أنت شاعر يا مولاى ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فان أعوزتك السعادة ففتش عنها فى أعماق قلبك .. فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه ..

السماء جميلة : والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافى ، فيرى فى ذلك العالم العلوى النائى مالا تراه عين، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم : والشاعر هو الذى يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى فى صفحته الرجراجة المترجحة صور الأمم التى طواها ، والمدن التى محاها ، والدول التي أبادها ، وهو باق على صورته لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يبلى على العصور والأيام .

والليل موحش : والشاعر هو الذى يسمع فى سكونه وهدوئه أنين الباكين وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى آفاق السماء ، ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخيالات السعادة أو الشقاء الهائمة فى رءوس المجدودين والمحدودين » .

٢ - كتب مقالا يرثى به « الشيخ عليا يوسف » ، فصور فى بضعة أسطر منه الرجل الذى يخدم أمته ، فقال :

« إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه ، الرجل الذى يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته ، التى يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعى لها ، فيقوم لها بكل ما تريد ، ويسعى لها سعى الكادح المجد ، ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها ، ويرى لها فى كل شأن من شئونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها . من حيث لا يمن عليها بذلك ، ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً . بل من حيث لا تعلم ما يلاقى بينه وبين نفسه من آلام الحياة ، وما يعالج من شدائدها فى سبيلها » .

٣ - كتب فى نظراته الجزء الثالث قصة عن طفلة توفيت بعنوان : « إيفون الصغيرة » ، وهى مترجمة . فنقتطف منها ما يلى :

« ماتت ! وكأنها لم تمت ... ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام

التى قاستها فى مرضها . يحسبها الرائى نائمة نوما هادئا لذيذا . . . ويخيل إليه أنه يسمع أنفاسها المترددة . ويرى هبوط صدرها وارتفاعه . ـ أين صفرة الموت ونحوله ؟ أين آلام النزاع وشدائده ؟ أين الغضون التى خلفتها الأوجاع فوق جبينها ؟ والدوائر الزرقاء التى رسمتها حول جفنيها ؟ ـ لقد مات كل ذلك بموتها . . . فعاد لها رونقها وبهاؤها ، وأصبحت كأنما خلقت الساعة ! ولما تنبعث الروح فى جسدها ! ـ بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفئة ، باسمة مطمئنة ، تلاعب هرتها . وبهذا الفم الأرجوانى القانى ، كانت تغنى أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة . . . وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع ، وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ . . . » .

نموذج من شعره : كتب فى نهاية روايته « بول وفرجينى » نفس القصة شعرا ممزوجا بالحكمة . فمنه هذه الأبيات :

يا بنى القفر سلام عاطر	من بنى الدنيا عليكم وثناء
وسقى العارض من أكواخكم	معهد الصدق ومهد الأتقياء
كنتمُ خير بنى الدنيا ومن	سعدوا فيها وماتوا سعداء
عشتمُ من فقركم فى غبطة	ومن القلة فى عيش رخاء
لا خصام ، لا مراء بينكم	لا خداع ، لا نفاق ، لا رياء
خلق بر وقلب طاهر	مثل كأس الخمر معنى وصفاء
ووفاء ثبت الحب به	وثبات الحب فى الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبرا	فى البرايا وعزاء البؤساء
يجتلى الناظر فيها حكمة	لم يسطرها يراع الحكماء
حكم لم تقرءوا فى كتبها	غير أن طالعتمُ صحف القضاء
وكتاب الكون فيه صحف	يقرأ الحكمة فيها العقلاء

الترجمة العلمية والأدبية

وبيان أثرها فى أسلوب الكتاب والشعراء وخيالهم ومعانيهم

الحاجة إلى الترجمة

لابد للأمة الضعيفة المخذولة التى فرق الزمن بينها وبين العلم الصحيح، والتى باعدت الأيام بينها وبين الحياة الروحية السليمة، إذا ما ساورتها فكرة النهوض وحاولت أن تقيل نفسها من هذا العثار. لابد لها من أن تمر بدورين لا محيد لها عنهما، الأول: دور الترجمة والنقل عن الأمم المتحضرة التى سارت من قبلها صعداً فى سلم المجد العلمى، وارتقت معراج الحياة الروحية الأدبية السامية. حتى إذا ما روى ظمؤها وزال صدؤها، وتمثلت فى سريرتها حقائق العلوم ونظرياتها وطرق البحث ونظمه، واستقر فى سجيتها فهم الأدب وحيويته والحاجة إليه. آن لها بعد ذلك أن تنتقل إلى الدور الثانى، وهو دور التأليف والابتكار، تقدم عليه غير هيابة ولا وجلة مزودة بملكة علمية ومقدرة أدبية سرت كل منها فى سلائقها سريان الدم النقى فى شرايين الجسد.

وليس معنى ما تقدم أن كل دور منفصل عن الآخر. لا بل كثيراً ما تبدو روح التأليف والابتكار، ولا يزال دور الترجمة فى إبانه وينعه.

أسباب نهوضها فى مصر، وطرقه ونتائجه:

ولقد كان من حظ مصر – بعد أن كان قد كبا بها جوادها – أن أتاح الله لها ذلك العاهل الكبير محمدا علياً باشا فرأى بثاقب نظره وصائب فكره أنه لابد لبلاده من أن تلج دور ترجمة ونقل عن أمم أوربا التى بلغت شأواً بعيداً فى سبيل الرقى العلمى. ويكون هذا الدور متشعب النواحى كثير الضروب مثمرا، حتى يخلع عنها رداء هذه الفاقة العلمية الشديدة. فشمر عن ساعد الجد، وبذل فى سبيل الترجمة مساعى جليلة الشأن آتت ثمرها شهيا. ولقد أشرنا آنفاً إلى ذلك. فمنه:

(١) بعث البعوث العلمية إلى أوربا . وتوصية أعضائها بالاقــدام على ترجمة كل ما يمكن ترجمته عن أمم الغرب من كتب العلوم الحديثة . (٢) جلب المترجمـــين الذين استخدمهم فى مدارسه الجديدة وخاصة فى مدرسة الطب. (٣) إنشاء مدرسة الألسن لتخريج شيبة قادرة على اللغـــات الأجنبية يمكن إسناد مهمة الترجمة إليها . (٤) تأسيس قلم خاص للترجمة برئاســـة رفاعة بك الطهطـاوى ، وفريق من متخرجى البعثات ومدرسة الألسن ، عهد إليـه بترجمة كثير من الـكتب العلمية عن الأوربيين .

وكانت نتيجة هذه الحركة المباركة : نقل العلم ، وتسهيل التعليم ، والأخذ عن الأساتذة الأجانب الذين ملئوا إذ ذاك نجاح المدارس فى البلاد ، وكذلك ترجمة كثير من كتب الطب والتشريح والطب البيطرى والزراعة والصباغة والـكيمياء والفنون الهندسية والعسكرية .

وقد فتر أمر الترجمة بعد محمد على باشا . ولما تربع إسماعيل باشا فى دست الحـكم ، وانتشر فى عهده التعليم وفتحت المدارس ، وأرسلت البعوث ، وكثرت الرحـــلة بين مصر وأوربا وتوثقت بينهما الصـــلات ، وجدت الترجمة فى هـــذا الميدان مراحا واسعاً ، فاشتغل بها كثيرون فترجمت كتب فى القانون والتاريخ والاقتصاد وغيرها . وما زال أمرها من بعده بين كبوة ونهوض حتى اتســـعت دائرتها سعة محمودة فى أيام المغفور له فؤاد الأول لأسباب ، منها :

(١) انتشار المدارس المختلفة بين صناعية وتجارية وثانوية وكليات جامعية . (٢) وما تناول مناهجها من تهذيب . (٣) وتقرير مواد دراسية تحتاج إلى مراجعة الـكتب الأوربية . (٤) ومما عزز هذه الحركة بعث البعوث إلى كثير من نواحى أوربا وغيرها . (٥) وانتشار السفارات بين مصر وسواها . (٦) والإكثار من عقد المؤتمرات الدولية فى القاهرة . (٧) انتشار الصحف وعنايتها بنقل الأخبار الخارجية . (٨) الرغبـة فى ملء الفراغ العلمى والأدبى الذى يرى فى لغتنـا ، وخصوصاً

فى العلوم الحديثة ، وما تناسى العباسيون ترجمته كالقصص والشعر التمثيلى .

وقد ترجمت عدة كتب فى الفلسفة والتربية وطرقها وتاريخها ، وفى التاريخ والتقويم والطب والهندسة ، وفى الصناعات والكيمياء وعلوم الرياضة ، وعلوم الاجتماع والقوانين والدساتير ، والقصص التاريخية والوضعية والتمثيلية ، وطرق البحث والنقد الأدبى ، وغير ذلك .

ونلاحظ على حركة الترجمة ما يأتى :-

١ - أنها كانت معنية بالعلوم أولا ، ثم أخذت تعنى بالآداب منذ عصر إسماعيل باشا . أما فى سوريا فقد عنيت أول الأمر بالآداب أيضا لاتجاه الهمة خاصة إلى ترجمة التوراة .

٢ - أنها كانت حركة حكومية بعيدة عن نشاط الأفراد الخاص . ولكن منذ فجر النهضة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ م وقبيلها ، بدأ كثير من رجال مصر وأفذاذها يغامرون فى سبيل الترجمة علمية وأدبية . ومنهم : فتحى زغلول فى كتاب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » و « روح الاجتماع » عن جستاف لوبون . وسليمان البستانى معرب « إلياذة هوميروس » شعرا . ويعقوب صروف فى كتاب « سر النجاح » . وحافظ ابراهيم فى رواية « البؤساء » لفكتور هوجو . ومحمد السباعى فى « الأبطال » لتوماس كارليل ، وفى رواياته الكثيرة المترجمة عن تولستوى ، وفى « رباعيات الخيام » . ومن الأحياء : سعادة أحمد لطفى السيد باشا فى كتاب « الأخلاق » لأرسطو . وسعادة عبد العزيز محمد باشا فى « التربية الاستقلالية » لألفونس إسكيروس .

٣ - أنها كانت فردية ، فلم تجتمع لها جهود الجماعات إلا قليلا ، وذلك « كجمعية التعريب » التى أنشئت سنة ١٨٩٣ م وترجمت كتابا فى الاقتصاد ، ثم انحلت بعد عام واحد ! - على أن مما يبشر بقرب اتجاه عناية الجماعات إلى الترجمة . تأسيس « لجنة الترجمة والتأليف والنشر » منذ سنة ١٩١٤ م ، ولها جهود موفقة فى التعريب . وكذلك نهوض أربعة من الجامعيين يقومون

الآن بترجمة « دائرة المعارف الإسلامية »، وصدر أول عدد منها فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ م.

الترجمة فى المدارس: كانت الحكومة قد أحست منذ زمن بعيد حاجتها إلى رجال يتقنون فن الترجمة، ولهذا قررت مادة « الترجمة » بين مواد الدراسة الابتدائية والثانوية، فظلت زمنا. ثم عنّ لها أن تستغنى عنهـا مستعيضة بتوجيه الطلاب إلى إتقان اللغات نفسها. فحذفت مادة « الترجمة ». ثم عادت فاتضح لها الضعف البين الذى يعرو الطلاب فى اللغات هذين اليومين. فأعادت « الترجمة » مرة أخرى فى بعض سنى الدراسة الثانوية بشرط أن تكون إلى العربية من اللغات الأخرى - كما أن هناك تفكيرا فى إعادة إنشاء مدرسة الألسن أو أخرى على طرازها...

ومما يذكر أن فى بعض دواوين الحكومة أقساما خاصة للترجمة تقوم أحيانا بنصيب محمود فى الناحية العلمية أو الأدبية.

أثر الترجمة فى الكتابة والشعر: يضيق بنا مجال القول إذا رحنا نعدد الآثار التى أحدثتها حركة الترجمة فى كتابنا وشعرائنا وكتابتهم وشعرهم. فنجملها فيما يأتى:

١ - سبق ارتقاء النثر على الشعر:

كانت الكتابة والشعر فى أول هذا العصر يتعثران فى أذيال الضعف والركاكة والغثاثة. ولكن حينما أخذت حركة الترجمة فى النشاط والازدياد، واطلع الأدباء والمنشئون على ضروب من الكلام وشتات من العلوم لا عهد لهم به، كان ذلك حافزاً لهم على مجاراة الأوربيين والتشبه بهم فيما يكتبون وما يصطنعون من فنون الإنشاء. وكان أثر ذلك بادياً فى النثر أوضح من بدوه فى الشعر، لأن: (١) طبيعة النثر مرنة يمكنها ألا تتقيد بقيد ما، إذا أراد الناثرون ذلك. بعكس الشعر الذى له من قيود الوزن والقافية ما قد يعوقه عن سرعة التأثر. (٢) اتجاه النهضة فى أول أمرها كان إلى الناحية

العلمية دون الأدبية . فاتخذت الكتابة أداة لنقل معارف الأوربيين وعلومهم إلى العربية . لهذا ارتقى النثر لحاجة العصر إليه . وقد رأينا فى باب « الكتابة الإنشائية » أن قد ظهرت فى النثر أنواع جديدة لا عهد للعربية بها . بينما الشعر لا يزال يسير وئيدا وئيدا . . .

وحقا ! إنه لما نبغ البارودى ، وردّ على الشعر ديباجته القوية وطرق أغراضا لم يعرفها جيله . قال الناس : لقد نهض الشعر . فى حين أن النثر كان لا يزال متعثرا ، لم تمرن عبارته ، ولم تتجدد تراكيبه ، ولم يسلم من لوثة العامية ومس البديع . — ولكن هذه الحالة لم تضطرد . فإن الأسباب التى نهضت بالكتابة تلاحقت وتتالت حتى سمت بها اليوم هذا السمو المحمود . وكان للترجمة نصيب فيه كبير . . .

٢ - اتساع آفاق القول ، والإقدام على التأليف :

وذلك أنه بالانكباب على الترجمة ، أو على الاطلاع على مايترجَم من كتب وقصص ومقالات وبحوث ، وجد الأدباء ألواناً شتى من مناحى القول وسعت أمامهم آفاقه ، وهيئت كثيراً من أغراضه . فجربوا أقلامهم فى ميادينها ، وجالوا ثم صالوا مقلدين أولا ، ثم حاولوا التأليف والابتكار والتجديد . وكان للنثر نصيب كبير من ذلك . فأقدم أهله بقلب شجاع وقدم ثابتة ، وعانوا التأليف فى العلوم الحديثة : كالتاريخ والتقويم والرياضة والتربية والطبيعة والكيمياء . كما وضعت دوائر معارف على النمط الأوربى . ومن ثم تأخر البعث الأدبى ، وإحياء اللغة لذاتها كما ظل تجديد علوم الدين منسيا . . . ولكن لم يلبث ذلك إلا زمنا يسيرا . ثم دب النشاط فى المعنيين بأمر اللغة وفنونها فألفت كتب فى : أدبها ونحوها وصرفها وفقهها النظرى ومفرداتها وبلاغتها . ولكن هذا كله لا يعد شيئاً مذكوراً فى جانب ما هو مرجو مرتقب ! — أما علوم الدين فللأسف لا يزال أهلها — إلا أفراداً منهم — وادعين أمام باب الاجتهاد المغلق ! ! فلعلنا نرى فى القريب العاجل من يحطم منهم هذا الباب ، ويلجه غير وجل ولا هياب . . . فيُجدد كتب الدين ويبعثها قشيبة مهيبة ،

أما الشعر فقد ناله نصيب يسير . فتعددت أغراضه ، وكثرت فنونه فمن سياسى إلى اجتماعى إلى نفسى إلى غير ذلك . وستظفر بذلك كله فى باب « الشعر » .

٣ - المصطلحات العلمية والأساليب الدخيلة (١) :

اصطدم الأدباء والمنشئون ، وخاصة أهل الكتابة العلمية حين الترجمة ومحاولة محاكاة ما يُترجم ، بصخرة صماء تحتاج إلى معاول حادة حتى تصيّرها فتاتا سهلا . . . وتلك ، هى المصطلحات العلمية ، وخاصة أسماء الآلات الحديثة وأجزائها ، ومعها كثير من الأساليب الفرنجية . عجزوا عن العثور على مرادف لها فى العربية ؛ وقد استعانوا فى تذليلها بمعاجم اللغة ، وكتب العلم العربية القديمة ، يستخرجون من بطونها المفردات الصالحة لأن تحل محل مرادفاتها فى الفرنجية . – ولكن نظراً إلى أن بين علوم الغرب الحديثة كثيراً مما لم يسبق للعرب الاشتغال به ، أو على الأقل تحرى الدقة والنظام وقت مزاولته . . . زادت المعضلة أمامهم تعقيداً .

وليس معنى ذلك أنهم وقفوا مكتوفى الأيدى ؛ لا ؛ بل عمل كل من جانبه على تذليل ما يمكن تذليله . فهؤلاء المترجمون من السريان والمغاربة والأرمن ، الذين استخدمهم محمد على باشا فى مدرسة الطب ، وهؤلاء المصريون الذين اضطلعوا بقلم الترجمة برئاسة رفاعة بك ، وهؤلاء الذين زاولوا الترجمة والتأليف منذ زمن إسماعيل باشا ، ومنهم : عبد الله فكرى ، وعلى مبارك ، نقول : كل هؤلاء أخلصوا للغة على قدر استطاعتهم . فأحيوا كثيراً من مفرداتها المهجورة ، ووضعوا عن طريق المجاز أو الاشتقاق أو التعريب مصطلحات جديدة حلت بعضها محل قبول بدل نظيراتها الفرنجية . وما زال كثير من علماء اللغة جادين فى هذه السبيل . ومن تلك الكلمات : « البرق ، السيارة ، المسرة ، المنطاد ، الواحى أو المذياع » .

---

(١) راجع مجلة المجمع اللغوى جزء أول ص ١١٩ ، ٣٣٢ .

على أن هذا كله مجهود فردى ، ولم يصلح علاجا ناجعا لهذا الداء الوبيل الذى أصيبت به اللغة من جراء الترجمة . فامتلأت الكتابة بل وبعض الشعر بعدد جم من الكلمات الأجنبية والأساليب الدخيلة ، حتى عما لا يُعجَز عن سرعة إيجاد مرادف عربى له ! - فوسوس الشيطان لبعض العاجزين عن صيانة اللغة فهمّ بالمناداة والعمل على استخدام العامية مكانها ! فيترك الباب مفتوحا تلجه كل لفظة دخيلة وأسلوب أجنبى ، ولكن وقف لهم حفظتها بالمرصاد فخضدوا شوكتهم وردوهم إلى كنف العربية وأنفهم راغم . . .

ثم ما زال أهل الفضل يتناولون هذه المسألة بالمقترحات النافعة ، والتى كان منها إنشاء المجمع اللغوى ، وعليه نعلق آمالا واسعة فى هذا الباب .

على أنه إذا تم لنا وضع مصطلحات حديثة عربية ؛ وأخضعنا لغتنا لروح العصر وحاجته ، وزودناها بأساليب جديدة ، ونفينا عنها دخيلها ، تكون لنا بذلك ثروة لغوية طائلة ربحناها بسبب حركة الترجمة . . .

ومما يذكر أن الأساليب الدخيلة موضع مشادة بين علماء اللغة فمنهم من يشك فى صلاحها عربية ، ومنهم من يزيفها ومنهم من يقبلها . ومع كلٍّ فإن مدرسى اللغة العربية فى معاهد التعليم لهم جهد مشكور فى تنبيه الناشئة إلى كل دخيل وزائف .

وإليك بعض هذه المصطلحات العلمية ، والأساليب الدخيلة :

من المصطلحات الكيمائية : الأكسچين ، الإيدروچين ، الأزوت ، الكلور الفلور ، الفسفور ، وقد وضع لها المرحوم أستاذى الإسكندرى كلمات عربية هى على التوالى : المصدىء ، المميه ، المسجح أو المخصب ، المحور ، الملصف ، المومض . « بصيغة اسم الفاعل » .

وبهذه المناسبة أذكر أن لهذا العالم الفاضل جهوداً موفقة فى سبيل الصد عن استعمال الكلمات الدخيلة ، وقد قام بوضع كلمات عربية كثيرة مرادفة لها .

من الأساليب الدخيلة :

ا - محمد وإن كان غنيا إلا أنه متواضع «مبتدأ بدون خبر، واستثناء بلا مستثنى منه».

ب - الموضوع يعطينا فكرة أو نأخذ عنه فكرة : «والأفضل يفكرنا مثلا».

حـ - هذا الفعل يأخذ مفعولين : «استعمال يأخذ بدل ينصب».

د - محمد كمدرس يفيد الطلبة : «إدخال الكاف على الحـال».

هـ - رغب محمد بعض الشيء : «استخدام شيء مكان مصدر الفعل».

٤ - العزوف عن محاكاة الأقدمين :

كانت الكتب الأدبية القديمة من أمثال : مقدمة ابن خلدون ، وكليلة ودمنة والبيان والتبيين ، وكذلك شعر القدامى : كزهير ، والنابغة ، وحسان ، وأبي تمام ، النموذج الأعلى لكتاب وشعراء العصر الحاضر . فكانت قصارى جهدهم أن يحاكوا هؤلاء الأدباء النوابغ . - ولكن ما عتموا بعد أن اطلعوا على الأدب الأوربى ، وما يكتبه كتابه وينظمه شعراؤه . وبعد أن عانى بعضهم الترجمة عن هذا الأدب : نقول : ما عتموا أن عدلوا عن الإغراق فى محاكاة الأقدمين ، وحاول كل منهم أن يكون ذا «شخصية» مستقلة تبدو فيما يسطره . لأن أدباء الفرنجة يمتازون بهذه الشخصية وبهذا الاستقلال ...

وكان من مظاهر هذا العدول : (١) أن الكلام لم يعد حكماً محشودة ، أو أمثالا ملفقة ، أو فقاراً متنافرة ، لا يجمعها جامع . بل أصبح : إما مقالات مسبوكة العبارات محبوكة الأطراف ، أو قصيدةً ، الصلةُ وثيقة بين أبياتها . (٢) كذلك قلّ الاستشهاد بالكلام المأثور إلا لضرورة قصوى .

وعلينا أن نعترف بظهور هذه الروح الجديدة وقوتها فى كتابنا دون شعرائنا ! ففى الحق لا تزال الأساليب الشعرية فى جملتها أقرب إلى المحاكاة والتقليد منها إلى الابتكار والتجديد .

٥ - طلاقة الأسلوب :

أصبح الأسلوب النثرى والشعرى سهلا متطلقاً ، لا كلفة فيه ولا قيود من طباق أو سجع أو جناس ، أو تعمد استعارة أو تشبيه ، أو غيرهما ، إلا

ما سنح عرضاً أو اقتضته الضرورة .. وللكتب الأدبيـــة القديمة أثر محمود فى هذه الطلاقة . ولكن أيضا للترجمة مشاركة جليــلة فيها : بما اطلع عليـه الأدباء والعلماء من ضروب الأساليب الأوربية ومعاناة ترجمتها ، تلك الترجمة التى تأبى طبيعتها أن تتقيد ، وتأبى أن تضيف إلى صعوبة معاناتها صعوبة خفاء معانيها تحت ستار البديع . وخاصة فى الكتابة العلمية . - وقد نضح ذلك على الكتابة الأدبية والشعر . وكذلك عفّ المنشئون عن المقــدمات المطولة ، وعافوا كثيراً من ألقاب التعظيم أو ألفاظ الدعاء اقتصـــادا فى الزمن ، وحذرا من اللغو ، وادخارا للجهـــد ليصرف فيما فيه غناء .

وهذا لا يمنع أن نقول : إن بعض المترجمين قد ينساقون تحت ضغط تباين الأسلوب فى اللغتين ، واختلاف النزعات البلاغية وتباعد طرق الدلالة على المعانى . نقول : قد ينساقون إلى تدوين أسلوب متعثر تبدو فيه الكلفـــة وسيما التعسف . وخاصة عند من يعنون بالترجمة الحرفية . وقد لا تجد هـــذا التعثر عند من يتصرف فى الترجمة ولا يتقيد بالحرفية .. - على أن هـــذه حالة آخذة فى الزوال ، وخاصة إذا تعهدنا الأمر بالمران وبالجد .

٦ - العناية بالمعنى أولا :

وما للترجمة أثر باد فيه : توجيه الأدباء إلى الاهتمام بالمعنى أولا . فيصرف إليه جل العناية ، ثم يُؤدى بعبارات وألفاظ تُفهم فى يسر وسهولة ، بشرط ألا تتدلى إلى ما يلوكه العـــوام . ويُكتب فى جمل بعيدة عن الحشو ، بريئة من التطويل إلا إذا دعت ضرورة . - ولا شك فى أن الترجمة حملت إلى أدبائنا كثيرا جدا من المعانى الجديدة الشائقة التى خلبت ألبابهم وشغلت عقولهم وأذهلتها عن أدب الألفاظ .. فكان لذلك أثر فى اهتمامهم بالمعانى أولا . فأصبحت لها المنزلة الأولى .

٧ - تحديد الموضوع وترتيب الفكرة :

وليست العناية مقصورة على تحديد كل معنى فى الجملة المنثورة ، أو فى البيت الشعرى . ولـــكنها امتدت إلى المعانى كلها فى المقالة الواحدة ، أو القصيـــدة

برمتها، على اعتبار أن هذه المعانى وحدة لا تتجزأ ، أو جزئيات لكل واحـد ، هو « الموضوع » ، فلا بد فى إيرادها من الترتيب والنظام ، والتسلسل المنطقى ، لشرح موضوع معين محدد شرحاً دقيقاً ، حتى إذا ما استوفاه البحث ، انتقل الباحث إلى غيره . — وقد أدى ذلك إلى قوة الاستنباط واصطناع الأقيسة العقلية وسوق الأدلة ، وما شابه ذلك · وقد تأثرت الكتابة بهـذه الروح أكثر من الشعر . ومع ذلك هجر بعض الشعراء المقدمات التى يصدرون بها القصائد من نحو : غزل أو خمريات أو وصف آخر مفتعل مما لا يتصل بموضوع القصيدة ، كما هجر الكتاب المقدمات الإنشائية وكتبوا فى « الموضوع » مباشرة .

٨ ـ اتساع ميدان الخيال :

أصبح لأدبائنا مدد لا ينضب ، ومعـين لا يغيض مما يقدمه لهم الأدب الفرنجي . فقد نقل إليهم كثيرا مما توحيه البيئة الأوربيـة إلى نفوس أدبائها ، من صور رائعة وأخيلة بديعـة لا عهد للعربية بها ، وما يبعثه فيهم من عواطف ووجدانات وانفعالات عبروا بها عما ينم عن إحساسهم التـام بما حولهم من مظاهر الكون ، وينبىء عن حيويتهم الكاملة التى بها يتأثرون بمجالى الطبيعة أكثر مما يتأثر سائر الناس ـ ولذلك أثر كبير فى نفوس كتابنا وشعرائنا فحاولوا أن يطبعوا أنفسهم على مثال هؤلاء ، وبذلك اتسع أمامهم ميدان الخيال ودقة التصور ، وقد بدا ذلك من الكتاب فى اصطناع النقد الأدبى التحليلى ، وفى المقالات الوصفية وخاصة الافتراضية ، وفى القصة الروائية والتمثيلية ، وغير ذلك مما راعوا فيه وصف الأحاسيس النفسيـة وانفعالات القلب وهواجس الخاطر ، وتحذلق بعض الكتاب فأطلق على بعض كتابته : «الشعر المنثور» ، لغلبة التخيل والوجدانية عليه وحسب ذلك تسمية جديدة . . . وما هو إلا ضرب من الكتابة ، أما التسمية فقـد سبق بها ابن خلدون كما مر . . .

وبدا ذلك من الشعراء أيضا فى اصطناع الشعر السياسى والاجتماعى والقصصى والتمثيلى ، وفى وصف الآثار والمحسوسات والحوادث وصفا ينم عن مبلغ تأثر النفس بها ، وفى محاولة التأثر بمظاهر الطبيعة ومرائى البيئـة . . .

وفى محاولة صوغ هذا التأثر فى صورة خيالية رائعة .

وليس معنى ماتقدم أن الأدب العربى القديم خلا من هذا الخيال الواسع أو تجافى عن بعض هذه الأغراض الشعرية والنثرية . لا . فهو مملوء بالكثير الرائع منها ، والذى ربما لم يحم حوله منطق أديب أوربى ولا شاعر أجنبى .. ! وخاصة فى الشعر الغنائى . ـ ولكن الاطلاع على الأدب الأوربى والترجمة عنه كانا كالناقوس المدوّى لنا أسمع من به صمم ، وأيقظ من كان عن الدنيا وعن صورها وعن الأدب غافلا .

ومع ذلك كله غلبت الروح الفرنجية بعض أدبائنا فانساق مأخوذا بروعة خيالها وجمال تصويرها ودقة حسها إلى اصطناعها فى الأدب العربى متناسيا الفروق بين الشرق والغرب فى البيئةوالتذوقوالبيان ، وحببإليهالتشبيه الأوربى فشبه الأبيض الناصع بالثلج لا بالبرد ، وشبهالحبيب بالوحش ! وغير ذلك ، وغلا بعضهم فى عناوين قصائده أو مقالاته وعباراته مثل : الأمل اليائس ، والينبوع المسحور ! ومثل : استحم بالنور وشرب الوهم ، واحتسى خمر الأثير . . . فأحاطت الغرابة بأدبه وأصبح غير مفهوم تماما عند قارئيه . وبعضهم يبتدىء فى كتابته بجمل غامضة ويكثر من الحذف والايجاز بغير داع بلاغى سوى الرغبة فى إحاطة القارىء بجو من الغموض يبعثه على التفكير ! والسوريون قد تأثروا بهذه النزعات أكثر من المصريين .

٩ ـ فهم الشعر فهما جديدا :

كان من آثار الترجمة واطلاع الأدباء على الشعر الفرنجى ثم الترجمة عنه ، وعكوفهم علىفهم مناحى النقد الأدبى عند الفرنجة واصطناع هذا النقد فى الأدب العربى ، أقول كان من آثار ذلك كله أننا بدأنا نفهم الشعر فهما جديدا ، فطالما ذهب فيه الناقدون والناس من قبل مذاهب متعذدة ، وطالمانظر الشعراء أنفسهم إلى شعرهم نظرات معينة تلتقى وتلك المذاهب .

فبعضهم كان يرى أن الشعر الجيد هو المملوء « بالمعانى » الذهنية والآراء

العقلية الدقيقة والمبادىء النظرية والاجتماعية الشائقة، فهو عندهم « ثمرة العقل »

وبعضهم كان يرى أن الشعر الجيد هو المملوء « بالخيال » الرائع والتصور المبتكر، وإن كان بعيداً عن الحقائق الواقعة، فقالوا: الشعر « أعذبه أكذبه » فهو عندهم « ثمرة الخيال ».

وبعضهم كان يرى أن الشعر أمر « كمالى » من كماليات الحيـاة، وإنما وُجد للتسلية وقطع وقت الفراغ، وما اهتم العرب بشأنه من قديم إلا لأنهم وجدوا فيه وسيلة للهو، وكان يشاركه فى ذلك الموسيقى والغنـاء والرقص. وقـد قلت أهميته فى عصرنا الحاضر، لأن أسباب اللهو وضروب التسلية قـــد تـكاثرت فيه، وشغلت الناس عن هذا الضرب القديم من اللهو والتسلية وهو الشعر . . . فهو عندهم « وسيلة للهو وأمر كمالى »

وبعضهم كان يرى أن الشعر الجيد هو: المنمق المزوق المتخير لفظه الجزلة عبارته. فهو عندهم « ثمرة اللسان ».

وفى الحق أن كل هذه النظرات خاطئة. فلا الشعر ثمرة للعقل. ولا هو ضرب من ضروب الخيال. ولا هو صناعة لفظية يسبكها اللسان. ولا هو أمر كمالى أو وسيله للهو . . .

وإنما الشعر صورة ما فى النفس الشاعرة الحساسة يصوغها اللسان ألفاظا. وأعذب الشعر، أصدقه تعبيرا عما يدور بالنفس من انفعال صادق، وما يجيش بها من خواطر بالغة. وأدقه وصفا لشعورها الحق، بمـا ترى العين من أناس وحيوان ونبات ونجوم ومظاهر طبيعية، وغـــير ذلك من الكائنات. الشعر الصادق هو الذى ينم عن مبلغ إحساس الشاعر وتأثره بمـــا انبث فى الدنيـا من جمال، وما شاع فى أرجائها من محاسن. الشعر الصادق هو الذى يشارك به الشاعر كل الكائنات فى وجودها وشعورها وأحلامها. وليس العقل والخيال واللسان إلا أدوات تحركها النفس الشاعرة وتستعين بها على إيصال ما انطبع فيها من أحاسيس إلى الناس.

ليس الشعر ضربا من ضروب التسلية والتلهى ، وإنمــا هو أمرضرورى للحياة ، ومقياس دقيق لحيوية الأمة ، وميزان حساس تعرف منه روحانيتها . ـ وهو وسيلة إلى التهذيب النفسى ، والكمال الروحى ، وتنمية شعور الناس بالدنيا والحياة ، وتوجيه نفوسهم إلى ما فى الكون من جمال ، وهو أداة بالغة ترفه عنهم وتنتقل بهم من عالم الشر إلى الخــير ، ومن عيش البؤس إلى مهــد النعيم . ومن مثوى الجحيم إلى مهبط العزة والسعادة . يبث فيهم حب الحياة وفهمهــا فهما دقيقا ، وروح النظام ، وعشق الحرية ، ورقى الذوق . وغــير ذلك . ـ فالأمة غير الشاعرة ، أو الأمة التى لا شعراء لها ، أو الأمــة التى لا تستجيب لشعرائها ، هى أمة ميتة وإن كانت تتحرك ! أمة جامدة لا روح لها ولا عاطفة ولا أمل ، ولا نظر إلى المستقبل ولا اكتراث بالحاضر ! أمــة تعيش أشبه بالحيوان ، وإن عدت فى بنى الانسان !

بهذه الروح الجديدة بدأنا نفهم الشعر . وللترجمة أثرها الكبير فى توجيه الأدباء والشعراء ونقادهم وقرائهم إلى هذا النحو من الفهم الجديد . . .

رأينا أن نختتم هذا الفصل بإيراد بعض النماذج من النــثر والشعر المترجمين . وهاهى ذى :

نماذج من النثر :

١ ـ كتب أحمد فتحى زغلول باشا فى كتابه « روح الاجتماع » المترجم عن « جوستاف لوبون » فصلا بعنوان « زمن الجوع » فنه :

« يخال النــاظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية ، وقيام الدولة العــربية ، ناشئة عن تطور سياسى عظيم كإغارة الأمم بعضها على بعض ، أو ســقوط الأسر الحاكمة ، وهكذا ، لكن بعد إنعام النظر فى هذه الحوداث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً ، هو التغير الكلى فى أفكار تلك الأمم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها ، وإنما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى إلى تغيير حال

الأمم المدنية ، يحصل فى الأفكار والتصورات والمعتقدات . » .

٢ - كتب سعادة الدكتور منصور فهمى بك فى رواية « هيرمان ودوروتيا» المترجمة عن « جوتى » الشاعر الألمانى . فى « النشـيد الأول » من حديث رب البيت لزوجته يذكر بعض مهاجرى الألمان من شاطىء الرين الغربى إلى شاطئه الشرقى فراراً من أعدائهم ، قال :

« كلا ! ما عهدت السوق والشوارع كذلك خالية ! كأن المدينة قد هُجرت أو قد قبرت ، وفى ظني ، لا يتجاوز من بقى فيها من سكانها الخمسين عــدًا . وما الذى لا يفعله حب الاستطلاع ؟ هكذا يسعى كل ويخف ، ليرى ما فى ممر هؤلاء المهاجرين المنكوبين من مشهد حزين ! ومع أن الوصول إلى الطريق التى سيمرون بها يقتضى مسير نحو الساعة ، فالناس يهرعون فوق رماد الهجــير المحرق ، أما أنا ! فلن أبرح مكانى لأرى نكد هؤلاء المساكين الذين ينزحون إلينـا على مضض ، من الشاطىء الآخر الجميل لنهر «الرين» ، وقد أنقذوا معهم ما استطاعوا إنقاذه ، ويهيمون خلال تلك البقاع السعيدة ، وفى حنايا وادينا الخصيب . لك الحمد يازوجتى ! وإنها لأمارة واضحة من شمائل طيبتك أن ترسلي ولدنا ، لكى يوزع على هؤلاء المنكوبين خرقنا القديمة ، والأطعمة والشراب . وكان العطاء حقاً على الموسرين ! » .

٣ - ترجم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه «ساعات بين الكتب» قصيدة لتوماس هاردى الشاعر الإنجليزى ، يصف منـاظر الطبيعة فى الصباح الباكر ، فمنها :

« إذا طلع الفجر ، ونظرتُ إلى الطبيعة المصبحة جدولا وحقلا وقطيعـا وشجراً موحشا ، رأيتُ كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إلىّ ! وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه ، فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السآمة والحجر والإعياء ؛ وكأنما تهمس بسؤال كان مسموعا ، ثم تخافت حتى لا تنبس به الشفاه : عجبا ! عجبا لا انقضاء له أبد الزمان . ما بالنا نحن قائمين حيث تقوم فى هذا المكان ؟ » .

نماذج من الشعر :

١ - من شعر « إلياذة هوميروس » التي ترجمها سليمان البستاني شعراً عربياً، قال في مفتتحها يذكر الخلاف الذي نشب بين آخيل وأتريذ « أغاممنون » بطلي الاغريق وقت حصارهم « طروادة » :

ربة الشعر عن « أخيل بن فيلا » أنشدينا واروى احتداما وبيلا
ذاك كيد عمّ « الأخاء » بلاه فكرام النفوس ألفت أفولا
« لأذيس » أنفذن منحدرات وفرى الطيرُ والكلاب القيولا
تم ما شاء « زفس » من يوم شبت فتنة بالشقاق تنذر أولى
بين « أتريذ » سيد القوم ثارت بصلاها والمجتبى آخيلا

٢ — من « رباعيات الخيام » الشاعر الفارسي، التي ترجمها محمد السباعي شعراً عربياً . قال في مفتتح النشيد الأول :

غردَ الطير فنبهْ من نعس وأدر كأسك فالعيش خلس
سُل سيف الفجر من غمد الغلس وانبرى في الشرق رام أرسلا
أسهم الأنوار في هام القلاع
صاحَ بي في النوم طيف: هاتها نملأ الأكواب من ياقوتها
قبلما تنضب في كاساتها خمرة الروح وترتد إلى
منبع بالغيب مجهول البقاع

الشعر

تدرجه من الضعف إلى القوة وبيان مظاهر كل

ودع العصر العثماني والشعر لم يعد فيه إلا رمق يسير . وكأسه خاوية إلا من ثمالة الثمالة .. وحسبك أن تعلم أن شاعر العصر وأديبه في أيام الحملة الفرنسية هو السيد إسماعيل الخشاب الذي كان يتكسب بالشهادة أمام المحاكم... وأن أغراض الشعر كانت تدور حول الإخوانيات من مدح صديق أو رثاء فقيد، أو حول غزل مصطنع أو شرب خمر لم يقع ، وعناية بالتاريخ الشعري ..

وكل ذلك فى أسلوب متعثر ومعانى أخجلتها كثرة التكرار . .

ومنذ ظهر فى أفق مصر نجم محمد على باشا . وأخذ فى إنهاض البلاد ونشر عوامل الثقافة والرقى . ومنذ حفلت الديار بعهد إسماعيل باشا ثم بأولاده من بعده مكملين ما بدأه جدهم العظيم من إيقاظ وإنهاض ، تعاونهم فى ذلك أمة قرعتها الخطوب فأخذت تفيق من غفوتها وتتنبه من غفلتها ، أقول : منذ ذلك الوقت تهيأت للشعر عوامل أنهضته وها هى ذى :

أسباب نهضة الشعر :

١ - نشر التعليم : لا شك أن للتعليم أفضل الأثر فى تنبيه النفوس وإيقاظ شاعريتها . وتوسيع أغراض الشعر ، وتزويده بطائفة حسنة من المعانى .

٢ - افتتاح دار العلوم : وإنما خصصنا هذه المدرسة بالذكر لأنها أولى المدارس التى صرفت عنايتها إلى تدريس آداب اللغة وشعر الأقدمين لطلابها بطريقة منظمة .

٣ - العناية بالترجمة . وقد تكلمنا عن أثر الترجمة فى الكتابة والشعر من قبل.

٤ - طبع دواوين الشعراء الأقدمين . وربما كان هذا أكبر العوامل على نهضة الشعر . فما اطلع شعراؤنا على شعر أسلافهم حتى هبوا يقتدون بها وينحا كونها ويتخذون منها نموذجاً أعلى يسعون إلى بلوغه . وانطبع ذوق كثيرين منهم بطابعها فحاكاها غرضاً وأسلوبا ومعنى . . حتى أصبح لبعضهم دواوين لا تقل جودة عن دواوين القدماء !! ولا تكاد تتميز إلا بفروق يسيرة . ولا غرابة فهى صورتها وهى رجع صداها !! . .

٥ - طبع الكتب العربية القديمة فى العلم والأدب : فاتسعت بالاطلاع عليها أغراض الشعر وقويت عباراته ، وشرفت معانيه .

٦ - ظهور أفذاذ من الشعراء : وفى طليعتهم البارودى . ممن كان لهم أثر عظيم فى ترقية الشعر . وإنما نقول : « أفذاذ » لأن وجودهم لم يكن وليد البيئة التى عاشوا فيها .

٧ - الثورات السياسية والانقلابات الاجتماعية : لا شك أنها كانت ذات أثر بليغ فى إحياء الشاعرية وتوسيع آفاقها .

٨ - تشجيع بعض أمراء مصر للشعراء : فقد كان الشيخ حسن العطار مهيمنا على الوقائع المصرية فى عهد محمد على باشا . وكذلك كان كل من الشيخين السيد على أبى النصر وعلى الليثى محبوبا مرعيا لدى إسماعيل باشا وتوفيق باشا ، حتى لقد لقب إسماعيل باشا الشيخ الليثى « بشاعر الخديو » ولقد نشأ شوقى بك فى بيت توفيق باشا وكان « شاعر الأمير » فى زمن عباس باشا . وشوقى هو القائل عن نفسه . شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

تعقيب : وبعد فلا بد لنا من كلمة تعقيب على ما سبق . فنقول : إنه مع هذه العوامل التى قيضت لإنهاض الشعر لا يزال متعثرا ! .. أو على الأقل لا يزال أبطأ سيرا إلى الارتقاء بالنسبة للنثر الذى شأه وسبقه ، وأصبح أفضل منه قدرة على أداء عمله . وأصبح فى ميدان الرقى كالشاب الفتى القوى المتطلع للوثوب.. بينما الشعر لا يزال يدب على عصاه دبيب المتثاقل الذى أخذ الكرى بمعاقد أجفانه .. ثم صحا ولما تزل فى عينيه بقية من النعاس ! وما أشبهه بالشيخ الهِم الفانى الذى أسعفه الطبيب بحقن الشباب ...

ولرب قائل يقول : فما نصيب البارودى وصبرى وحفنى وعبد المطلب وشوقى وحافظ من هذا الوصف ؟ وأقول إن هؤلاء أشبه الأشياء بالزفرات القوية والآهات المروّعة فاضت بها أضلاع إنسانية مصدورة مكلومة ، وبشرية كاظمة مكبوتة ، أرادت أن تفرج عن نفسها فى يوم من الأيام ... هؤلاء الشعراء أغلب أمرهم أنهم صدى للأيام الغابرة ، ورجع للعصور المنصرمة ، عاشوا فيها زمنا بعقولهم وأخيلتهم وتصوراتهم وحاموا كثيراً حول معانى الأقدمين يستمدون منها وحى شاعريتهم ... ولذلك قلما تعثر بين أبياتهم على جديد ينافس جديد الكتابة ... وها هو ذا حافظ إبراهيم يشعر بذلك ويعترف به . ولقد قال من قصيدته الرائعة التى ألقاها فى حفلة تكريم شوقى بك ما يأتى :

ملأنا طباق الأرض وجدا ولوعة بهند ودعد والرباب وبوزع

وملت بنات الشعر منا مواقفا بسقط اللوى والرقتين ولعلع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها يرون متون العيس ألين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأينقا متى يعيها الإيجاف فى البيد تظلع
فأصبح لايرضى البخار مطية ولا السلك فى تياره المتدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى لشيء جديد حاضر النفع ممتع

وأذكر أنى قرأت مرة جواباً لسؤال وجهه أحد المعنيين بالشعر إلى حافظ إبراهيم — أو لعله مطران — قال له : أى الثلاثة أشعر : شوقى أو حافظ أو مطران . فقال له حافظ : نحن الثلاثة نكوّن شاعراً واحداً . . .

أما هذا الشاعر ، أما الشاعر الكامل ، أما الشاعر الذى يقول ليرضى نفسه أولا ، الشاعر الحساس الدقيق الصلة بالكون ، الذى يعشق الدنيا ويتغنى بمحاسنها ، ويفيض قلبه على لسانه بما يمتلىء به من عاطفة عميقة ، الذى يحل قوله فى كل نفس محل القبول ، فيُفهم فى غير عنف ولا كد ولا نصب ، الذى يغمر الجو بضروب من سحر فنه وألوان من علوى بيانه ، يطلق القولة فينتشر أريجها بين الناس ، فينشق كل منهم نشقة منه ترقى بنفسه وتسمو بوجدانه ، وتبعثه على التأمل وتعينه على التفكير ، الشاعر الذى يكون طيلة حياته مدرسة روحية سامية حية ، الذى يكون فى يد الدهر كالصور فى يد إسرافيل ينفخ فيه فيبعث أموات الأحياء ،

فيترك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

الشاعر الذى عناه المتنبى بقوله عن نفسه :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصم

الشاعر الذى عنيته بقولى :

فإن الشاعر الحساس طير بمحراب الجمال له ركوع
إذا هزجت أنامله بلحن فكل الكائنات له سميع

أقول : إن هذا الذى وصفته ، لم تجُد به بعدُ تربة مصر ، ولما يسمح به الزمان فى ربوع وادى النيل . . .

ولا نتجنى على شعرائنا . ولا نحرمهم نصيبهم من تقدير هم به جديرون ! فإن لهم مواقف وأبياتاً تنم عن شاعريتهم الصادقة الفنية التى ترتاح لها النفوس وتطرب ، وتقف حيالها طويلا وتتأمل . . ولكن لاطلاعنا على شعر الأقدمين نصيب فى إعجابنا هذا بتلك المواقف والأبيات ، لأنها صفحة مما قرأناه وقبس مما اطلعنا عليه . فنحن أشبه بمن يلتقط له المصور صورةً شمسية يطبع منها عددا ، فإذا تناول هذا العدد منه لا تقنع نفسه بالنظر إلى واحدة ، بل لا بد من أن يرى الصور جميعها ، كأنما تجد نفسه فى كل صورة جديدا . . . !

على أن هذه المواقف والأبيات تكاد تكون معدودة فى دواوينهم فهى لمحات كلمحات البارق الغابر أو الشهاب العابر ، والأمثلة لذلك كثيرة ، وسيرد بعضها ، فترقّبْ . ولسائل أن يسأل : ماسبب تأخر الشعر إذن ؟ ونقول :

أما سبب تأخر الشعر عن النثر ، وبطء رقيه : فقد تناوله كثير من نقاد الأدب بالكلام ، وأسهبوا فى تفصيله ، وملخص ماذهبوا إليه مايلى (١) :

١ ـ ضعف ثقافة الشعراء : يرمى بعض النقاد شعراءنا بضعف ثقافتهم وقلة محصولهم من التعليم ، وأن ذلك له أثره السيء فى الوقوف بالشعر حيث كان .

٢ ـ الكسل الذهنى : أى أن شعراءنا حتى المثقف منهم لا يكلف نفسه مئونة التزود من العلم والانكباب على التحصيل والعكوف المستمر على الاطلاع ، فتقف أذهانهم حيث كانت أيضا بل ربما رجعت بهم القهقرى وسقمت خيالاتها وتقاصرت تصوراتها .

٣ ـ الجمود على القديم : ومعنى ذلك أن شعراءنا حينما اطلعوا على الشعر القديم ، راعهم بتعدد أغراضه وسمو معانيه وقوة أساليبه وجزالة تراكيبه ، ولم

(١) راجع كتاب « ثورة الأدب » للدكتور هيكل باشا ، « وساعات بين الكتب » للأستاذ العقاد .

تكن لديهم من ذلك كله بضاعة ، فعكفوا على محاكاة القديم وقلدوه ، وكانت قصارى مجيدهم أن يعارض قصيدة ما من القصائد القديمة ، أو يصب شعره فى قالب شعرى عرف به شاعر قديم ، فإذا وصل من ذلك إلى ما يبغى كان هذا هو غايته وحاداه ، ورضيت به نفسه وقنع خاطره . لذلك يشبهون مثلا البارودى بأبى تمام ، وعبد المطلب بحسان ، وشوقى بالبحترى تارة وبالمتنبى أخرى ، أو بابن هانىء الأندلسى . . . وهكذا ، ومن هذه المعارضات : قصيدة « كشف الغمة » للبارودى ، قصيدة « نهج البردة » لشوقى يعارضان بهما « البردة » للبوصيرى - ومعارضة إسماعيل صبرى وولى الدين يكن وشوقى لقصيدة « ياليل الصب متى غده » للحصرى ، وقصيدة شوقى السينية فى وصف الأندلس معارضة لقصيدة البحترى السينية فى وصف إيوان كسرى ، وقصيدة شوقى « يانائح الطلح أشباه عوادينا » معارضة لقصيدة ابن زيدون « أضحى التنائى بديلا من تدانينا » . وهكذا .

ووقوف شعرائنا عند هذا الأمل عاقهم عن التجديد · أو على الأقل عاقهم عن التجديد الكثير الممتع.

٤ - وقفُ الشعر على المناسبات أو الوظيفة : أى أن الشعراء جعلوا شعرهم بعض ماتزدان به الحفلات ! فلا تقام الحفلات له خاصة .. ولا يقولون الشعر إلا إذا طلب منهم بدافع صداقة أو وظيفة . فيقهرون على نظمه ، فليس إذن من وحى نفوسهم ولا فيض حسهم . فإذا أقيمت حفلة تكريم طلب القائمون بها من الشاعر قصيدة مدح ، وإذا أقيمت حفلة تأبين طلب القائمون بها أيضا من الشاعر قصيدة رثاء .. ولو لا هذا الطلب أو ذاك ، ما نظم شعرا ولا صنع قصيدا . . . ولعل شوقيا قد أحس بهذا المعنى . فأحب أن يفسره تفسيرا لمصلحته فكان اعترافا صريحا إذ قال :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكان العزاء فى أحزانه

هذا مجمل ما يأخذه نقادنا على الشعراء . وملخص مايرونه سببا لبطء ارتقاء

الشعر، وأنه لم تُجَدِّد أساليبه حتى تعبر عن المعانى والأفكار الحديثة فى سهولة وطلاقة، وأنه لم تجدد أغراضه فتتناول الحياة المصرية من جميع نواحيها. وأنه لم تبد فيه هذه الروحية الدقيقة والحسية الفنية التى تشترط فى الشعر الناضج .

ولنا على نقدهم هذا نقد... وعلى قولهم ذاك رد.. فنقول: إن ناقدا عادلا ومؤرخا بصيرا لا يورط نفسه فى كثير مما ورطوا أنفسهم فيه من الأحكام . فمنذا الذى ينكر على البارودى ثقافته العالية التى بلغ بها دست الوزارة... وها هو ذا إسماعيل صبرى القاضى والمتفنن والمستشار ووكيل الحقـــانية . وإليك حفنياً ناصفاً ومحمداً عبد المطلب اللذين أخلقا برد الشباب وأذبلا زهرة العمر فى التأليف والتعليم. وذاك حافظ معرب «البؤساء»، وكتاب فى الاقتصاد. وذاك شوقى الحقوقى والجوال فى ربوع أوربا وغيرها وخاصة فرنسا وأسبانية وسوريا.. ومؤلف الروايات نثرية وشعرية تمثيلية وغير تمثيلية. وشعره يدل تماما على خبرته بالتاريخ الأوربى والإسلامى والمصرى.. فهل نرمى كلا من هؤلاء بضعف الثقافة أو الكسل الذهنى. أو هل جمدوا على معارضة أسلافهم فى عيون قصائدهم، فلم يهتفوا بشعر آخر ؟... وقيدتهم الوظائف فحبست شعرهم فى قلوبهم تهمس به ألسنتهم دون أن تفوه به أو تبعثه سطوراً ؟... كلا. فليس كثير من ذلك سبباً فى بطء تقدم الشـــعر. وهاهو ذا البارودى وقصائده فى الحنين إلى الديار وفى الحماسة والحرب مشهورة. وصبرى ونفسياته. وحافظ وسياسياته واجتماعياته. وشوقى ووصفه الآثار والمخترعات الحديثة وكثيراً من المحسوسات... ألا نعد كل ذلك جديداً ؟؟؟ نعم إن فيه الجديد الأخاذ. — ولكن !.. نعم ولكن لم يصل بعد إلى الحد الذى نترقبه ونرجوه من الزمان. فالشعر إذن لا يزال يسير بقدم بطيئة إلى التجديد الصحيح. فما سبب هـــذا البطء إذن ؟.

قد يكون للأسباب السالفة بعض الصحة. ولكن هناك أسباباً أخرى جديرة بالمراعاة. وهاهى ذى :

أسباب تأخر الشعر عن النثر :

١ - كثرة الأسباب التى أنهضت الكتابة والخطابة وقلة الأسباب التى أنهضت الشعر :- رأينا حين الكلام عن الكتابة وعن الخطابة أسباباً متعددة نهضت بكل منهما . وأوصلتها إلى منزلة محمودة . ومع ذلك فهما تشاركان الشعر فى أسباب نهوضه . بينما هو لا يشاركهما ... أو يشاركهما مشاركة ضئيلة . فالنهضة إنما بدأت علمية . فهى أحوج إلى الكتابة دون الشعر . والعناية بالترجمة انصرفت أولا إلى نقل الكتب الأوربية إلى العربية ، فهى أحوج إلى الكتابة دون الشعر . والتقلبات الاجتماعية والثورات السياسية كالثورة العرابية أو ثورة مصطفى كامل أو الثورة المصرية سنة ١٩١٩ م بزعامة سعد زغلول ، أو غير ذلك مما أشرنا إليه قبلا . كل أولئك أحوج إلى الخطابة منها إلى الشعر . وهكذا .

فظروف النهوض العلمى والنضوج السياسى أحيت موات الكتابة والخطابة فصارتا مظهراً حياً للعلم والأدب . أما الشعر فنصيبه من ذلك قليل .

٢ - جمود البيئة المصرية :

وأعنى بذلك أنها بيئة عقيم عجزت منذ أمد طويل عن أن تلد الشاعر المصرى المرجو ... فلقد اصطلحت على هذه الأمة الأرزاء من كل جانب ، فمن ظلم محيق إلى جهل ضارب بجرانه ، إلى فقر مخيم وبؤس مقيم ... وهذه أمور طال بيلادنا أمدها . وهى قمينة بأن تقتل الشعور فى النفس ، وتعتدى على العزة القومية ، وتحل التفكك والانحلال محل القوة والوحدة ... وأمة هذه حالتها يعسر على الحياة الروحية الكريمة السامية أن تجد لها بينها مراحاً أو مرتعاً ... وحسبك أن تعلم أن كثيراً من مثقفى المصريين حينما دب فيهم الحماس الوطنى ضد الاحتلال الإنجليزى ، كان مدى أملهم أن تعود مصر تابعة للعثمانيين ...

ولما كان الشاعر العبقرى المطبوع وليد بيئته . عزَّ وجوده فى مثل تلك البيئة العقيم ... فليس الذنب ذنب شعرائنا وإنما هو ذنب البيئة .. ومن الغلو أن نرمى أحداً منهم بالتقصير عن أن يكون شاعراً مطبوعاً . لأن ذلك ليس فى

مقدوره . . . وإذا وجدنا فى بعض شعره ضالتنا المنشودة قلنا : إنه شاعر غريب عن الديار المصرية انحدر من سلالة تركية أو مغربية أو غيرها . ! لأن الإنسان يتمصر بطول الإقامة فى المصر . فما بالك إذا سبقته بذلك أجداده ؟ . . . كذلك من الغلو أن نغمطٍ هؤلاء الشعراء حقهم لأنهم يشعرون « بالعربية » وهي ليست لسان المصريين . فهل إذا قُيّض مثلا « لشيكسبير » شاعر الإنجليز أن يحذق العربية وينظم بعض شعره بها ، يخرجه هذا من شاعريته وإنجليزيته . . ؟ - كذلك من الغلو أن تتلمس الحياة الروحية والشاعرية المصرية فى تلك الأغانى الساذجة العامية فى الصعيد أو غير الصعيد ، ونسأل : أهذه تعتبر أدباً ؟ وإذا اعتبرت أدباً أهو مما يشرف البيئة المصرية ؟ — الواقع أن بيئتنا مجدبة من تلك الروح ، وهذا هو أهم أسباب تأخر الشعر وبطئه عن مجاراة النثر . — على أننا — وقد تضافرت القوى فى أيامنا هذه على إنضاج الروح المعنوية الصحيحة ، وتقوية الحياة الروحية للأمة — لنا أمل كبير فى المستقبل أن نظفر بهذا الشاعر الكريم المنتظر .. — ومما يبشر بذلك كثرة شعرائنا اليوم وخاصة شعراء الشباب وما يحاولونه من التجديد فى الأسلوب والابتكار فى التصوير .

٣ - اضطرار الشاعر إلى الكدح فى الحياة :

بينما نجد الكاتب يستطيع الارتزاق بكتابته فيؤلف ويطبع ويبيع ويستغل أو ينشر المقالات فى الصحف لقاء أجر ما ، أو ينافح بقلمه عن حزب من الأحزاب ، فيصل من وراء ذلك إلى منصب وزارى أو كرسى نيابى أو غير ذلك ، مما يسبغ عليه الجاه والنعمة ، وبينما نجد الخطيب يعيش ببضاعته من خطابة سياسية أتقنها ، أو كلام أجاد إلقاءه ، فيصادف من وراء ذلك خيراً وثراء ، إذ نجد الشاعر اليوم لا يستطيع أن يعيش عيش الكفاف إذا هو اعتمد على شعره ! ولم تضع الحكومة جوائز أدبية ، ولا سخت يد غنى من أغنيائنا بمنحة سنوية تجود بها لشاعر نابه ، على نمط ما نسمع عن حكومات أوربا أو أثريائها أو جمعياتها . . . حتى تنشط الروح الشاعرية فى الشاعر ، وتحفزه إلى إتقان فنه ، فلا ينصرف همه إلى شيء سواه لقاء ما سيفوز به من التقدير . . .

فشاعر اليوم فى حاجة إلى الكدح فى الحياة ليحفظ رمقه ورمق أسرته . وما من شاعر معروف فى العصر الحديث إلا له عمل آخر غير شعره يعيش منه : فالبارودى وزير ، وإسماعيل صبرى وكيل للحقانية ، وحفنى ناصف مفتش أول للغة بوزارة المعارف ، وعبد المطلب مدرس ، وحافظ وكيل دار الكتب . حتى شوقى نفسه وهو « شاعر الأمير » كان ذا عمل ما فى قصر الأمير ، وهكذا .

ونحن لا ندعو إلى التكسب بالشعر ، وإنما ندعو إلى تقدير الشاعر تقديراً مناسباً للعصر الحاضر ولحياة الشاعر ، وعلى النمط الذى يرفعه ولا يضعه ، وبعدُ: فهل لنا أن نتفاءل خيراً بما منحته وزارة المعارف بعض الشعراء من المال جائزة لبعض أناشيدهم ؟ فلنتفاءل . . .

٤ ـ عقم التشجيع :

ولرب سائل يسأل : إن كثيراً ما نرى أو نسمع أن شاعراً نال حظوة عند أمير أو وزير . أليس ذلك ضرباً من التشجيع ؟ ونقول : نعم ! ولكنه ضرب عقيم ! يجنى على الشاعرية نفسها . فإنهم لا يقدرون فى الشاعر فنه وسحر بيانه لذاته ، وإنما يقدرون فيه أنه بهجة الأصحاب وزينة فى الركاب ، وأنه لم يعد أن يكون لساناً مأجوراً . ولذلك لا يرتاعون إذا فقدوه . . فينحدر الشاعر بهذا النوع من التشجيع ، من قمة فنه إلى العبث الذميم واللغو المقيت.. وتتلوث شاعريته وتنحط روحانيته . ـ ولا نريد بذلك ألا يكون للشاعر فى دنيا السياسة رأى أو مبدأ . كلا ! فذاك واجبه ! وإنما نريد ألا يقهر معه شعره على اتباع رأى ما . . بل يقدر بما يحويه شعره من فن خالص .

وإننا ـ ونحن عرب القرن العشرين ! ـ لم نصل بعد فى تمجيد الشعر والسمو بالشاعر ، إلى مثل ما وصل إليه عرب الجاهلية ! فأين مجالس الشعر ومواسمه وأسواقه ؟ . . وهل لدينا ما يشبه عكاظ ومجنة وذا المجاز ؟ .

٥ ـ القيود الاجتماعية :

إن الشاعر فى حاجة شديدة إلى جو ملىء بالحرية التامة ، لا يستجيب فيه إلا لوحى شاعريته . . ومع إطلاق الحريات للناس جميعاً فى زماننا ، وانقشاع

كابوس الاحتلال . . لم تزل هناك قيود قاهرة من دأبها أن تكبت الشاعرية فى نفس صاحبها ، فالاضطهاد والنقد الجارح والحملات العنيفة ودعوى الفجور أو الانحراف عن الجادة . . كل ذلك فى انتظار الشاعر الحر إذا شذ عن عرف مرعى أو تقليد متبع ، ويظهر أن عدداً كبيراً من الثائرين قاسوا أهوالا كثيرة حتى حرروا أنفسهم إلى حد بعيد من ربقة هذه القيود الاجتماعية ، أما الشعراء ! فمع اعترافنا أن بعضهم أصابه بعض الأذى - لا يزالون يفضلون العافية والراحة والخضوع لهذه القيود على آلام الجهاد ! ! . وبهذا أصبح لبعضهم شخصيتان : واحدة يعيش بها بينه وبين نفسه ، وواحدة يعيش بها بينه وبين الناس ، وكثيراً ما تكون إحداهما مناقضة الأخرى ! .

وبعد ! فهل عدم شعرنا أن يكون فيه جديد ؟ أجل : إن فيه بعض الجديد . وستلمس ذلك فى الكلام الآتى عن أغراضه وأساليبه ومعانيه ، ويمكنك أن تقيس ما نذكره من ذلك فى أيامنا إلى ما كان منه فى أوائل هذا العصر ، فتقف على مدى التجديد فى الشعر .

أغراض الشعر : الحق أن أغراض الشعر نالت حظا كبيراً من التجديد وإليكها :

١ - كانت تدور فى أول هذا العصر حول الإخوانيات مثل : مدح صديق ، رثاء فقيد ، وحول: غزل متكلف ، ووصف خمر بغير شرب ! والتاريخ الشعرى .

ويتمثل ذلك فى شعر : السيد إسماعيل الخشاب « المتوفى سنة ١٢٣٠هـ » . وقال يمدح الشيخ الأمير :

أدر لى فى الربا القدحا وكن للعذل مطرحا
ونبه صاح ساقيها فضوء الصبح قد وضحا
فثغر الدهر مبتسم وشادى الورق قد صدحا
وخذها من يدى رشاٍ مليح قد حوى مُلحا
غزال إن يلح للبدر أو غصن النقا افتضحا

وأطرب مسمعيك بما به أستاذنا امتدحا
محمد الأمير المر تجى كم آملا منحا

٢ - ثم أثرت الحركة العلمية فى عهد محمد علي باشا على الشعراء تأثيراً ضئيلا فازدادت أغراض الشعر . وتناولت : مدح الأمراء ، ووصف بعض المحسوسات «كوصف بركة الأزبكية للعطار» . والعتاب ، والشكر ، والغزل ، ويتمثل ذلك فى شعر : حسن العطار «١٢٥٠هـ» ، على الدرويش «١٢٧٠ هـ» ، شهاب الدين المكى «١٢٧٥ هـ» ، ومحمود صفوت الساعاتى «١٢٩٨ هـ» .

نموذج : قال السيد على الدرويش يمدح محمداً عليا باشا ويؤرخ مجىء الجراد فى عام ١٢٥٩هـ وبه مات بقر كثير :

ياصاح ماهذا الخبر ؟ قال : الجراد هنا ظهر
قلت : الجراد ؟ فقال : إى تدرى الجرادَ إذا ابتدر
قلت : استعذ بالله ! قا ل : وهل من المقضى مفر
ما كان قط بخاطرِ فى خاطرى هذا الخبر
جاء الجراد كأنه يتلو على البقر السور
ومنها هل للخديوى مشبه فى همة أو فى سير
هل قبله رد الجرا دَ سواه فيما قد غبر ؟
ومنها أرخته وصل الجرا دُ لمصر فى عام البقر ...

١٢٦ ٢٢٩ ٣٦٠ ٩٠ ١١١ ٣٣٣ = ١٢٥٩

٣ - ثم اتجهت النهضة نحو الأدب فى عصر إسماعيل وتوفيق ، فتهذب المدح واتسع أفقه ، وكذلك الإخوانيات ، وارتقى الوصف الحسى ، ويتمثل ذلك فى شعر : السيد على أبى النصر «١٢٩٨ هـ» ، وعبد الله فكرى باشا «١٣٠٧هـ» وعلى الليثى «١٣١٣ هـ» ، ومصطفى بك نجيب «١٣٢٠ هـ» .

نموذج : ١ - كتب السيد على أبو النصر إلى بعض أصحابه فى العتاب :

حروف ودى وسائل　　والدمع جار وسائل
ولوعتى وشجونى　　تضيق عنها الرسائل
لى فى هواكم غرام　　طول المدى غير زائل
لما هجرتم وبانت　　صبابتى للعواذل
دخلت دار اصطبارى　　خرجت من غير طائل
فقلت للعين جودى　　بالمرسلات الهوامل
وقد أمرت يراعى　　بخط ما أنا قائل
وحبكم فى ضميرى　　سواه زور وباطل
ومدحكم كل وقت　　فرائض لا نوافل

٢ - كتب الشيخ على الليثى وقد زارته سائحة أمريكية وهو فى ضيعته فى الصف :

وزائرة زارت على غير موعد　　غريبة دار تنتحى كل مورد
تبدى لنا وقت الظهيرة نورها　　ونحن على روض زها بالتورد
من اللاء لم يدخلن مصر لحاجة　　سوى رؤية الآثار فى كل مشهد
لها فى أميريكا انتساب ودارها　　« بيستن » إذ تعزى لمسقط مولد
فحيت وقالت - والمترجم بيننا -　　: لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندى
فقلنا ونور البشر أزهر بيننا :　　على الرحب والإقبال مشكورة اليد
ودارت أحاديث التساؤل بيننا　　فجاءت بدر من حديث منضد
ومنها وقمنا وودعنا القلوب فهل درت　　بما نابنا عند الوداع الممهد
ولولا اللقا فى مصر ما انطفأ الجوى　　وهذا الذى أبقى تمام التجلد

٤ - ثم ظهر البارودى فى وسط هذه الحلبة السابقة ، فكان وحيدا بينها معدوم القرين ، وما أفردناه بالذكر إلا لأن ظهوره كان طفرة فى تاريخ الشعر العربى ، وقد أجاد فى الأغراض الآتية : الحماسة ، وصف الحرب ، وصف الصيد ، الرثاء ، الحنين إلى الديار ، النسيب ، الفخر ، مدح النبى عليه الصلاة والسلام

وبذلك رد على الشعر كثيرا من أغراضه الهامة بأسلوب لا يمكن أن تتمخض عنه بيئة كبيئته ، ـ وقد توفى سنة ١٣٢٢ هـ.

نمـــوذج : قال البارودى يصف البين :

محا البين ما أبقت عيون المها منى ... وشبت ولم أقض اللبـانة من سنى
عناء ويأس واشتياق وغربــة ... ألا شد ماألقاه فى الدهر من غبن
فإن أك فارقت الديار فلي بهــا ... فؤاد أضلته عيـــون المهـــا عنى
بعثت به يوم النوى إثر لحظــة ... فأوقعه المقدار فى شرك الحسن
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننـا ... فليس كلانا عن أخيــه بمستغن
ولمـــا وقفنـــا للوداع وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبرى أن يعـــود فعزنى ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يُغن

٥ ـ ومنذ عهد البارودى إلى اليوم انتشر التعليم ، ونهضت دار العلوم ، وعنى بدراسة الشعر واشتد أزر الترجمة ، وزادت الصلة بيننا وبين أوربا ، وغير ذلك من دواعى نهوض الشعر التى أشرنا إليها . فبـــدأ النضوج الذهنى والروحى الصحيح . ولهذا ظهر بعد البارودى شعراء أفذاذ كانت لهم جهود موفقـــة فى سبيل اتساع أغراض الشـــعر . ـ ومن هؤلاء : حفنى ناصف (١٩١٩ م) ، اسماعيل صبرى (١٩٢٣ م) ، محمد عبد المطلب (١٩٣١ م) ، حافظ إبراهيم (١٩٣٢ م) ، أحمـــد شوقى (١٩٣٢ م) . وغيرهم كثيرون مثـــل : ولى الدين يكن والرافعى والمصرى ونســـيم . فبهمة هؤلاء تعددت أغراض الشعر ، وإليكها :

١ ـ المـــدح : وتتصل به التهنئة فى مناسباتها . ولشوقى فى توفيق باشا وعباس باشا والسلطان حسين والملك فؤاد مدائح ممتعة تذكرنا بالمدائح العباسية ، كما له ولغيره من الشعراء مدائح للعظماء والأصدقاء . ومن المدح : قول شوقى للملك فــؤاد :

باه المـــلوك بهـــذا التـاج إن له ... فى جوهر الشمس لافى المـاس منتسبا

وته عليهم بعرش غـير ذى لدة   من عهد خوفو على الماء استوى عجبا
لو استطعنا لزدنا فيه قائمة   ولا تخذنا له أم السها عتبا

ب - الوصف : وقد تناول أمورا كثيرة ، وخاصة مظاهر الطبيعة ، والمخترعات الحديثة ، والآثار القديمة ومخاطبتها ، والمجالس والحفلات ، ومنه قصائد شوقى فى : « وصف أبى الهول » و« مملكة النحل » ، « قبر نابليون » ، « النيل » ، « توتعنخ آمون » ، « الربيع » . ومنه : وصف « القلم » لعبد المطلب ، و « القطار الحديدى » لحافظ إبراهيم . وإليك مثلا : قال حافظ يصف القطار الحديدى :

صفحة البرق أومضت فى الغمام   أم شهاب يشق جوف الظلام
أم سليل البخار طار إلى القصـ   ـر فأعيا سوابق الأوهام
مر كاللمح لم تكد تقف العيـ   ـنُ على ظل جرمه المترامى
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيـ   ـه تولى فى يقظة أو منام

ه - الوجدانيات : وتبدو فى وصف الحوادث الفاجعة كحريق مدينة ، أو مصاب يتيم - كما تبدو أيضا فى وصف الأدوات والمناظر وصفا يفصح عن أثرها فى النفس لا وصفا حسيا فحسب . ومن ذلك : وصف حافظ فى « حريق ميت غمر » ، ووصف إسماعيل صبرى فى « الساعة » . وإليك بعضا مما قال فيها :

كم ساعة آلمنى مسها   وأزعجتنى يدها القاسية
فتشت فيها جاهدا لم أجد   هنيهة واحدة صافية
وكم سقتنى المر أخت لها   فرحت أشكوها إلى التالية
فأسلمتنى هذه عنوة   لساعة أخرى وبى مابيه ..

ى - الشعر السياسى : ولشوقى وحافظ قصائد عدة تبدو فيها النزعات الوطنية والمبادىء الحزبية والقومية . ومنها قصيدتاهما فى توديع كرومر . وتهنئة شوقى بنجاة سعد من محاولة الاغتيال ومنها :

ويا سعد أنت أمين البلاد | قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تقد القناة | ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح | وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها | عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه | وريد الحياة وشريانها

هـ — الشعر الاجتماعى : وهو الذى يعرض لوصف حالة عامة فى الأمة ويدعو إلى إصلاح مرافقها فهو شقيق النثر الاجتماعى . ومنه : « الجمعية الخيرية » لحفنى ناصف ، « المعلم » لعبد المطلب ، « وصف اللغة » لحافظ ، « المرأة » لملك ناصف ، « انتحار الطلبة » لشوقى .

فمن قصيدة عبد المطلب فى « المعلم » :

بنى مصر ما بال المعلم كاسفا | يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبيين الكرام سبيله | يعم به الدنيا صلاحا فتقمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعبا | تنام حواليه النجوم ويسهر

ومن قصيدة شوقى فى انتحار الطلبة :

ناشىء فى الورد من أيامه | حسبه الله أبالورد عثر
سدد السهم إلى صدر الصبا | ورماه فى حواشيه الغرر

ومنها نشأ الخير رويداً ، قتلكم | فى الصبا النفسَ ضلال وخسر
لو عصيتم كاذب اليأس فما | فى صباها ينحر النفس الضجر
تضمر اليأس من الدنيا وما | عندها من حادث الدنيا خبر

و — الشعر القصصى : مثل : « كبار الحوادث فى وادى النيل » لشوقى ، « العلوية » لعبد المطلب فى تاريخ سيدنا علي ، « العمرية » لحافظ فى تاريخ سيدنا عمر. ويلاحظ أن هذ الفن لايزال يعتمد على التاريخ فحسب · فلما تبدُ فيه روح الابتكار بعيدا عن المحيط التاريخى . ومن «عمرية» حافظ يصف مقتل سيدنا عمر:

مولى المغيرة لاجادتك غادية | من رحمة الله ما جادت غواديها

مزقت منه أديما حشوه همم في ذمة الله عاليهـا وماضيها
طعنت خاصرة «الفاروق» منتقما من الحنيفـة في أعلى مجاليها
فأصبحت دولة الإسلام حائرة تشكو الوجيعة لما مات آسيها

ز ـ الشعر التمثيلي : وشوقي هو وحيده وابن بجدته . ورواياته التمثيلية الشعرية مشهورة ومنهـا : « مجنون ليلى » ، « قمبيز » . ومنه في مفتتح « مصرع كليوبترا » : « في مكتبة قصر كليوبترا ـ حابي وديون وليسياس ، جلوس إلى عملهم ، يُسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هـذا النشيد » :

يومنـا في أكتيوما ذكره في الأرض سار
اسألوا أسطول روما هل أذقناه الدمـار

أحرز الأسطول نصرا هز أعطاف الديار
شرفا أسطول مصرا حزت غايات الفخـار

. . .

صـارت الإسكندرية هي في البحـر المنار
ولهـا تاج البرية ولها عـرش البحار

حابي : اسمع الشعبَ ديونُ كيف يوحون إليـه
مـلأ الجو هتـافا بحيـاتيْ قـاتليـه

. . .

أثر البهتان فيـه وانطلى الزور عليـه
يا له من ببغـاء ! عقـله في أذنيـه

ديون : حابي سمعتُ كما سمعتَ وراعني أن الرمية تحتفي بالرامي
هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهمُ فراش غرام
ومشى على تاريخهـم مستهزئا ولو استطاع مشى على الأهرام

ع - الأناشيد: وهى الأشعار الغنائية التى تنتظم الطوائف الكثيرة وقت ترنيمها، وهي أنواع. وأهمها الحماسي الوطني، وهو أداة صالحة لبث الروح الوطنية فى قلوب النشء. كما أن الأناشيد وسيلة ناجحة لتعليم العربية الصحيحة. وقد فطن الشعراء إليها أخيرا، وشجعتهم وزارة المعارف ببعض الجوائز على نظمها، على أننا لانزال نطلب منها المزيد، ونرجو لو تسعدنا الأيام بنشيد وطنى قوى مثل «المرسليز» الفرنسى! ومن شعراء الأناشيد: شوقى فى: «بنى مصر مكانكم تهيا»، «يافتاة ارفعى العلم»، والرافعى فى «اسلمى يامصر إننى الفدا»، ومنهم صاحب النشيد القومى وأوله: «بلادى بلادى: فداك دمى»، وغيره كثير من شعرائنا الأحياء. - فمن نشيد «إسلمى يامصر» للرافعى:

اسلمى يامصر إننى الفـــدا   ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبـــدا   إننى أرجو مع اليوم غـــدا
ومعى قلبى وعـزمى للجهـــاد   ولقلبى أنت بعد الدين دين
لك يامصر الســلامـــة   وســلاما يابــلادى
إن رمى الدهر سهامـــه   أتقيهـــا بفـــؤادى

واسلـــمي فى كل حـــين

ط - هناك أغراض أخرى، مثل: الرثاء، الهجاء، الحماسة، الفخـــر مدح النبى عليه السلام، الشكوى، العتاب، التهانى، الخمريات، الغزل الحقيقى، الحكمة والمثل. - وإنما آثرنا الأغراض السالفة ببعض الشرح والتمثيل لأنهـا أهم ما يمتاز به الشعر الحديث.

لفظ الشعر وأسلوبه: لو رجعنا إلى النماذج التى أوردناها لتبين لنا منها ما يأتى:

١ - أن عبارة الشعر فى أول هـــذا العصر كانت سهلة ممعنة فى السهولة؛ حتى بعدت عن الجزالة. كما انبث فيها بعض العامية، وبدا عليها بعض التعقيـد؛ وبها مسحة من البـــديع.

٢ - ولما اشتغل الناس بالترجمة فالعلم فالأدب، وطبعت دواوين الشعراء

والكتب العربيـــة القديمة بدا أثر ذلك فى عبارة الشعراء فقويت وجزلت بعض القوة والجزالة ، وإن بقى بها بعض البديع .

٣ ـ وحينئذ ظهر البارودى وكان كثير الحفظ للشعر القديم ، كما كان يؤثر اللفظ على المعنى ، فأشرقت ديباجة شعره وأحكم نسجها ، وبدا فيهــا البــديع بلا تكلف .

٤ ـ ثم تجددت الديباجة الشعرية بظهور حفنى ناصف وعبد المطلب . وهما لغويان ! وكان أخيرهما شديد التعصب للشعر القديم وتراكيبــه المأثورة . وحينئذ تجافى الشعراء عن البديع ، وانصرفت عنايتهم إلى تخير ألفاظ الشعر ، واجتباء أساليبه ، وعرضها على الذوق والسمع أولا ، واشتهر حافظ إبراهيم بأنه كان يتغنى بشعره ويعرضه على أصدقائه قبل إنشاده علانيــة . وعنى شوقى بالتراكيب الدقيقة التى تكتنز فيها المعانى . وعنى إسماعيل صبرى بالعبارة الرقيقة السهلة الممتنعة التى تقبل عليها الأسماع ولا تتجافى عنها . وهكذا ، فبدأ كل شاعر يظهر « استقلاله » فى أسلوبه أو يُبرز « شخصيته » فى كلامه . ولكن ذلك لم يصل فى الشعر إلى مثل ما وصل إليــه فى الكتابة . . .

ويؤخذ على الأساليب الشعرية وألفاظها : (١) قصورها عن أداء المعــانى الجديدة الجوالة فى نفوس أهل العصر بالدقة التى يؤديها بها النثر . أى لم تكتسب بعدُ مرونته . (٢) استعمال كلمات قليلة أجنبية أو عامية ، أو عربية مبتذلة ، هناك مندوحة عن استعمالها ، وذلك بتأثير الترجمة كما أشرنا من قبل . ومنه :

قول شوقي : هو فى الملك بدره المتجلى حف بالهالتين من برلمانه

وقول حافظ: تلقاه فى الجد كما تبتغى وتارة تلقــاه فى الهلس
سركيس إن راقك ماقلته فى معرض الهزل فقل مِرْسِى

(٣) الوقوع فى أخطاء لغوية أو نحــوية أو شبهها تحت ضغط الضرورة الشعرية . وذلك قليل أيضاً . مثل ترك النصب ، وزيادة اللام فيما يأتى :

قول شوقي: أمولاى غنتك السيوف فأطربت فهل ليراعي أن يغنى فيطربُ

ومنه قوله : أناول من شعر الخلافة ربها ... وأكسو القوافى مايدوم فيقشب

وقول حافظ: أيها الرافلون فى حلل الوشـ ... ـى يجرون للذيول افتخاراً

(٤) كثرة استخدام الألفاظ والأساليب القديمة حتى ما كان منها عريقاً فى بداوته وبينه وبين حضارتنا الزمن الكبير، والتباين الكثير . ـ ولو بدعوى مجازيتها - ومنه قول شوقى فى استقبال أم المحسنين :

وقفى الهودج فينا ساعة ... نقتبس من نور أم المحسنين

واتركي فضل زماميه لنا ... نتناوب نحن والروح الأمين

ولعبدالمطلب: وما عاقنى حتى تأخرت عنهمُ ... بطاء ركابى أو عياء جِمَالى

(٥) حب محاكاة القصائد القديمة المشهورة أى « معارضتها » ، وقد سبق لنا فى ذلك حديث .

معانى الشعر : من الغمط لشعرائنا أن نقول : إنهم لم يجددوا إلا فى الأغراض دون المعانى ، ولم يبتكروا الأخيلة أو يبتدعوا التصورات . ـ وحقا إنهم استعاروا كثيراً جداً من معانى الأقدمين ! فلا يزال : العيون كالنرجس ، والسحاب يبكى ، والبرق يضحك ، وطيف الحبيب يبخل ، وهكذا . . . ولكن فى الحق ، أن من شعرائنا المجدد المبتكر أيضاً ، والذى لم يسبقه فى تجديده شاعر آخر ! مع وضوح معانيه وترتيبها ودقة تصويرها ، وتلك إحدى ضرورات العصر الحاضر الزاخر بضروب المعانى الجديدة ، التي لا قبل للشاعر بدفعها عن ذهنه وإحساسه ! ، فهذه مناطيد العصر وطياراته وقطره وبواخره ، وبرقه ومسرته وواحيه ، ثم تلك الحياة الحضرية التى نقتبسها عن الأوربيين ، وهى جديدة فى شتى معانيها .. ثم تلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية المليئة بالآمال والمبادىء .. وقد بدأ شعراؤنا يتأثرون بكل أولئك ويقبسون منه ، ويلتمسون فيه الخيال الجديد . .

ومع ذلك ! فلبعض شعرائنا قصائد ثرية بمعانيها بما لم يطرأ على ذهن شاعر قديم . فمَنْ وصف « مملكة النحل » كما وصفها شوقى ؟ ومَنْ وصف

« المعلم » كما وصفه عبد المطلب ؟ ومن وصف « الحريق » كما وصفه حافظ ؟ ومن وصف « المرأة أو تمثال الجمال » كما وصفه إسماعيل صبرى ؟ .

وإليك بعضاً مما يعد جديداً فى خياله ومعناه :

١ - قال اسماعيل صبرى يصور خيانة الصديق ثم العفو عنـــه . فى بيتين :

إذا خاننى خــل قديم وعقنى وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى وانثيت ولم أرم

٢ - قال شوقى يصور الجهل الخادع :

والجهل لا يلد الحياةَ مواتُـه إلا كما تــلد الرِّمام الدودا
لم يخل من صـــور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليـــدا

٣ - قال حافظ فى « زلزازل مسينا » قصيدة منها :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــ ـــر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهـــل إلى النـار يمشى مستميتاً تمتـــد منه اليـــدان
باحثـــاً عن بناته وبنيـــه مسرع الخطو مستطير الجنان

ويلاحظ بعض النقاد على معانى الشعر :

١ - أن أكثرها من صنع « العقل » أو « الخيال » فهى صناعة لا غـــير ، لم تبدُ فيها « الروح الشعرية » قوية وثابة معبرة عن مبلغ تأثر النفس بمجالى الجمال .

٢ - أنها لا تزال — فى أغلب أمرها — تعتمد على « وحدة البيت » لا على « وحدة القصيدة » . فهى — وإن كانت مرتبة مسلسلة — ليس بينهـا من إحكام الربط والصلة ما بين أجزاء البدن الواحد . . .

٣ - أنها لم تظهر فيها خيالات الحضارة ، وما توحيه المكشوفات والمخترعات الحديثة من تصورات دقيقة ، ظهوراً قويا . بل لا يزال الشعراء يحومون حول حماها ولا يقربونها . .

التعريف ببعض شعـــراء العصر الحـــديث

١ – السيد على أبو النصر(١) « توفى سنة ١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م »

أحد الشعراء الذين عـــبَر الشعر على يديهم من قدمه وبلاه إلى حداثته وجدته ، وقد نشأ فى منفلوط بمديرية أسيوط ، ثم تلقى العلم بالأزهر . فجنحت نفسه إلى النهل من الأدب ، وتجريب القلم فى صفحته . فاستقام له نظم الشعـــر والزجل معا ، حتى أصبح أديب عصره . فاتصل بمحمد على باشاو بأمراء بيتـــه فأعلوا منزلته وأحسنوا صلته ، واستخدموه لبعض مهامهم . فأوفده محمـــد على باشا إلى القسطنطينية نائباً عنه فى حفلة أقامها الخليفة عبد المجيد ، ثم شخص إليها مرة أخرى بصحبة إسماعيل باشا أيام خلافة السلطان عبدالعزيز . وطالت حياته حتى شهد عصر توفيق باشا وحظى عنده بمنزلة رفيعة . ثم توفى سنة ١٢٩٨هـ ١٨٨٠ م

شـــعره : شعر كشعر العلمـــاء إذا مر به طائف من الأدب . . . فهو يترجح بين الجودة والاسفاف ، وبه أثر البديـع المتكلف من جناس وطباق . كما قد تجد فى بعض عباراته تعقيدا ، وفى بعض ألفاظه نبـــوا . — كما أنه لم يرزق كثيرا من المعـانى العالية ، لأن الشعر كان إلى ذلك العصر تمرينـا للقريحة ا وتدور أغراضه حول : المدح ، الغزل الصناعى ، قليـل من الوصف ، التاريخ الشعرى ، الاخوانيات من عتب أو إظهار شوق أو شكوى فراق .

نمـاذج من شعره : ١ ـ سلفت من شعره قطعة فى أغراض الشعر، فعدإليها .

٢ ـ قال يتصبر ويشكو معا :

بصـــادر آمالى ووارد خاطرى ... كلفت فيـانفسى الأبيـــة خاطرى
ولا تجزعى إن هال خطب فربما ... تدين الأمانى لامرىء غـــير قادر
ولا تشـــتكى الأيام إلا لمنصف ... فلا خير فى الشكوى إلى غير ناصر
ومن لم يـكن ذا همـــة هاشميـــة ... أخافته فى الهيجا بروق البـــواتر

---

(١) راجع المفصل جزء ٢ ص ٣٣٨ .

٣ - وقال يتغـــزل :

أسرت بمـــرهف الألحاظ قلبـــا أبى من أن يحيل إلى ســـواكا
بروحى أفتـــديك ومن لصب بعينىْ كل جارحـــة يـــراكا ؟

٤ - وقال يتحسر على فراق أحبابه :

لقد ذهب النوى بجميـــل صبرى وأودع فى حشـــاشتى الولوعا
وألبسنى الأسى خِلَـــع التـــمنى وألزمنى التـــذلل والخضـــوعا
ونارا لشـــوق أغراها غـــرامى على كبـــدى فقومت الضـــلوعا

٢ - عبـــد الله فـــكرى(١) « توفى سنة ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م »

هو الشاعر ، والكاتب الكبير ، والوزير التقى المصلح القـدير ، ورجل العلم والأدب ، ولد فى مكة المكرمة سنة ١٢٥٠ هـ . إذ كان أبوه المهنـــدس « محمد بليغ » قد رحل إليها مع الجنـــود المصرية . ولمـا عاد إلى مصر توفى بعد زمن وسن ابنـه إحدى عشرة سنة ، فكفله بعض أقاربه . فحفـظ القرآن الكريم ، وعكف على طلب العلم بالأزهر ، وكان فى أثناء ذلك يتعـــلم اللغة التركية ، ومن ثم عين فى القلم التركى بأحد الدواوين . فلم يصرفه ذلك عن مواصلة التعليم ، فظل يفد إلى الأزهر مرة فى الصباح ومرة فى المســـاء ، إلى أن اضطرته كثرة أعماله إلى الانقطاع . — ثم تقلب فى مناصب عـــدة حتى عين فى معية سعيدباشا ، وأسندت إليه كتابة الرســـائل الرسمية عربية وتركية ، فأبدع فى كتابتها . ثم أصاب منزلة سنية لدى إسماعيل باشا ، فكلفه أمر الدراسة لأبنائه فى باريس ، فظل بها زمنا . ثم عاد إلى مصر فاستخدم بنظارة المـالية ، ثم أخذ يترقى حتى كانـ وكيلا لنظارة المعارف ، فكاتبا أول لمجلس النواب وعاون على مبـــارك ، على تأسيس دار الكـتب ، وفى سنة ١٢٩٩ هـ عـــين ناظرا للمعارف فى وزارة البـارودى ، ثم ســـقط معها . واتهم بالانحياز إلى الثـــوار العرابيـــين ، فسجن زمنـــا ثم ظهرت براءته فأطلق ، ولكن

(١) فى كتاب « الآثار الفكرية » ، « إرشاد الألبا » كثير من أخباره . وفى الوسيط والمفصل .

حبس معاشه ، فاستعطف سمو الخديوى توفيق باشا بقصيدة حسنة . فأطلق معاشه وعفا عنه ، ووفقه الله بعد ذلك إلى حج بيته ، فكتب فى رحلته تلك مقالا ممتعا ، ثم رأس وفدا مصريا إلى مؤتمر فى استوكهلم ، ومن ثم تجول فى نواحى أوربا ، وهم بعد عودته بوضع سفر عن هذه الرحلة أيضا ولكن الأقدار لم تمهله ، إذ أنه مرض ثم توفى فى سنة ١٨٨٩ م .

نثره ومؤلفاته : الحق أن عبد الله فكرى باشا يعتبر فى طليعة الكتاب . ولعل آثاره فى الكتابة أمتع وأجدى من آثاره الشعرية ، وكان محبا للسجع والكتابة البديعية حتى قال فيه المرصفى : « لو تقدم به الزمان ، لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان » . وذلك تشبيه له ببديع الزمان الهمذانى فى العناية بالكتابة المحلاة ذات الفقار القصيرة . ولكن هذه القولة تحوى فى طياتها معنى آخر ، وهو أنه مُحاكٍ ومقلد لا متفنن أو مجدد . — ومع ذلك فلنعرف لهذا النابغة العظيم إعادة الطلاوة والحلاوة ، والجزالة والرصانة ، والصحة والإناقة ، إلى لفظ الكتابة وأسلوبها ، مما يكاد يعد أمرا خارقا فى عصر كالذى عاش فيه . كما أصلح الكتابة الديوانية ، وبعث كتابة الرسائل الإخوانية ، ووضع بعض المصطلحات فى الألقاب . — ومن مؤلفاته : (١) الفوائد الفكرية : وبها فصول طريفة فى التاريخ والآداب الخلقية . (٢) الآثار الفكرية : وهى مجموعة ما كتبه ونظمه ، حشدها ابنه المرحوم أمين باشا فكرى فى سفر واحد . (٣) لابنه المذكور كتاب « إرشاد الألبا فى محاسن أوربا » ألم فيه بكثير من أفكار أبيه وكتابته وأخباره .

شعره : يعتبر شعره متوسط الجودة ولكنه أجمل من شعر أبى النصر ، وبه عناية بالبديع ، وما دمنا قد درسنا حالة الشعر فى عهده وقبله وعلمنا الضعف الذى كان يساوره ، نعرف لهذا الشاعر العظيم نهوضه بالشعر العربى ، وحسبه أنه أحد الذين رفعوه من وهدته وأيقظوه من غفلته . — وتدور أغراضه حول : المدح ، الاستعطاف ، بعض الوصف ، الإخوانيات ، الغزل الصناعى .

نموذج من نثره وشعره : ١ - كتب رسالة يوصى بشخص :

« رافع هذا الرقيم ، إلى حمى المقام الكريم ، يذكر أن مسألته طال فيها المدى ، وبقى فى انتظارها على مثل ريوى الـمُدى ، ويشكو من الفقر المدقع ، والضر المضجع . ما أحرج صدره ، وأخرج عنه صبره . وأشرف به علي اليأس ، والاستسلام لمخالب البأس . لولا أمل من مولاى يُبقى على حوبائه ، وينشر تذكارُه ميت رجائه » إلى آخره .

٢ - من قصيدته التى استعطف بها سمو الخديوى توفيق باشا :

كتابى : توجه وجهة الساحة الكبرى   وكبر إذا وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعا، واستوهب الإذن، والتمس   قبولا ، وقبل سدة الباب لى عشرا
وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة   لذى أمل يرجو له البشر والبشرى
لدى باب سمح الراحتين مؤمل   صفوح عن الزلات يلتمس العذرا

ومنها :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى   ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام علىّ تقولوا   بأمر ، فقد جاءوا بما زوروا نكرا

٣ — ومن غزله وشكواه :

وعارف بفنون الطب تجربة   وخبرة ليس يخفى عنه ما التبسا
وافى ليبلو ما أشكو لجس يدى   حينا وأرسلها حينا وقد عبسا
وقال : داء هوى يأبى الشفاء وإن   أهملته زاد أو داويته نُكسا

٣ — على الليثى(١) « توفى سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م »

أحد شعراء هذه الحلبة التى تعتبر برزخا للشعر اجتازه إلى السعة والابتكار ، ولد فى بولاق سنة ١٢٣٦ هـ وأبوه « حسن ذكر الله » الذى توفى فى إحدى الحروب ، وكان ابنه لا يزال جنينا — وقيل : طفلا يحبو — ومن هنا تحولت به أمه إلى حى الإمام « الليث بن سعد » فلقب الشيخ حينئذ « بالليثى » نسبة

(١) تجد ترجمته فى السياحة الاسبوعية عدد ٩٤ ، ٩٧ ، في عهدها الأول .

إليـه . ولما درج حفظ القرآن وعدة متون ، وتفقـه على مذهب مالك ، ثم تركه إلى الشـافعى بعد زمن . وكان يتعلم بالأزهر . ثم ذهب إلى الحجاز ، ولما عاد ، سافر إلى الجبل الأخضر بطرابلس ليتصل بالسيد محمد السنوسى المتصوف . — وكان قدسمع عنـه بالحجاز ، وهناك أخذ يتلقن عنه دروس الصوفيـــة ، والتقى فى مجلسه بالشيخ القوصى الكبير ، فأعجب به ، ولزمه ، فنضح عليه هـــذا الشيخ من فيض علمه ، وغزير أدبه ، ولقنه الفقه واللغـــة والتاريخ . ثم عاد إلى مصر سنة ١٢٦٢ هـ . وبعد قليل اتصل ببيت الخديوى عباس الأول ، فعظمت مكانته بين أمرائه وأميراته . وأجريت عليه أرزاق شهرية من مال وقمح وشمـع . . . ثم وشى «عبدى باشا» إلى الخديوى سعيدباشا بالشيخ وبجماعة معه بتهمة الاشتغال بعلوم الجفر والتنجيم ، فسجن ثم نفى إلى أسوان سنة ١٢٧٥هـ ، فحُمل إليها هو وصحابته فى سفينة نيلية . فلاقوا من هـذه الرحلة بعض المشـقة . ولـكن أطلق سراحه بعد تسعة أشهر .

وفى عهد إسماعيل باشـا ، ظفر الشيخ بمنزلة كبرى لدى هذا العاهل العظيم ، الذى أكرم الأدب والأدباء ، وفاضت عليه بدره ودنانيره ، حتى أصبح منزله مجتمع العظماء ومثابة الأدباء . وكانت فى الشيخ دعابة وفكاهة ، فيرسل النكتة بارعة قوية تأسر الأسماع . . . فزاده ذلك سمواً ومهابة ، حتى أصبح سميراً لولى الأمر ، ومنحه لقب « شاعر الخديوى » . وقُـيض له السفر إلى أوربا عام ١٢٩١ هـ مع بعض الأمراء فزار برلين ، فكان لذلك حميد الأثر فى نفسه . وظلت له حُظوته ، وظل له لقبه ، فى عهد توفيق باشا . ومما يؤثر أنه توســـط لبعض الثائرين لدى الخديوى بمقـال ملؤه الحكمة والشجاعة وأعقبه بقصيـدة رائعة . ـ وقـــد أوصى بعدم طبع ديوانه ، ثم توفى سنة ١٣١٣ هـ ، ودفن جهة الإمام الشافعى .

نـــثره : له كثير من الرسائل الإخوانية لأصدقائه ومحبيه ، وهى على نمط أسلوب عصره من جزالة عبارة مع جنوح إلى البديع .

شـــعره : يعتبر أسلوبه وسطاً بين الجودة والإســـفاف ، وبين الجزالة والتكلف ، إلا أنه طرق أغراضاً متعددة منها : المدح ، الرثاء ، الوصف ، التاريخ

الشعرى ، الغزل الصناعى ، وبعض الحكم . وإليك بعض النماذج :

١ - سقنا له فى أغراض الشعر أبياتا ، يصف بها امرأة أمريكية ، فاقرأها .

٢ - قال يصف شجاعة الجيش المصرى فى فتح دار فور ، ويمدح الخديوى :

سر حيث شئت مظفراً منصورا ... فلواء سعدك لم يزل منشورا
رغبت بدولتك الممالك كلها ... فتود لو كانت لديك سريرا

ومنها : بشراك مافتكت جنودك فى العدا ... فتكاً أباد جموعهم تكسيرا
لله درهمو أسود ترهب الـ ... أعداء فى يوم الطراد زئيرا
خطت أسنتهم على صحف الثرى ... بدم الأعادى أحرفاً وسطورا

٢ - من قصيدته التى قالها عقب الثورة العرابية :

كل حال لضده يتحول ... فالزم الصبر إذ عليه المعول
يافؤادى استرح فما الشأن إلا ... ما به مظهر القضاء تنزل
رب ساع لحتفه وهو ظان ... بالسعى للعلا يتوصل

٣ - قال يصف الحاكى (الفونوغراف) :

أنا آلة سر الكلام أصونه ... عنى وعن غيرى بلا إحساس
لو رام سرى جاهل بحقيقتى ... لم يلق غير تصعد الأنفاس

٣ - من نثره خطابه لتوفيق باشا قال منه : « إن القوم خدمك ، والرعية خولك . وقد دفعتهم الأوهام إلى مالم يكونوا يقدرونه ، وسار بهم القدر إلى مالم يكونوا ينتظرونه . وقد انكشفت غشاوة الغرور عن أعينهم ، وأيقنوا اليوم أن لا ملجأ منك إلا إليك ، ونفوسهم اليوم تطمع فى عفوك . وإن كانت تتوقع بطشك ، وتخشى نزول نقمك واشتداد أخذك . وأنت ملك قادر ، قد أمكنك الله من رقابهم . وأجدر بك أن تعفو عنهم فتملك أفئدتهم بالمرحمة » .

٤ — محمود سامى البارودى(١) « توفى سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤ م

هو رب الرئاستين ، والشاعر العبقرى الفذ ، الظافر بالشعر العربى من

(١) اقرأ عنه فى : ديوانه ومختاراته ومذكرات للإسكندرى ، الوسيط ، المفصل ، وكتب التاريخ الحديث .

الجنود والضعة، إلى السمو والسعة. مجدد ديباجته، وباعث بلاغته. ومحيي دارسه، وكاشف طامسه. رب السيف والقلم، والوزير الخطير.

وهو ابن حسن حسنى بك البارودى وينتهى نسبه إلى أحد المماليك الچراكسة البرجية. ومن أجداده الأمير مراد البارودى الذى كان ملتزماً لإيتاى البارود، وإليها نسب.

ولد «محمود» فى منزل أسرته بباب الخلق بالقاهرة سنة ١٢٥٥ هـ. ثم توفى أبوه وهو دون السابعة. فعلمه ذووه تعليما خاصاً بالمنزل. فلقن مبادىء القراءة والكتابة ونال حظاً من العلوم، كما درست له التركية والفارسية وآدابهما، والتحق بالمدرسة الحربية سنة ١٢٦٧ هـ. فتخرج فيها وسنه ست عشرة سنة، ولم يصرفه عن قراءة العربية والنظر فى آدابها ما أتقنه من التركية والفارسية وآدابهما، ومع ذلك فقد حُبب إليه السفر إلى القسطنطينية ليستزيد من ذلك حتى نظم باللغتين وكتب. ثم سُلك هناك فى إحدى الوظائف. ولم يعد إلا مع اسماعيل باشا بعد زيارته المدينة المذكورة. فاندمج فى سلك الجيش المصرى. ثم سافر إلى فرنسا وإنجلترة ليتزود بمشاهدة التمرين العسكرى فى جيشيهما. وبعد عودته وكلت إليه قيادة كتيبة من الفرسان. ـ وما حانت سنة ١٢٨٢ هـ حتى عين رئيساً لأركان الحرب فى الحملة المصرية المجردة على جزيرة إقريطش «كريد» مساعدة للجيش العثمانى. فأبلى هناك البلاء الحسن. ثم ظهرت شجاعته مرة أخرى فى حرب الروس للدولة العثمانية سنة ١٢٩٤ هـ إذ أمدتها مصر بجيش عظيم كان البارودى أحد قواده. — وعند عودته عين مديراً للشرقية فرئيساً لضبطية القاهرة «أى محافظتها». ثم عهدت إليه نظارة الأوقاف فى عهد توفيق باشا، ثم الجهادية معها، بعد عزل رفقى باشا ناظرها. ثم انتهى الأمر باختياره رئيساً للوزارة حتى تهدأ ثائرة الثائرين... ولكن الدسائس الأجنبية اضطرته إلى الاستقالة، وكان ذلك قبيل اشتداد الحركة العرابية. ومن ثم اضطرمت نارها واستعر أوارها وبدأت حملة الانجليز... فطلب إليه عرابى باشا أن يقود فرقة الصالحية. فقادها، ولكن هزمت الجنود المصرية وقبض على زعماء الثورة، ومن بينهم البارودى،

فسجن وحوكم، فنفى إلى جزيرة سرنديب جنوب الهند. وهناك ظل نحو سبع عشرة سنة ذاق فيها مرارة الغربة وألم الفراق ونار الحنين إلى بلاده وأهله . . . وأخذ يتسلى بتعلم اللغة الإنجليزية، ونشر العربية بين سكان الجزيرة. ثم عفى عنه فى عهد سمو الخديوى عباس باشا، فعاد إلى مصر حزينا كاسف البال، إذ كان قد فقد زوجته وكثيراً من أحبابه، ومدح سمو عباس باشا ببعض الشعر، ثم عكف على جمع شعره ومختاراته. وما زال حتى قبض إلى رحمة الله فى شوال سنة ١٣٢٢هـ الموافقة ١٩٠٤م.

شعره: كان جديراً به أن ينصرف عن اللغة العربية وآدابها، ولا يلهج لسانه بشعرها أو نثرها، لأنه من بيئة تركية، وزود بآداب اللغتين التركية والفارسية، كما كانت نشأته عسكرية. ولكن كان فى طبعه ميل فطرى إلى العربية وآدابها وشعرها، جنح به إلى مطالعة كتبها مطالعة عصامية لم تهذبها يد مثقف صناع، ولم يفطنه إلى بيانها ولم يلفته إلى محاسنها معلم مدرب خبير، بل عكف بنفسه على قراءة دواوين الشعراء، وأطال النظر فى كتب الأدب والتاريخ، وحفظ من الشعر مبلغاً وافراً، صقلت نفسه بصقاله وطبع لسانه بطابعه، فانثال الشعر من قريحته على لسانه متدفعا يجرى فى مثل تلك الوديان التى جرى فيها من قبل! فبعث أغراض الشعر وأساليبه القديمة مما يعد معجزة فى مثل زمانه. لذلك يعتبر البارودى فذاً بين الشعراء، إذ أن بيئة كالبيئة التى عاش فيها تيبس عن أن تنجب مثل هذا الشاعر الفحل.

وأكثر أغراض شعره مستمد من ظروف حياته، ومنها: الحماسة، الغزل الفخر، وصف حفلات السمر، وصف الرياض والمناظر المصرية، ثم وصف الحرب، ووصف النزوح عن البلاد والعودة إليها، والفخر بجنديته، ثم الحنين والشكوى والرثاء، ومدح النبى عليه السلام – وكان يسوق فى تضاعيف شعره الحكم والأمثال.

أما أسلوبه: فحسبك أن تعلم أنه كان يفضل اللفظ على المعنى، ويرى أن المعانى قد تكون مشتركة، تطرأ على خواطر كثيرين، ولكن الشاعر

يمتاز بحسن لفظه وجمال عبارته وتأنقه فى اختيار كلماته وقدرته فى الملاءمة بينها . وحسبك أن تعلم أنه كان يفضل أبا تمام على المتنبى لعناية أبى تمام باللفظ أولا . ولهذا بدت فى شعره مميزات منها :

(١) جزالة الأسلوب وفصاحة الألفاظ . (٢) العناية باللفظ ثم المعنى . (٣) تجديد الروح البدوية فى الشعر واستخدام الألفاظ والأساليب التى سعدت بكثرة ورودها على ألسنة الشعراء الأقدمين . (٤) الجنوح إلى أنواع من البديع ولكن بقلة وبلا تكلف . (٥) معارضة بعض أفذاذ الشعراء فى عيون قصائدهم . (٦) الوقوع فى بعض الأخطاء النحوية وشبهها ، وذاك قليل .

نماذج من شعره : ١ - أوردنا له عند الكلام عن أغراض الشعر قطعة ، فاقرأها .

٢ - من قصيدة له يتشوق إلى مصر .

ردوا علىَّ الصبا من عصرىَ الخالى	وهل يعود سواد اللمة البالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته	أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل إلى عدة	بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم	وساء صنع الليالى بعد إجمال

٣ - وقال من قصيدة بعد عودته من النفى ، ومروره بقصر الجزيرة فتذكر عهد إسماعيل :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع	هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا	يأتى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبلُ منزلة	للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ	ولا سميع إذا ناديت يستمع

ومنها :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم	ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر	وإنما صفوه بين الورى لمع

لو كان للمرء فكر فى عواقبه ما شان أخلاقه حرص ولا طمع

٥ ـ محمد حافظ ابراهيم (١) « توفى سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م »

هو شاعر النيل ، وأحد مفاخر هذا الجيل . نديم الشعب وترجمانه ، وسمير آلامه ولسانه ، أبوه : المهندس « إبراهيم فهمى » وهو من أسرة مصرية ، وأمه من أصل تركى . ـ وقد ولد « محمد حافظ » حوالى سنة ١٨٧٢ م فى « ديروط » إحدى مراكز مديرية أسيوط ، حيث كان أبوه مشرفا على بناء قناطرها . ثم فجعه الموت بوفاة أبيه وهو فى سن الرابعة ! فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفلهما خاله . والتحق حينئذ بالمدرسة الخيرية ، ثم القربية الابتدائية ثم مدرسة المبتديان ، ومنها دلف إلى المدرسة الخديوية . غير أن خاله انتقل إلى طنطا فحمله معه فيما حمل ! وهناك لم يلتحق بمدرسة ما . وكان لا يزال فى سن السادسة عشرة ، فسئم حياة البطالة . . . ولكنه وجد فرصة الفراغ مناسبة للتزود من اللغة وآدابها وشعرها فحفظ الكثير من ذلك ، ووجد إذ ذاك رفقة صالحة بين طلبة المعهد الأحمدى ، فكثيرا ما كانوا يجتمعون وهو واسطة عقدهم يتناشدون ويتنادرون . ثم حدثته نفسه بامتهان المحاماة وخاصة أن العيش فى منزل خاله كان قد نبا به وبجه . . . فاشتغل زمنا بها ـ وكانت مباحة لم تشترط لها الشهادات ـ ولكن دون جدوى أو استقرار . . ولما سئمها رحل إلى القاهرة والتحق بالمدرسة الحربية آملا أن يجد بعد تخرجه منها عملا مستقرا وعيشا رغيدا . . . فلما انتهت دراسته بها أصبح ضابطا ! ! فعين بالجيش ثم نقل إلى الداخلية ثم أعيد إلى الحربية ، ومن هنا أشخص فى الحملة المصرية بقيادة لورد كتشنر إلى السودان فظل هناك زمنا ، وعرف بإهماله وعدم مراعاة النظام . وطفق يتوسل لإعادته إلى مصر ، فلم يسمع له ، حتى لقد كاتب الأستاذ الإمام فى هذا الشأن . ولكنه لم يستطع إرجاعه ، فظل متوجعا لغربته حتى انتهز فرصة فثار مع فئة من الضباط بإيعاز من بعض أولى الأمر سنة ١٨٩٩م ، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع ومنه

(١) اقرأ ترجمته الممتعة في صدر ديوانه ، وفى « صفوة العصر » .

إلى المعاش . فلقى بعـــد ذلك ألوانا من البؤس وشظف العيش . ولـكنه كان موضع إجــلال من قادة مصر وعظمائها الذين يقـــدرون الأدب والشعر الطريف ، فكان يغشى مجالسهم ويرتاد رياضهم . وفى ســـنة ١٩٠٦ م تزوج ولـكن لم يدم زواجه سوى أربعة أشهر ! وفى سنة ١٩٠٨ م توفيت أمـــه . فنالت هذه الضربات المتوالية من نفسه . وما زال حتى عينه أحمد حشمت باشا فى دار الـكتب سنة ١٩١١ م فترقى فى سلك وظائفها حتى أصبح وكيلا لهـا . فظل زمنا ، زار أوربا خلاله . وما زال فى هذا المنصب حتى أحيل إلى المعـاش وبعد أربعة أشهر ونصف قبض إلى رحمـــة الله فى صباح الخميس ٢١ يوليو ســـنة ١٩٣٢ م .

شـــعره : إن ما لاقاه حافظ فى حياته من آلام ، وما لابسـه من ظروف لم تتوفر عندها أمانيه ورغائبه ، وما أصابته به الأيام من فواجع كفقد أبيه ، وانقطاعه عن الدراسة ، وتململ خاله منه ، وإبعاده إلى السودان ، ثم إحالته إلى الاستيداع فالمعاش ، فخيبته فى زواجه ، ثم فقـدأمه . كل أولـئك كانت عوامل فى إنهاض شعره ، وخاصة فى أبواب الشـكوى والتوجع ، وإشاعة الخوف والهلع من الدنيا وأهلها ، وإلى سرعة تأثره وشدته بما يصيب الشعب من آلام شبيهة بآلامه . ينطق بذلك كله شـــعراً ، على شرط ألا يـكون هناك من يؤاخذه ويؤنبـــه لئلا يضيف إلى نفسه ألماً جديداً . . ولذلك خفت شعره فى هـذا الباب حينما ذاق طعم النعمـة ولذاذة العيش وهو موظف بدار الـكتب ! على أن حافظا كان يجد لنفسه أحيـانا مخرجا فى وصف مخترع حديث أو مـدح عظيم ، أو رثاء فقيـد أو دعوة إلى عمل خيرى . نقول : كان ينتهز هذه الفرصـة ويسوق بعض ما يدخر فى نفسه ، وما يـكتمه فى أعماقها . ويحول الموضوع الخاص الذى ينظم فيه إلى موضوع عام يستفز به عواطف الناس ووجداناتهم ويسوق لهم النصح والرأى ، وكـثيراً ما عطف ، ودعا إلى العطف على البائس المحتاج . وبعد ! فلعلك لحظت أن لحافظ أغراضاً متعددة منهـا : المدح ، الغزل ، التهنئة ، الوصف ، الخمريات ، الشعر الاجتماعى ، السياسى ، الشكوى ، الرثاء . القصص التاريخية .

أسلوبه ومعناه : كان معنيا بأسلوب شعره فكلما نظم بعضا منه يتغنى به ثم يتعهده بالتهذيب والصقل حتى تستسغيه أذنه . وينسجم مع الذوق ، ويتلاءم مع المعنى ، ويناسب الموقف الذى ينشد فيه . ولهذا كان حافظ كثيرا ما يظفر بإعجاب سامعيه غير تارك لسواه إلا قليلا منه ... كما كان لصوته وحسن نبراته وروائع إلقائه نصيب فيما يظفر به . وكان لا يجد غضاضة فى عرض شعره على صحابته وخاصة شيخ الشعراء المرحوم إسماعيل صبرى . غير أنه كان يضيق صدره إذا ما تعرض إنسان بعد مجهوده ذاك إلى نقده . — ومع أنه كان بليغ التركيب قوى العبارة فصيح اللفظ ، لم يسلم من الوقوع فى بعض الخطأ أو استعمال بعض كلمات عامية أو دخيلة أو كثيرة التكرار فى أفواه الناس .

وتمتاز معانيه بوضوح مراميها وتسلسلها وغزارتها ، ولكن المبتكر فيها قليل .

نثره : وله نثر رقيق مستساغ قد بدا بخاصة فى رواية « البؤساء » التى عربها عن فكتور هوجو ، وهى متداولة كما عرب كتابا فى الاقتصاد هو وخليل بك مطران

نماذج من شعره : ١ - أوردنا له أبياتاً متعددة فى أغراض مختلفة ، وفى مواضع متفرقة . فراعها .

٢ - من خمرياته :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى	بين هَمّ وبين ظن وحدس
ياغلامُ ! المدامَ والكاسَ والطا	س وهيء لنا مكانا كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ	ـدن وأملأ من ذلك النور كأسى
وأذن الصبح أن يلوح لعينى	من سناها ، فذاك وقت التحسى
وادع ندمان خلوتى وائتناسى	وتعجل واسبل ستور الدمقس
واسقنا ياغلام حتى ترانا	لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها	من خدود الملاح فى يوم عرس

٣ - من رثائه فى عاطف بركات باشا :

ثمن المجـــد والمحـــامد غالِ   آل زغلول فاصبروا للـــيالى
قد هوى منكمو ثلاثة أقمـــا   ر خلت منهمو بروج المعالى
مات « فتحى » ومن لنا بحجاه   وأفانين فــكره الجــوال
و « سعيـــد » وكان غصنا نديا   فتحت فيه زهـــرة الآمال
وقضى « عاطف » وكان عظيما   ساهد الرأى مطمئن الخلال

٤ - ومن أبياته السائرة :

ا - لا تلم كـــفى إذا السيف نبا   صح منى العزم والدهـــر أبى
رب ساع مبصر فى سعيـــه   أخطأ التوفيـــق فيما طلبـــا
ب - وتراث الأديب فى الشرق حزن   لبنيـــه وثروة للـــرواة
حـ - الأم مدرســـة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

٦ — أحمد شوقى(١) « توفى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م »

هو أمير الشعراء المبدع المبتكر أحمد شوقى بك بن أحمد شوقى بك . امتزجت فى دمه عناصر أربعة : العربية والتركية واليونانية والجركسية . والذى لا نشك فيه أن المصرية العربية كانت أشد عناصره أثراً فى نفسه فإنه نشأ فى بيئـــة مصرية وتعهده ملوك مصر وعاش فى قصـورهم . ورب قائل يقول : إن يونانيته هى التي أنطقته بالشعر القصصى والتمثيلى لأن لهما وجوداً منـــذ القديم فى حياة اليونانيين ! ورب قائل يقول : إن تركيته هى التى أنطقته بذلك الشعر الذى يمجد فيه الأتراك العثمانيين ويحرص على العلاقة بينهم وبين مصر ، بل ويقول فى مدحه خليفةَ بنى عثمان عبدَ الحميد :

(١) تجد ترجمته بقلمه في الطبعة الأولى لديوانه . كذلك تقرؤها في : مقدمـة ديوانه الطبعة الثانية ، وفى كتاب « اثني عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء » لكاتم سره . ، « شوقى » لأنطون الجميل بك ، « مع شوقي وحافظ » للدكتور طه حسـين . ، « صفوة العصر » لزكى فهمى ، ومجمـوعة الصحف والمجلات فى أواخر إبريل سنة ١٩٢٧ م .

وإنى لطير النيل لا طير غيره　　وما النيل إلا من رياضك يحسب

والجواب على هذين هين ميسور. فهل يقول كل يونانى مثل ما قال شوقى.. وأليست أغلب رواياته التمثيلية مصرية عربية . . ثم أليست لغتُه العربيةَ المبينة.. فَلِمَ إذن نجرده من مصريته وعربيته لنضيف فضله إلى عناصر أخرى ؟ . أما ما قاله للسلطان فلم يكن بذلك إلا مردداً لما كان يقوله كثير من المصريين حينئذ . فهل كانوا جميعاً من الأتراك ؟ . .

ومهما يكن من شيء ، فإن جده لأبيه كان كرديا عربيا يكتب باللغتين العربية والتركية ، وكان أول قدومه إلى مصر فى أيام عاهلها الأكبر محمد على باشا يحمل توصية إليه من أحمد باشا الجزار . ومن ثم التحق بالمعية وظل هو وأسرته مرتبطين بالأسرة الحاكمة زمنا طويلا . وقد ولد شوقى بالقاهرة وكان يُذهب به أحيانا إلى جدته فلا ينزل بصره عن السماء لاختلال أعصابه فرآه الخديوى إسماعيل باشا مرة فنثر أمامه بدرة من الذهب ، فوقع عليها نظره وطفق يجمعها ، فأمر جدته أن تفعل مثل هذا حتى تتزن نظراته ، فقالت له : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك ، يامولاى ! قال جيئى إلىّ به متى شئت ، إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر . وهذا الارتجاج فى نظره كان الشيخ الليثى كلما رآه أنشد : « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » .

ثم التحق شوقى فى الرابعة من عمره بمكتب الشيخ صالح . ثم درس فى المدارس الابتدائية والثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق على الرغم من صغر سنه عن السن المحدد لها ، وبعد عامين أدخل فى قسم الترجمة بها ، فاجتازه بعد سنتين ، وكان فى خلال ذلك قد نبغ فى نظم الشعر ، فكان يبعث به إلى الصحف مديحا فى المرحوم توفيق باشا . وما انتهى من دراسته حتى ألحقه بمعيته ، وأشخصه إلى فرنسا لدراسة الآداب والحقوق . فدرس عامين فى « مونبلييه » وعامين فى « باريس » ، وقد أتيحت له حينئذ زيارة بلاد كثيرة فزار إنجلترا والجزائر ، ثم عاد إلى مصر . وكان شاعر الأمير فى عهد عباس باشا الثانى ومازال فى معيته يترقى حتى أصبح رئيساً للقلم الفرنجى . فظل صفيا وفيا له ذا جاه وحظوة لديه .

وأكثر شعره حينئذ كان المدح . حتى خلع سموه عن عرش البلاد فرأى أولو الأمر أن يرحل شوقى بعيدا عنها ، فاختار بلاد الأندلس ، فعاش فيها زمنا طويلا هو وأسرته ، مستقراً فى إشبيلية ، متجولا فى غيرها من المدن. وفى هذه الفترة طرق أغراضاً شعرية جديدة تنبه لها خاطره منها : الحنين إلى البلاد ، والشكوى ثم رثاء المجد الزائل ، وتذكر الأيام الغابرة ، ومخاطبة الآثار القديمة ، وإنطاقها بالحكمة الرائعة والعظة البالغة ، ووصف مناظر الطبيعة . وغير ذلك . — ثم عاد إلى مصر ذا صلة يسيرة بالقصر الملكى ولكن ظللته عناية فؤاد مرارا حتى مدحه وقال فيه الشعر الخالد ومنه :

ظللتنى عناية من فؤاد	ظل الله عرشه بأمانه
ورعانى رعى الإله له الفا	روق طفلا ويوم مرجو شانه
ملك النيل من مصبيه بالشـ	ـط إلى منبعيه من سودانه
هو فى الملك بدره المتجلي	حُف بالهالتين من برلمانه
زاده الله بالنيابة عزا	فوق عز الجلال من سلطانه

على أنه إذا كانت حياته «رسمية» قبل نفيه ، فقد أصبحت عند عودته شعبية ! توجهت فيها نفسه إلى الأمة تشاركها فى كل أحاسيسها وثوراتها وعواطفها ، فكان شعره حينئذ سجلا لنهضتها وأفكارها ، وطفر بالشعر طفرة مجيدة فأنشد وأجاد أغراضاً جديدة كمخاطبة الآثار المصرية ووصفها وكالشعر السياسى والاجتماعى والوصفى والقصصى ثم التمثيلى ذلك الذى كان خاتمة مطافه ونتيجة موفقة لجهوده . كما فطن إلى شعر الأناشيد والأغانى . ـ ومع هذا كله ظل شوقى فى حالاته الثلاث : فى الوظيفة وفى المنفى وبعد عودته ، محل إجلال عظماء المصريين من أمراء ووزراء وقادة ، مرعى المكانة مبجلا أينما سار . وإن لأخلاقه الخاصة أثراً كبيرا فى هذا ، فإنه كان وديعاً يتجافى عن الألم والحزن قريب رضى النفس ، لا يحل إلا حيثما يحب ، ولا يحسد ، ولا يبطر ، ولا يحقد إلا على من ينقد شعره بلا حق . فكان له بذلك معين سعادة غير ناضب . وظل كثير الرحيل إلى أوربا والقسطنطينية وسوريا . ومازال حتى قبض إلى رحمة الله سنة ١٩٣٢م.

ومما يذكر . أنه كان عضوا فى وفد مصر إلى مؤتمر المستشرقين فى جنيف عام ١٨٩٤ م حيث ألقيت فيه قصيدته الرائعة التى وصف بها « كبار الحوادث في وادى النيل » وهى نحو ثلثمائة بيت ، وأولها :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء
ضرب البحر ذو العباب حواليـ   ـها سماء قدأكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الأر   ض شبا كا تمدها الدأماء

ومما يذكر أيضاً ، أنه بمناسبة إصداره ديوانه « الشوقيات » أقيمت له حفلة تكريم رائعة فى أواخر إبريل سنة ١٩٢٧ م ظلت أسبوعا ، واشتركت فيها أمم من الشرق والغرب بإيفاد مندوبين عنها إلى مصر ومعهم له النفيس من الهدايا . كما أهدت إليه الطوائف المصرية هدايا أخرى ثمينة ، وكانت البلاد خلالها تموج فى بحر من الفرح عظيم ، فخظى من وراء ذلك بما لم يحظ به شاعر عربى فيما نعلم . وذلك دليل على بعث الحياة الروحية السامية في شعبنا المصرى الكريم . ومن لطائف هذه الحفلة أن نظم حافظ إبراهيم — رحمه الله — قصيدة شائقة مطلعها :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى   بشعر أمير الدولتين ورجعى
ومنها: أمير القوافى قد أتيت مبايعا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وكنت أشهد هذا وأسمعه فيمن يسمع بدار الأوبرا الملكية . فوقف حينئذ شوقى ومد يده إلى حافظ ، فتقدم هذا إليه وتصافحا وتعانقا ، فكانت هذه مبايعة « رسمية » طرب لها الناس أيما طرب . . !

ومما يذكر أيضا أن وزارة المعارف قد أقامت لشوقى حفل تأبين عظيما فى دار الأوبرا أيضاً وذلك بعد وفاته ، ورثاه فيه دهاقين الأدب وقادة الشعر . كما أقيمت له حفلات تأبين أخرى فى البلاد الشقيقة .

أسلوبه ومعناه : قد أوردنا فى الكلام السالف كثيراً من أغراضه الشعرية ومنها أيضاً الغزل والخمريات والفكاهة ومدح النبي وفخره بشعره . أما أسلوبه فإن شوقياً كان يؤثر جانب المعنى على اللفظ . ومعانيه أقرب إلى التسلسل المنطقى ،

وكثيراً ما كان يحشدها فى اللفظ القليل ، وقد ينتج من هذا أن يضيق صدر اللفظ بما أحرج به من المعانى فلا يؤديها حق الآداء ! ولتنظر إلى البيت التالى ، قال :

رب سامى البيان نبه شانى أنا أسمو إلى نباهة شانه

يريد أن يقول : كثير من عظماء الناس وأمراء البيان فيهم ، يثنون علىّ وينبهون شأنى ، فأرتفع فى نظر الجمهور وأسمو إلى منزلة فوق منازلهم ، ولكن الحق أننى إنما أسمو شيئاً فشيئاً لكى أصل إلى ما وصلوا هم إليه . —

وإليك بيتاً آخر قال يصف الشعر :

ملك ظله على ربوة الخلد وكرسيه على خلجانه

يريد أن يقول : إن الشعر كالملك العظيم الذى بنى ملكه فى الخلود حتى أصبح كرسيه ثابتاً فى خلجانه وظله على رباه . فتحمل اللفظ ما لا يطيق ، والأقرب أن يكون الكرسى على الربوة والظل على الخلجان . . . — ليس معنى ذلك أن شوقياً لم يعن بالأسلوب ، لا ، بل كان كأنه فرغ من أمره وملك ناصيته ، فيصرفه كيفما شاء وهو له مطواع ، فلم يلق إليه إذن بالا . . وأنحى على المعانى يقنص شواردها ويقيد أوابدها ، ويطلع على الأدب الأوربى ويمتص منه ما يحلو له .

على أنه عارض بعض الشعراء كالبوصيرى فى « نهج البردة » والبحترى فى « السينية » والحصرى فى « ياليل الصب » وغير ذلك . ويؤخذ عليه : (١) استعمال بعض الكلمات الدخيلة مثل كلمة « البرلمان » . و (٢) التجوز فى معنى الكلمة تجوزاً بعيداً مثل كلمة « الشرى » استخدمها بمعنى « الغاب والعرين » مع أنها موضع معين معروف بكثرة آساده . و (٣) بعض الأخطاء النحوية وبعض الغلطات فى القافية . — إلا أن هذا كله قليل محدود ، وهو أمر قد لا نجد شاعرا سلم منه . — وهناك أمر جدير بالرعاية وهو امتياز شوقى بتوليد المعانى والأخيلة وابتكار التصورات ، وهو أكثر الشعراء الحديثين معانى ، وأبرعهم فى ابتكارها والتجديد فيها . وقد مرت لنا أمثلة لذلك .

مؤلفاته : كثيرة منها : (١) ديوان شعره ، وقد صدر منه ثلاثة أجزاء ، (٢) رواياته الشعرية التمثيلية ومنها « مصرع كليوبترا » ، « مجنون ليلى » و « قمبيز » و « على بك الكبير » وغير ذلك . (٣) كتاب تاريخى اسمه « عظماء الاسلام » (٤) أسواق الذهب : وهو كتاب حوى فصولا نثرية فى الأدب والوصف والاجتماع . وبهذه المناسبة نقول : إن نثره ممتع كثير المعانى جم الحكمة ، غير أنه التزم فيه السجع التزاما ، وبعض أنواع البديع ، كل ذلك فى فقار قصيرة مفصلة . . وقد أوردنا فصلا منه فى باب النثر بعنوان « وصف الصوم » .

وبعد فنعتقد أن هذا الشاعر قد أثرت فيه حياة القصور التى عاشها فى بدء حياته . ولهذه الحياة نظم دقيقة وقوانين مرسومة . أقل ما فيها أنها تأبى على من يعيشها أن يظهر بين الناس إلا فى ثوب من الكمال . لذلك تقيد شوقى بهذا المظهر فى آثاره الأدبية . فحرص حتى فى الفترة الثانية من حياته على ألا يقول إلا ما يُرضى الناس . . فراعى القيود الاجتماعية مراعاة كبيرة . . . ولو أنه لم يعبأ بها لظفرنا من هذا الفنان العظيم بشعر أروع وأمتع . هذا هو اعتقادنا . وإليك بعض نماذجه الشعرية :

١ - أوردنا له أبياتا عدة فى أغراض شتى وفى مواضع متفرقة . فعد إليها .

٢ - قال يصف نخلا :

أرى شجرا فى السماء احتجبْ	وشق العنان بمرأى عجب
مآذن قامت هنا أو هناك	ظواهرها درج من شَذَب
وليس يؤذن فيها الرجال	ولكن تصيح عليها الغُرُب
وباسقةٍ من نبات الرمال	نمت وربت فى ظلال الكثب
كسارية الفلك أو كالمسلة	أو كالمنار وراء العبب

٣ - وله من موشحة بعنوان « صقر قريش » أو عبد الرحمن الداخل :

من لنضو يتنزى ألما	برح الشوق به فى الغلس
حن للبان وناجى العلما	أين شرق الأرض من أندلس

بلبل علمه البينُ البيان بات فى حبل الشجون ارتبكا
فى سماء الليل مخلوع العنان ضاقت الأرض عليه شبكا
كلما استوحش فى ظل الجنان جن فاستضحك من حيث بكى
ارتدى برنسه والتثما وخطا خطوة شيخ مُرعس
ويُرى ذا حدب إن جثما فإن ارتد بدا ذا قعس

٤ ـ قال يصف « حفلة راقصة » : أقيمت بقصر عابدين .

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب
ومنها : فالقدود بان رُبا يد أنها تثب
يلعب العناق بها وهو مشفق حدب
فهى مرة صُعُد وهى مرة صَبَبُ
وهى ههنا وهنا تلتقى وتصطحب
مثلما التقت أسل أو تعانقت قضب
الرءوس مائلة فى الصدور تحتجب
والنحور قائمة قاعد بها الوصب
والنهود هامدة والخدود تلتهب
والخصور واهية بالبنان تنجذب

٤ ـ قال يصف « رحلة إلى الأندلس » ويعارض البحترى فى « سينيته » التى وصف بها إيوان كسرى : وهى قصيدة طويلة فمنها :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفا لي ملاوة فى شباب صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت سِنةً حلوة ولذة خلس
وسلا مصر : هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليالى عليه رق والعهد فى الليالى تقسّى
ومنها : أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

كل دار أحق بالأهل إلا … فى خبيث من المذاهب رجس

ومنها : وطنى لو شغلت بالخلد عنه … نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

٥ - أبيات سائرة كثيرة جداً فى الأخلاق والعلم والمال وغيرها فمنها :

ا - وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت … فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ب - دقات قلب المرء قائلة له … إن الحياة دقائق وثوانى

حـ - بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمُ … لم يبن ملك على جهل وإقلال

د - أَمِنَ سرق الخليفة وهو حى … يعف عن الملوك مكفنينا

هـ - وليس بالفاضل فى نفسه … من ينكر الفضل علي ربه

مراجع الكتاب

١ ـ الخطط المقريزية : للمقـــريزى .طبع بمطبعة النيل بالقـاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.
٢ ـ وفيات الأعيـان : لابن خلـكان . « « بولاق الأميرية سنة ١٢٩٩ هـ.
٣ ـ فوات الوفيـات : لابن شـاكر . « « « « سنة ١٢٨٣ هـ.
٤ ـ خـــزانة الأدب : لابن حجة الحموى. « بالمطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ.
٥ ـ حسن المحـاضرة : للســيوطى . « بمطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ.
٦ ـ خطط مصر الجديدة التوفيقية : لعلى مبارك . طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٦ هـ.
٧ ـ يتيمـــة الثعالبى : لأبى منصور الثعالبى . طبع بالمطبعـــة الحنفية بدمشق .
٨ ـ صبح الأعشى للقلقشندى .
٩ ـ مقدمة ابن خلدون .
١٠ ـ كتاب الروضتين للمقدسى .
١١ ـ الكافى فى تاريخ مصر لميخائيل شاروبيم .
١٢ ـ الأتراك العثمانيون لحسن لبيب .
١٣ ـ الدولة العلية لمحمد بك فريد .
١٤ ـ محاضر انعقاد مجلس شورى القوانين .
١٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .
١٦ ـ الوسيط للأستاذين الإسكندرى ومصطفى بك عنانى .
١٧ ـ المفصل والمجمل والمنتخب وضع المرحوم أحمد الإسكندرى وطائفة من كبار أدباء العصر الحاضر .
١٨ ـ مذكرات للأستاذ أحمد الإسكندرى فى الأدب الحديث وفى فقه اللغة العربية .
١٩ ـ ثورة الأدب لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا .
٢٠ ـ ساعات بين الكتب للأستاذ عباس محمود العقاد .
٢١ ـ خلاصة تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد الحسينى رخا .
٢٢ ـ كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر لسليمان رصد .
٢٣ ـ صفوة العصر لزكى فهمى .
٢٤ ـ المدائح النبـــوية للدكتور زكى مبارك .
٢٥ ـ كثير من أعداد الهلال وقصاصات الصحف ، ومؤلفات المترجم لهم من نثر وشعر .

فهرس

ملحوظة : وضعنا حرف « م » أمام الموضوعات الرئيسية الواردة فى منهج الأدب للسنة الخامسة الثانوية بالمعاهد الدينية .

صفحة

صفحة

تم بحمد الله وعونه تعالى فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٧هـ، ١٥ مايو سنة ١٩٣٨